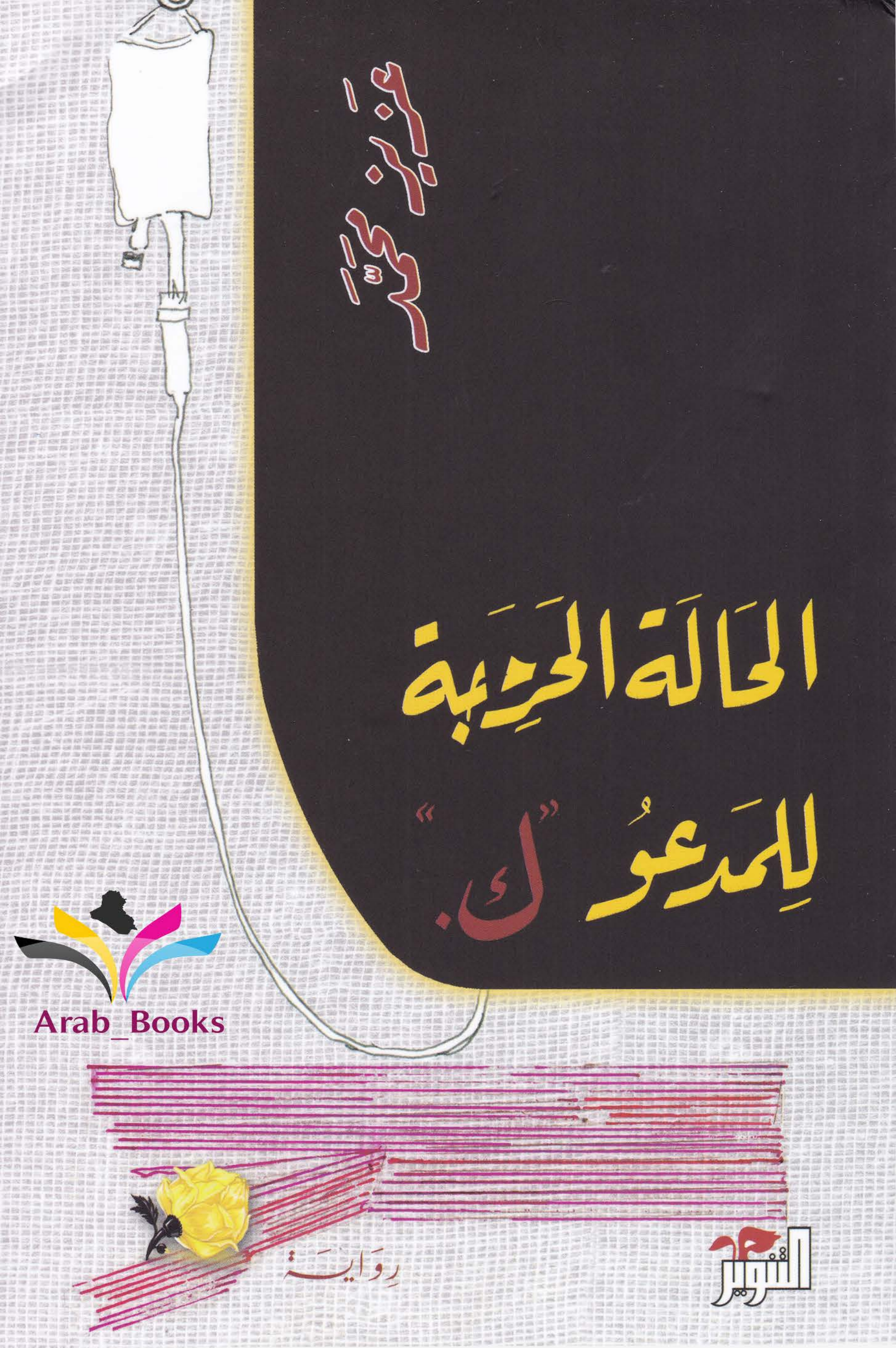

عزيز محمد
الحالة الحرجة
للمدعو "ك."
رواية
التنوير
Arab_Books

عزيز محمد

الحالة الحرجة للمدعو «ك.»

الكتاب: **الحالة الحرجة للمدعو «ك.» (رواية)**

تأليف: **عزيز محمد**

عدد الصفحات: 272 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-39-9

الطبعة الأولى: 2017

الناشر

التنوير دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-جاردن سيتي -2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى)
الدور الأرضي - شقةرقم 2
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

عزيز محمد

الحالة الحرجة للمدعو «ك.»



الفصل الأوّل

الأسبوع 1:

حالما أستيقظ، يراودني شعور بالغثيان.

أتنفّس بمشقّة، أفرك عينيَّ، أحدّق عبر غشاوة من نعاس. على المخدّة ثمة بقع داكنة؛ أخمّن من طريقة تنفسي أن مصدرها أنفي. شاربي الأيسر متيبس بأثر التخثّر، والدم لا يزال رطباً داخل التجويف. أجفل متنبّهاً، أرفع رأسي، وخلال برهة يعود نبضي للهدوء. من موضع الشمس في شباك الغرفة أدرك أني تأخّرت على كل حال. أنقلب إلى الطرف الآخر من المخدة، وأغمض عينيَّ مجدَّداً.

أتذكر أني قبل أن أنام، مطلع الفجر، كنت أقرأ كتاباً. وقبل ذلك، استحممت بالماء الساخن؛ قرأت مرة أن هذا يجلب النعاس. وقبلها تناولت العشاء، دخّنت، تنقلت بين الغرف، أشعلت الإضاءة وأطفأتها، دخلت سريري وخرجت منه، نهضت وجلست بلا هدف. لا شيء يختلف عمَّ يفعله الناس كل ليلة إذا ظلّوا مستيقظين. لقد اخترت اليوم الخاطئ لأكتفي بساعتين من النوم، لكن أيَّ يوم سيكون خاطئاً لهذا.

وسط الفوضى على الكومودينة، الجرس الحاد لساعة المنبّه يعاود الضرب كمسمار في الرأس.

يتطلّب الأمر بضع دقائق كي أنهض من السرير أخيراً. أقلب في ذهني حقيقة أني تأخّرت، من دون أن تدفعني للتعجّل. أتبوّل، ومن لون بولي أخمّن حاجتي للماء. أنظف أسناني حتى تؤلمني لثّتي، ومن هذا أخمّن انتهاء مدة التنظيف. أغسل وجهي من آثار النوم والدم على شاربي وجوف الأنف. أشتمّ الرائحة المعدنية المألوفة. يتسرّب شيء منها إلى حلقي، كقَبَسٍ من ذكريات قديمة.

في طفولتي، كان من عادتي أن أصاب بالرعاف. وكنت أستشعر الجريان الدافئ للدم وهو ينحدر بخفة في مجرى التنفس، قبل أن أراه يتساقط على ملابسي وقدميَّ. اللحظة الأولى لرؤيته ظلت دائماً مرعبة، على الرغم من أنه لم يكن ثمة ألم. كان الرعاف كثيراً ما يمنعني من الاشتراك في اللعب مع بقية الصبيان بعد المدرسة، خصوصاً في الأيام الحارَّة المشمسة. وعلى الرغم من أني اكتسبت خبرة في طريقة إيقاف النزيف، بوضع مكعب ثلج أعلى الأنف مثلاً، أو بإغلاق العِرق المفتوح بضغطه بإصبعين من الخارج، إلا أن الشمس الساخطة لهذه الأرض ظلّت قادرة على تجديد سيولته.

لكنه الآن فصل الشتاء؛ أتأكد من النافذة. إنها مشمسة فوق آثار مطر حديث. أرتدي ملابسي على عجل، هذا هو الروتين الوحيد الذي أتدارك به تأخّري. حالما أخرج، تُعاود الهطول.

في السيارة، ترتفع الموسيقى صاخبةً ما إن أدير المفتاح. أُخرِس الراديو بذات الحركة العنيفة التي امتدت بها يدي للمنبّه فوق الكومودينة. لا تراودني أي فكرة طوال الطريق. ماسحتا النافذة

الأمامية تتحركان يمنة ويسرة كنابض تنويم مغناطيسي. فوراً أجد نفسي في المواقف الممتلئة عن آخرها، وهناك أستعيد وعيي بالمكان. أركن بعيداً وأغذّ الخطى؛ الجو بارد وثمة ما يحث على الإسراع.

أثناء دقائق المشي الطويلة نحو البرج، أرفع رأسي لأحدّق به عدة مرات. المبنى بكامله متاح للنظر، ويسهل الاهتداء إليه من كل الجهات، إلا أن المدخل يبقى متوارياً ويحتاج بلوغه التفافات عدّة. يشعر المرء كلما اقترب كما لو أنه لن يدخل أبداً.

كل شيء على حاله منذ الأمس، لكن بطريقة ما كل شيء مختلف أيضاً، لشدة ما يبعث الغربة في النفس.

فور العبور من المدخل الجانبي تنبعث الرائحة القوية للطلاء، والتي لا يكف الممر المفتقر للتهوية عن الاحتفاظ بها. ثمة سلالم كهربائية في نهاية الممر، لا يُرى آخرها من أولها، وهي لا تتوقف عن الحركة نحو الأعلى، كما لو أنها ستقودك إلى حيث تريد أن تصل. لكن المرء لا يستقل السلالم إلا ليصل إلى ردهة المصاعد، وهناك ينتظر. في هذا الوقت المتأخر من الصباح، ردهة المصاعد خالية من المنتظرين سواي. لكن ليس ثمة فرق في مدة الانتظار بين أن تكون ممتلئة أو خالية.

الواجهة الزجاجية للردهة تطل على ساحة خارجية، تضم حديقة لا يتنزه فيها أحد، ومقاعد خشب يشغلها المدخّنون. بإمكاني دائماً أن أخمّن مدى تأخري من عدد المدخنين في الخارج. لا أحد ينزل للتدخين فور وصوله؛ لا بد من أن يكون قد لوحظ في الأعلى أولاً بما يكفي ليثبت حضوره. ولعل الواجهة الزجاج صنعت خصيصاً ليشغل الناس أبصارهم بهذه الملاحظات ريثما ينتظرون. ثم بمجرد أن يصل

مصعد يتدافعون فوراً إلى داخله، كمن لا يطيق رؤية ذاك المنظر برهة إضافية واحدة.

أدخل وأكبس زر الطابق العاشر. يبقى المصعد مفتوحاً لفترة قبل أن ينغلق من تلقاء نفسه. ألقي نظرة على الساعة. أتأكد من سحّاب بنطالي، فكثيراً ما أنساه. أتأمل ملابسي من الأعلى للأسفل، كما لو كانت المرة الأولى التي ألاحظ فيها ما ألبسه.

بمجرد أن أصل إلى الطابق العاشر أخبئ كفّي في جيبي، وأحاول أن أبدو كمن هو واثق من موعد قدومه. أحافظ على هذا المظهر وأنا أعبر الممر الرخام للإدارة، وأفتح الباب الزجاج الذي يعزل القسم. ثم أتخذ طريقي عبر الممرات الضيقة بين صفوف المكاتب، متجنباً الاصطدام بأحدهم ورد التحية على آخر. وأخيراً أجلس أمام الجهاز. أنزع الورقة الصفراء التي أعرف من كتبها وألصقها على الشاشة من دون أن أقرأ، ثم ألقي التحية الصباحية على العجوز الجالس إلى جواري. يخرج صوتي منهكاً على نحو فاضح. تتردّد في ذهني عبارة من يوميات كافكا التي أقرأها هذه الأيام: «عند الحديث المباغت يخرج من الفم شيء من اللعاب، كفألٍ سيئ». حين أسمع الصوت الشاحب بجانبي يرد التحية، أدرك أنه يوم عمل عادي آخر، كأنني أكتشف هذا للمرة الأولى منذ الاستيقاظ.

الغثيان مجدداً، بمجرد أن أضع عيني على الشاشة. لعلي لا زلت تحت تأثير تلك اليوميات؛ إن من شأن الإفراط في كافكا أن يصيبك بمختلف الأشياء. لكني طالما شعرت بهذا الإنهاك المغثي، بدرجة أو بأخرى، في الصباحات الباكرة. وأذكره زائراً دؤوباً في بداية مراهقتي بالتحديد؛ ربما لأن الأشياء دائماً تكون ملحوظة، أشدّ ما تكون، في بداياتها.

حين أُوقظ للمدرسة في السادسة صباحاً، كنت أقضي دقائق طويلة في الحمّام، مستنداً برأسي إلى صندوق الطرد. وما إن أكاد أغفو حتى يوقظني الطرق العنيف للباب من أمي التي تستعجلني اللحاق بالباص. كنت أتعذّر لها بمختلف الحجج كي أغيب؛ ورغم أن أعذاري تتشح بالتصنّع الذي تميزه في نبرتي عادةً حين أكذب، إلا أن الغثيان والإرهاق لم يكونا بكاملهما مُفتعَلَيْن. «تحمّل»، كانت ترد؛ أتذكّر الكلمة جيداً لأنها تردّدها بشكل تلقائي وبكل إصرار. وكنت دائماً ما أضطر لأن أكرّر الشكوى وأصرّ من جهتي، حتى أزيل ظنها بأني ألجأ لها من دون سبب حقيقي، أو أقاوم افتراضها بأني لم أبذل جهداً للتحمّل.

كنت في السنة الأولى من المرحلة المتوسطة حين اقتنعوا ذات مرة بأخذي إلى الطبيب. كان معي والدي، وكانت الغرفة صغيرة وضيّقة، أو بدت لي كذلك حينها. وكان للطبيب يدان كبيرتان غليظتان راح يتحسّس بهما صامتاً جسدي. وبعد أن فحصني، قال إن كل شيء طبيعي، ثم قام وغسل يديه وجففهما، بحركات تنم عن عصبية، كمن لا يملك الوقت والمزاج لمثل هذه الشكاوى. وحين التف حول طاولته ليجلس، أخذ معطفه يحتك بالجدار، مصدراً حفيفاً مريعاً، كان أثقلَ مما يتوقّع صدوره من احتكاك كهذا.

كنا نجلس على الطرف الآخر من الطاولة، أنا وأبي، في كرسيين متقابلين، وأقدامنا تكاد تتلامس. وكان الصمت طاغياً، إذ لم نكن نسمع سوى الوقع الحاد لقلم الطبيب وهو يخط في الملف شيئاً لم يكن مضطراً لكتابته الآن، وقد اتضح أن الحالة لا تستدعي الزيارة. وفجأةً، سحب أبي قدميه إلى جهته قليلاً. ربما لم تكن الزيارة لتترك هذا الأثر لو لم يكن أبي معي.

«الأمر طبيعي جداً»، كرّر الطبيب، بنبرة توحي بأنه يملك الآن الوقت والمزاج ليعاقبني على إضاعة وقته. «في هذا العمر، تنقسم الخلايا بشكل أسرع من المعتاد أثناء البلوغ، مما يدفع الجسم لأن يستهلك طاقته في النمو». ثم وضع القلم وأسند إحدى يديه أمام الأخرى، كما لو يسند بها مقته. «لو أن كل مراهق يتردّد على عيادة بمجرّد أن يشعر بشيء من التعب والغثيان لامتلأت العيادات بهم وانشغلنا عن الحالات المهمة». في نظره بدوت كأحد أولئك الصبية المدللين الذين يشكون لأتفه وطأة، وربما ظهر له واضحاً أني سأكبر لأصبح رجلاً يتذمر من وظيفته.

واصل حديثه فيما كانت ذراعه الصلبة لا تنفك تصدر حفيفاً على الطاولة، كاتماً حركة أعنف. أما أبي فكان ينظر في زاوية الطاولة شارداً، بتعبير رجلٍ يتلقّى خبراً عن ضعف حيواناته المنوية. في نقطة ما، ومن دون أن ينظر نحوي، قال موافقاً: «نعم، إنه يبالغ». كان هذا الشيء الوحيد الذي نطق به، وبأهدأ نبرة ممكنة، حتى قد تظن أن الأمر سيكون أهون عليه لو كنت مصاباً بشيء خطير.

«لكنه ولد صحّي ومهذَّب»، قال الطبيب، متداركاً أن تبدو نبرته مسيئة لجينات والدي أو تربيته. «وجسده سليم ولا تنقصه القدرة على التجلّد»، أكمل فيما ظلّ يمسحني بنظرته من الأسفل للأعلى، وعلى وجهه ذات الابتسامة التي تجامل أبي وتحتقرني في آن واحد. وحين ابتسم أبي في المقابل، وقد لاحظ الطبيب هذا بنظرة جانبية متواطئة، أخذ حديثه يكتسب طابعاً مرحاً، فإذا به ينصح ويوبخ مداعباً، «يجب أن تكون صلباً!»، ويدعم أقواله بقبضته المكوّرة، فيما يدق مرفقه الصلب على سطح الطاولة. وإذا شعر بأن كلامه لم يحدث وقعاً حسناً في نفسي، كان يضحك عالياً ليؤكّد أن حديثه يخالطه المزاح، من دون

أن يخلو كذلك من الأهمية، ثم يروح يلتفت لأبي مبتسماً، ليستمد من ابتسامته المتبادلة المزيد من الصلاحيات، كأن الطبيب هو الجانب الموبخ من أبي، حتى إنه أخبرني أن أكف عن التمارض والوسوسة كي لا أقلق أمي. لا، لم يكن ليعزو الأمر لجينات والدي، فكلاهما كانا الشخص نفسه؛ كنت أفكر بشيء كهذا وأنا أنظر بتصميم إلى الأرض، كمن يعقد عزمه على الهرب.

وفجأة، مد يده الغليظة الباردة، ربما ليربت على خدي أو ليمحو عن وجهي تلك النظرة. وشعرت بغريزة ما أنه مدها ليصفعني، فأجفلت لحركته تلك وتراجعت في مقعدي. فما كان منهما سوى أن انطلقا معاً في ضحكة صاخبة، راضية عن نفسيها، تؤكد ما توصّلا إليه بخصوصي. بهذا كان قد حُسم، بشكل قاطع ونهائي، أن الخلل مهما كان إنما يكمن في طبيعتي. أبقى الطبيب كفه مفتوحة تجاه أبي، بحركة تنم عن اعتذار، لأن تلك علّة لا يمكن له شفاؤها، ومد أبي كفّه في المقابل. وقد نهضا معاً وتصافحا بحرارة، وقامتاهما الضخمتان مشدودتان من فوقي، كما لو يتصافحان على شيء آخر غير انتهاء الزيارة. في تلك اللحظة نفسها، أدركت بطريقة ما أن هذا سيبقى معي طويلاً؛ مجرّد واحد من تلك التغييرات التي تحدث أثناء النمو وتحكمك طالما حييت. هذا كل ما يتطلّبه الأمر، لحظة تافهة كهذه، يدرك المرء بعدها، للمرة الأولى وللأبد، عناءَ أن يكونَ نفسه.

الأسبوع 2:

يوم آخر خاطئ للاكتفاء بساعتين من النوم. أستيقظ فزِعاً، أقود السيارة كسكران وأصل للمكتب. أنزع الورقة الصفراء، أكوّرها على الطاولة، وألقي التحية الصباحية على الشيخ؛ سأسميه بهذا هنا تيمّناً برواية هيمنغواي المفضَّلة لدي. إنه الرجل الذي يشغل المكتب المجاور، أو ربما من الأدق أن أقول شاشة الكمبيوتر المجاورة؛ فحين ازداد عدد الموظفين فوق المساحة الاستيعابية للقسم، وضعوا مكتباً بين كل مكتبين. يكتظ المكان الآن بصفوف طويلة ومتلاصقة ومتوازية من الشاشات المفتوحة على بعضها، مثل مختبر حاسب في مدرسة. لا يقطع التسلسل المستمر للشاشات سوى المساحة المخصّصة لآلة الطباعة، والتي لا تتوقف عن إصدار الأصوات، دافعة بورقة فوق الأخرى، بحيث يجب على المرء أن يهرع راكضاً إليها بمجرد أن يطبع شيئاً كي لا تضيع ورقته بين أوراق الآخرين.

ازدحام مستمر وحركة لا تتوقف، هذا ما يضج به البرج من الداخل، رغم أنه يبدو من الخارج كأن أحداً لا يشغله.

لحسن الحظ أو لسوئه، مكتبي يقع مباشرة إلى جانب الطابعة، بل إنها تقتطع جزءاً من مساحته، حتى إني أشعر بسخونة الأوراق قرب رأسي كلما طبع أحدهم شيئاً. من شأن هذا أن يساعدني على تخمين إيقاع العمل في القسم بحسب وتيرة تدفّق الأوراق. في الأيام التي يغزر فيها العمل، أمتنع عن القراءة وتصفح الانترنت، لأن أحداً سيهرع إلى الطابعة في أي لحظة لالتقاط ما طبعه، وربما يقف آخر خلفه، ثم آخر، ثم آخر، تماماً مثل طابور الانتظار عند دورة المياه آخر ساعة الغداء.

ما عدا هذا، يوفّر موقعي حماية بصرية جيدة. بإمكان الشيخ فقط لو حدّق في شاشتي أن يرى أني أكتب عنه الآن، لكني مطمئن لطبيعته المنغلقة على ذاتها، والتي تضمن نسيانه لوجودي بمجرد أن يفرغ من رد التحية. إنه دائماً يرد من دون أن يلتفت، ليقطع أي محاولة لبدء محادثة مع أحد، فأي شيء يود سماعه منك لن يكون أكثر أهمية عنده مما يجري على شاشته. ولم يكن من دأبه أن يفارق شاشته تلك طيلة ساعات العمل، إلا ليقف متمطياً ويشتكي من برودة التكييف، ويكون صوته عندها محتقناً بشيء من الشحوب الذي يعتري حناجر من صمتوا لفترات طويلة. أحياناً، تبدو نقرته على الفأرة شاحبة أيضاً، كما لو كان صوتها ينحدر من حلقه.

إنه آخر شهر له في العمل، لكن يخيل لك أنه قد تجاوز سن التقاعد منذ أعوام عدّة. بشرته السمراء، الملوّحة بالشمس في عهد قديم، اكتسبت لوناً منطفئاً لفرط ما قضت نهاراتها بين هذه الجدران. وهو يرتدي ثوباً وغترة انطفأ بياضهما، ويترك غترته مرسلة إلى الأسفل بحيث تغطي جانبيْ وجهه طوال اليوم؛ لذا ظلّ يصعب عليَّ أن أخمّن ما يشي به تعبيره وهو يحدّق إلى شاشته. حين أفكّر بالأمر، فإن مظهره

يوحي بأنه ينتمي إلى أساليب حياة البحارة القدماء وصائدي اللؤلؤ في قيعان الخليج، ولعلها كانت مهنته قبل أن يقذف به النفط إلى هذا المكتب. لا زلت لا أعرف أي دور يؤديه في هذا القسم بالذات، بجوار صفوف القمصان والبنطلونات والعباءات الملوّنة، وحتى الثياب الحديثة التي تتحدّث رؤوسها بالإنجليزية متناولة تفاصيل تقنية دقيقة، ولعلّه هو أيضاً لا يعرف. يُخيّل إليّ أنه، لمجرد أنهم لا يملكون سبباً لطرده، تلقى تعليماتٍ بأن يبقى جالساً هنا ويتظاهر بالعمل حتى يُتمَّ سنين خدمته في الشركة. يبدو فعلاً بهيئته النحيلة، المتصلّبة على مكتبه، كمسمار صدئ مثبّت إلى هذه الآلة الضخمة التي سلخ فيها زهاء الثلاثين عاماً.

أعمل هنا بدوري منذ ثلاثة أعوام. فلنسمّها شركة البتروكيماويات الشرقية، على غرار شركة البترول الشرقية التي يعمل فيها بطل إحدى روايات تانيزاكي؛ وهي تسمية ملائمة لأننا في المنطقة الشرقية الغنية بالبترول من هذا البلد. من الأفضل عدم تحديد أي أسماء أو مواقع، فلا أدري أي متطفّل قد يقرأ يوماً ما كتبت. إنها شركة كبيرة ولها مستقبل مضمون، هذا كل ما يهم. بالنسبة إلى خرّيج تقنية المعلومات، لم يكن الأمر ليختلف لو عملت في شركة كهرباء أو غاز أو أسمدة أو أي خراء آخر. تخصّصي الجامعي أيضاً لم أختره بعد تفكير. حين أنهيت المرحلة الثانوية توفي والدي، وقد ساهم هذا التوقيت في توجيهي لخيارات ذات دوافع مادية. قيل إنه تخصّص مرغوب في سوق العمل، وماذا يرغب المرء أكثر من أن يكون مرغوباً في سوق العمل؟ على المرء أن يكسب قُوْته بطريقة ما، والشباب يعاني من البطالة، والبيت يحتاج إلى الراتب، وهل أنت أفضل من كافكا؟ ظلّت هذه أسباب كافية لأن أحافظ على مكاني ضمن عمال الياقات البيض.

لا يستدعي البقاء موظفاً في هذا القسم مجهوداً خارقاً على كل حال، باستثناء التقارير الدورية لتأكيد عدم وجود ثغرات أو اختراقات في النظام، والبلاغات المستمرّة التي تصلك من موظفين آخرين يقومون بأعمال أكثر أهمية ولا يملكون الوقت للمشكلات التقنية، والتحديثات التي لا تبلغ آخرها حتى يكون أولها قد احتاج التحديث مجدداً. وحين لا يكون هناك عمل، بسبب صدفة إعجازية ما، فثمة دائماً ما يمكن اختراعه وتكليف الموظف به متى لوحظ بيدين فارغتين، إن لم يبادر هو إلى طلب المزيد من المهمات كما يجدر به أن يفعل. يجب ألا يترك الموظف نفسه ليعتاد على الفراغ، يقول الخبراء هنا، حتى يبقى دائماً على أهبة الاستعداد متى استدعت الحاجة. بسبب هذه الحكمة، تُلقى عليك المهمات واحدة تلو الأخرى، قبل أن تفرغ من سابقتها، بحيث تبقى مشغولاً دائماً ومهيأً للمزيد من الانشغال، كأن لحظة فراغ واحدة قد تفسدك.

رئيسي المباشر شديد الإخلاص لمثل هذه الحِكَم، كما هو شديد التمسّك بكل ما يدعو إلى الإفراط في الاحتياط، ويحب ترديد عبارة الأميركيين: «لا يمكن أن تكون حذراً أكثر من اللازم». منظره بحد ذاته يبعث على الضجر؛ فهو يرتدي بنطاله إلى مستوى مرتفع يكاد يعلو سرّته، بحيث يضطر أن يرفعه وهو يمشي كلما كاد ينزلق عن كرشه. ولا يبدو أنه يدرك كم يجعله بنطاله العريض هذا شبيهاً بتشارلي تشابلن، ولعله يظن أنه يمتلك مظهراً عصرياً، وليطمئن لتلك الفكرة فإنه يخفض بصره باستمرار إلى حذائه السكتشرز، هذا الحذاء الأبله الذي يعبِّر بشكل مثالي عن شخصيته: الذوق السيئ والتقليد الأعمى والشعور المستمر بأنه لا يصلح لمنصبه.

ميزته الوحيدة أنه لا يتحدث كثيراً، فهو يكتفي بإلصاق الملاحظات

على شاشتك، وإذا ارتكبت خطأً فادحاً يقول: «آه، لا أستطيع التصديق». وإذا طفح الكيل تجده يحدّجك صامتاً بنظرة موبّخة حتى تدرك أن الخطأ الذي ارتكبته يتجاوز قدرته على التعبير. وكانت أخطائي في معظمها تتجاوز قدرته على التعبير، ربما لشدة ما يصعب تصديقها، رغم أنه دائماً يصدّق ويتوقّع ويترقّب وقوعي في الخطأ، بل يتوق لنسياني لبعض المهمات، ويقرر ألا يذكّرني بها إلا في يومها الأخير. أما إذا نسيت التدقيقات الخاصة ببرامج مكافحة الفايروسات، فإنه يدير عينيه في محجريهما حتى يكتمل بياضهما، فتظن لوهلة أنه على وشك الإغماء. لقد كان من شأن سماعه كلمة «فايروس» وحدها أن يفقده صوابه، بغض النظر عن السياق الذي وردت فيه. ورغم أننا لم نرصد فايروساً واحداً يشكّل تهديداً حقيقياً على النظام طيلة مدة عملي هنا، فقد ظلّ يعامل تلك التدقيقات الدورية في كل مرة كأن كارثة ستحدث إن لم نجرها في الموعد المحدّد. فإذا ما جاء ليذكرني بموعدها الذي أنساه دائماً، يظل يراقبني حتى أنهي الفحص، ويتفقّد مجرى العمل كل دقيقتين، ويبقى يحوم حولي ببنطاله الواسع وحذائه المريع وآخر التعبيرات الجوفاء التي سمعها من الأميركيين.

على كل حال؛ قد يكون ابن عاهرة، لكن ماذا بوسع الرؤساء أن يكونوا غير ذلك؟ من الواضح أنه يتلقّى ضغطاً كبيراً من الأعلى ولا بد أن يفرغه في مكان ما. أما رئيسه، مدير القسم، فهو ابن العاهرة الحقيقي، ولعله كلما كانت أم المرء عاهرة أكثر كلما زادت فرصته في الارتقاء في المناصب.

كان من عادة مديرنا هذا أن يؤجّل الإجازات كيفما شاء، بحجة احتياج القسم للموظفين خلال هذه الأيام الحرجة. وكانت أيامنا في القسم كلّها حرجة. لذا فإني، ما عدا أيام متفرقة من المرض هنا

وهناك، لم أحصل يوماً على إجازة، وظللت أؤجل موسماً بعد آخر طموحاتي في السفر إلى براغ أو بطرسبرغ. أما الأيام التي تتعرّض فيها الشركة حقاً لهجمات إلكترونية فكانت الأسوأ، إذ يتطلّب ضغط العمل عندها أن نبقى ساعات إضافية، محاولين تسجيل كل عملية قام بها كل موظف عبر حسابه، وعزل كل الأجهزة المشتبَه بتعرّضها لاختراقات، ولو كانت الشبهة لا تتجاوز استخدام أحدهم لكلمة مرور خاطئة مرة أو مرتين. ولم تكن تلك الساعات الإضافية تُعوَّض بأي مردود مالي، إنما يُفترض دائماً أن الموظف يقوم بها نتيجة حرصه على مصلحة الشركة. عندها، يروح هذا المدير يذرع المكاتب في طريقه للمغادرة، وذقنه المتدلي على عنقه كلغد الديك يصفق يمنة ويسرة، وهو يردد لنا بنبرة مشجعة: «أنتم جنودنا المجهولون»، قبل أن يخرج عائداً إلى بيته. لطالما بدت تلك عبارة غريبة بالنسبة إلى إطار عمل شركة بتروكيماويات، «جنود مجهولون»، لكنها بطريقة ما ظلّت تنفخ روحها في الموظفين.

لكن عدا أشياء من هذا القبيل، فالأمر مقبول، والوظيفة هي الوظيفة. من شأن المرء أن يعتاد أياً من هذا إذا ما اضطر لخوضه بشكل روتيني، كما يعتاد الدخول من ممر جانبي. ولأكون عادلاً، لم تكن أردأ وظيفة في العالم. من المهم أن تذكّر نفسك باستمرار أنه يمكن للأمور أن تكون أسوأ.

مثلاً، في بداياتي في الشركة، قبل انتقالي لهذا القسم، اضطررت للعمل في حجيرة مشتركة مع ثلاثة موظفين آخرين، من دون أي خصوصية كافية تتيح لي إمكانية القراءة أو الكتابة كما أملك الآن. وكان هؤلاء الثلاثة صورة مرعبة للالتزام؛ جنودٌ مجهولون بمعنى الكلمة. لم يحضر أحدهم يوماً بعد الثامنة، ولم يغادر أحدهم يوماً قبل الخامسة،

وبين هذا وذاك يكاد أحدهم لا يغادر مكتبه؛ فأنت لا تدري متى يعبر المدير بالمكاتب ولا يراك، أو يصل بريد إلكتروني مهم ولا تفتحه خلال دقيقة. لم أشاهدهم مرة يأكلون، ومن الطبيعي أيضاً أني لم أشاهدهم يذهبون للحمام. وجودهم كله كان مسخَّراً للعمل، وفي سبيل هذا طوّعوا حاجاتهم الجسدية لتلائم جدول عملهم بانتظام جنديّ أصيل.

كانوا بمجرد بدء ساعة الغداء يغادرون فوراً ولا يعودون إلا عند انقضائها، لأن غيابهم عن المكتب خلال تلك الساعة هو جزء من الالتزام الصارم الذي يجب على كل جندي حقيقي أن يتبعه؛ فأن تعمل في ساعة الغداء يعني أنك لم تعمل قبلها بجهد كافٍ يستدعي منك أخذ راحة؛ وكذلك أن تعمل بعد الساعة الخامسة ليس بالضرورة دلالة اجتهاد هناك، بل ربما يعني أنك لم تنظّم وقتك بما يكفي لتنجز مهماتك خلال ساعات العمل.

كانت احترافيتهم تلبّي دائماً تطلعات الإدارة التي تحيط بأتفه التفاصيل، مثل عدم تشابك الأسلاك تحت جهازك حفاظاً على السلامة، ومدى تنظيمك للأوراق في المساحة الضيقة لمكتبك. ورغم أن بعض تلك التفاصيل لم تكن معايير معلنة لتقييم أداء الموظف، إلا أنها، بحكم العدد الكبير للموظفين، ظلّت ضمن المقاييس الإدارية السرية لتمييز الموظف المسؤول. لم يكن أحد يعرف أين تبدأ تلك المقاييس السرية وأين تنتهي، وأيها لُوحظ وأيها لم يُلاحظ. لكن هؤلاء الثلاثة كانوا دائماً على أهبة الاختبار، كأن ثمة عيناً عادلة تراقب كل صغيرة وكبيرة في المكان وستجازيهم يوماً ما بما يستحقونه.

كان وجود شخص على قدر فوضويتي بينهم أمراً لا يمكن إلا أن يُزدرى. فأنا مثلاً لم أكن أتوقف عن الأكل، غالباً لأنه لم يكن ثمة شيء

آخر أفعله. وهي مشكلة لم أعد أعاني منها الآن، بعد أن فقدت شهيتي للأصناف المحدودة في الكافتيريا نفسها. لكن في ذاك الوقت، كانت تلك إحدى مسرّاتي القليلة المعرّضة للتهديد، إذ ثمة نوع من الارتباك يشعر به المرء حين لا يأكل سواه في المكان. بمجرد دخولي بالطعام كانوا يظهرون تحسّساً تجاه رائحته، بإصدار نوع من الاستنشاق المنزعج، لأن الفطائر والساندويتشات تفسد عليهم هواءهم. ثم بمجرد أن تدخل اللقمة في فمك تشعر بأنك مراقب، وأن كل صوت مسموع في الجدران، لأن أحداً منهم يكاد لا يأتي بنأمة. وأحياناً تبدأ بطنك بالقرقرة، فيختنق الجو بالتوتر. وكان الأمر ليكون أكثر أريحية لو أن أحداً منهم علّق ساخراً أو أظهر تعجّباً من تلك القرقرات، لكنهم يكتفون بحركات غريبة لا معنى لها، كأن يهز أحدهم الفأرة في يده أو يحرّك كرسيه تزامناً مع الأصوات، فقط بالدرجة التي يخبرك فيها أنه يسمعها، وأنها تشتّته، وعليك عمل شيء بخصوص هذا. ولا يساعد في تهدئة امتعاضهم كونهم يعلمون أنك أكلت لتوّك، بل يزيد الموقف توتراً، إذ ليس في أجسادهم المنتظمة في مواعيد أكلها وخرائها ما يجعل أحداً منهم يفهم أن المعدة أحياناً تقرقر هكذا من دون سبب. لذا قد يشعرون بأنك تجعلها تقرقر متعمّداً فقط لتزعجهم، كأنها مجرد بذاءة خالصة منك تجاههم، وربما رفعوا ملاحظات بخصوص ذلك للإدارة: الموظف الجديد بطنه تقرقر أكثر من اللازم! حتى إن رئيسي في ذلك القسم وقف خلفي ذات مرة وأمسك بكتفي وهو يسأل: هل أنت بخير؟ ولأني لم أكن أشكو من أي عارض جسدي مرافق، أجبته أني بخير. أخذ يتلفّت ناحية الثلاثة الآخرين ليتأكد منهم أنني المقصود بالملاحظة، وحين تأكد من نظراتهم منحني تربيتة على كتفي بطريقة تقول: تمالك نفسك.

كانت المرة الوحيدة التي أبدوا فيها ازدراءً صريحاً تجاهي هي حين سألتهم عن شيء متعلّق بمهمة كُلّفت بها، وكان سؤالي يكشف جهلي بأساسيات سير العمل في ذاك القسم. كانت قاعدة غير منطوقة هناك أنه من المعيب أن تستفسر؛ فالدراية بالأمور موهبة يملكها الجميع، وكانوا يجعلونها تبدو سهلة على الدوام، بل يجب ألا تعمل في ذاك القسم أساساً إن لم تكن قادراً على العثور على إجابة لكل شيء بنفسك. وحين سألت أحد أسئلة المستجدّين التافهة تلك، والتي تؤكّد أن هذا القسم المتخصّص ليس مكاني بتاتاً، سمعتهم يضحكون للمرة الأولى؛ وكانت قهقهاتهم، على غير ما توقّعتها، صاخبة رنّانة، مغتبطة بدرجة استنكارها لما بدر مني، حتى إن أحدهم لم يتمالك نفسه فنهض ليخبر الرئيس كي يُضحِكه معنا. وحين جاء الرئيس وسمع القصة لم يشارك في الضحك، بل تلبّس وجهه تعبيراً جامداً يلغي كل مكمن للطرافة في سؤالي، تعبير يدل أن لجهلي هذا تبعات خطيرة لا يجب التهوين منها بالسخرية.

بعد فترة، أبلغني رئيسي ذاك بأني سأنتقل إلى قسم آخر. صباح أحد الأيام، ظهرت يده فوق كتفي فجأة، وحين استدرت نحوه أشار برأسه لغرفة الاجتماعات الصغيرة. تبعته وهناك جلسنا متقابلَيْن. كان قد كلفني بمهمة قبلها فظننته مجرّد يوم عمل آخر لي في القسم. لذا حين اقتادني إلى تلك الغرفة كنت بعيداً أشد البعد عن أي استعداد، وجاء الأمر مفاجئاً رغم كل توقعاتي السابقة.

قد يكون السبب هو ذاك السؤال، أو قرقرات بطني. قد يتعلّق الأمر بكوني خرجت يوماً قبل الساعة الخامسة، أو ربما بعدها، الأمر سيان؛ لم يكن واضحاً إن كان هو بدوره يعرف السبب. كان يتحدث بطريقة ملتوية ملغزة فيما يضع يده على الطاولة ويحرّك ورقة لا علاقة لها

بموضوعنا، كأنما يستمد منها إيحاءً بالرزانة والاحترافية والدعم البيروقراطي لهذا الاجتماع. وطوال حديثه، كان الفعل في كلامه مبنياً للمجهول، مما يوحي لك بأن القرار ليس قراره هو، بل وأنك لا يمكن أبداً، مهما تقصّيت، أن تصل إلى مصدر القرار في الهرم الإداري للشركة. كل ما يتضح ضمنياً هو أنها عملية إقصاء، ستبقى موصوماً بها طالما عملت في الشركة، ومهما انتقلت بين الأقسام. من الآن فصاعداً لن تنتقل إلى الأعلى، فقط إلى أقسام أدنى. هذا ما يقوله لك لفّه ودورانه وتحفّظه عن ذكر كل ما يرتبط بالأسباب: ليس ثمة فرصة لتحسين أول انطباع.

لم يكن في الانتقال إلى قسم آخر بحد ذاته ما يجب أن يسيء لك شخصياً، فتصفيات كهذه تحصل طوال الوقت في كل مكان، مجرّد ضرورة إدارية لاستخلاص النخب المنتجة واستبعاد الأقل إنتاجية. لكن ما يجعل العقوبة أشد إذلالاً هو الإلغاء التام لخيارات رد فعلك، حتى لو كان خيارك مسبقاً إبداء عدم الاكتراث. يتم تبليغك بأكثر الطرق تستّراً وتشفّقاً واختزالاً، كما لو كان شيئاً يجدر بك أن تخجل منه وحسب ثم تتوارى عن الأنظار.

بكل الأحوال، في قاموسي كان انتقالاً للأفضل. موقعي هنا بجوار الطابعة ليس سيئاً بالمقارنة. بإمكاني بين حين وحين أن أسترق وقتاً لأقرأ، كما أني بدأت أكتب بانتظام، لكن يجب الحذر من أن تُسمع ضربات أصابعك على الكيبورد أكثر من اللازم، فأنت لا تدري كيف لهذا إذا لُوحظ أن يُحسَب ضدك. حين أشعر بأني لوحظت بما يكفي، أطبع ورقة عشوائية للتمويه ثم أنهض لأخذها، فقط لأوحي بأن ما أكتبه هنا مرتبط بالعمل. ألقي على الورقة نظرة متصنّعة ثم ألقيها في صندوق إعادة التدوير. أنت لا تطبع شيئاً إلا للإلقاء به، لكنك دائماً

تطبع، وهذا يعمل في صالحي في أوقات كثيرة، كأن أستغل فرصة نهوضي وأنزل للتدخين.

في الأسفل أذكّر نفسي بعدم التسكع طويلاً في الساحة الخارجية، لأن الواجهة الزجاج تكشف من الداخل للخارج فقط، ولا يمكن أن ترى إن كان ثمة من يراقبك من ردهة المصاعد. يمكن دائماً أن تصادف أحد المديرين في المصعد أثناء صعودك أو نزولك فيرمقك بنظرة توحي بأن وجودك بين الأدوار بحد ذاته تسيّب. حين لا يقع العقاب، فإنك تظل تشعر بأنه في الطريق. ربما لا يتطلّب الأمر سوى اللحظة التي تعتاد فيها على غيابه، حتى تجد كفاً على كتفك، وصاحبها خلف ظهرك، وعلى وجهه تعبير يقول حان وقت المحاسبة.

أجلس في مقاعد الحديقة المخصّصة للمدخنين. سيجارة واحدة، لكن بمجرد إنهائها أبدو كمن دخّن علبة كاملة. أتحامل على أنفاسي المتباعدة وأنهض ببطء. أجر خطوة ثقيلة خلف الأخرى، كجندي جريح يسحب إصابته في معركة؛ لكني لا أحارب شيئاً، فمن أين يأتي كل هذا التعب؟

في الردهة، مجدداً، أنتظر المصعد. الواجهة الزجاج العالية تسرّب ضوء الشمس بكميات كبيرة، وفوق هذا ثمة لمبات إنارة داخلية ساطعة، تتدلى بحبال على مستوى يعلو فوق الرؤوس بقليل، كأنما لتطارد كل بقية للظلال. ليس ثمة مقاعد، ولا حتى أماكن لائقة للوقوف، فقط أعمدة رخام ضخمة تُلمّع بانتظام. أما السقف فيمتد مرتفعاً للأعلى، على بُعدٍ مُبالَغ فيه. تشعر من ارتفاعه الهائل، ومن خلو المكان من أي محتويات تقف إلى جانبك، كأن المكان قد صُمّم بحيث يبدو الإنسان أتفه شيء فيه.

الأسبوع 3:

أحاول الإقلاع عن التدخين هذه الأيام، وها أنا أشغل نفسي بالكتابة، ولعل هذا أشد ضرراً بالصحة. أمي تقول إنه عليَّ الإقلاع عن الكتب والسجائر، كما لو كانا الشيء نفسه. «إلى متى تنفق نقودك على ما يضرّك؟»، أتجادل معها كأنها هاجمت كياني، وسرّاً أعجب بحذاقتها البسيطة، فالأدب والسجائر هما حقاً الشيء نفسه، لكن لا رغبة لي بالإسهاب في الشروحات. فلنلتزم بالوقائع.

توقّفت عن شراء السجائر، وبصعوبة أقاوم إغراء تناول واحدة من أحدهم بين حين وآخر. ميزة الواجهة الزجاج للردهة أنها تمنحك فرجة على الساحة الخارجية، حيث يقف الناس ويدخّنون، وهذا عيبها أيضاً إن كنت تحاول الإقلاع. رئتاي لم تعودا شابتين. أراقب كبار السن يخرجون للتدخين طيلة اليوم وأتساءل: كيف يفعلونها؟ كيف لا يكون المشهد التالي لإنهائهم السيجارة هو منظرهم وهم يموتون من انقطاع النفس؟ لطالما تساءلت إن كان ثمة وصفة سرية للحفاظ على النشاط، أو عادة صحية بديهية التزم بها الجميع طوال حياتهم، وبطريقة ما لم يَبلغني أمرها.

طاقتي على الكتابة، في المقابل، تحظى بانتعاش مؤخراً. لم أكتب منذ زمن بعيد، ولعلي لم أكتب أبداً بهذا الاسترسال، لكني قضيت إجازة نهاية الأسبوع متحرّقاً للعودة ومواصلة ما بدأته الأسبوعين الماضيين. هذا التقسيم الزمني يبدو الصيغة الأسهل لكي أحدّ من الانقطاع لفترات طويلة. إنه يعيد إلى ذهني تلك الحماسة القديمة لحصة الإنشاء والتعبير الأسبوعية في المدرسة، ولعلها المناسبة الأولى التي أكتشف فيها مَيلي للكتابة. كان مستوى الأدرينالين في دمي أثناءها يتجاوز حتى مستواه في حصة الرياضة، وكنت أظلّ أكتب حتى اللحظة التي يُقرع فيها الجرس، فأندهش لمرور الوقت بتلك الخفّة، وأتمنى لو يتم استبدال حصص العلوم والرياضيات والمواد الأخرى عسيرة الهضم بحصص إنشاء أخرى، بدلاً من أن تبقى مقررة مرة واحدة في الأسبوع. لم يكن الموضوع مهماً، ولا الإثارة القصصية، بل هذا التدفق المستمر للتعابير وهي تتناسل واحدة من الأخرى. بالنسبة لطفل على قدري من الكتمان، كان ذلك فتحاً من فتوح الحياة.

حين انتقلت للمرحلة المتوسطة، انقطعت عن عادة الكتابة الأسبوعية تلك، إذ لم تكن حصة الإنشاء مقرَّرة علينا في الجدول. منذها بدأت الكتابة في البيت، وبحرّية أكبر. وحين أطلعتُ أمي على بعض قصائدي، بدت سعيدة بها؛ ففي ميدان تنافسها مع نساء أعمامي حول أيهنَّ تملك طفلاً أشد موهبة، بدت كتاباتي الخرقاء كشيء قابل للاستخدام. وسرعان ما انتقلت تلك القصائد في العائلة من يد لأخرى، وحين أحيي أعمامي كان أحدهم يناديني بالشاعر، والآخر يسأل «هل من جديد؟»، والثالث يأخذ بصوت مسموع في ترديد أبياتي غير الموزونة. وفجأة وجدت نفسي محط اهتمام مربك

وتعليقات يصعب تمييز المشجع منها من الساخر، وإثر هذا انقطعت عن الكتابة سنين عدة.

لكنّي طوال تلك الفترة واظبت على القراءة، وهي عادة طوّرتها بفضل مجلدات التراث وكتيّبات الدين في مكتبة بيتنا. لم نكن عائلة متديّنة، لكن كانت موضة دارجة وقتها أن تزيَّن البيوت بهذا النوع من المكتبات. وقد انكببت عليها لأننا لم نكن نملك كتباً غيرها، حتى إني تدينت لفترة من مراهقتي مستعيناً بتأثيرها. إلا أن تديّني في جوهره، حين أفكر به الآن، لم يكن يتجاوز نوعاً من التمرّد ضد أسرتي؛ مجرّد مخالفة لأسلوب حياتهم الخالي من الروحانية. كنت أغار من أقراني الذين يضربهم آباؤهم ويوبّخونهم على ترك الصلاة، وقد رأيت في هذا التوبيخ تعبيراً عن الاهتمام. وحين أبدت أمي تحفظاً على تديّني ذاك، رغم علمها أنه ليس مما يُلام عليه الأبناء بالعادة، كنت أزداد التزاماً وعناداً، متحجّجاً بأهمية الثبات أمام المثبّطات، وفي داخلي كنت أبتهج بالقلق الذي يتركه كل هذا في نفسها، كأنما كان فرصة لعقابٍ رغبت أن أُحلّه بها. أعتقد بأني في النهاية فقط أصبت بالملل. لطالما كانت نزعاتي المتمرّدة قصيرة النَفَس على كل حال.

كان انصرافي عن الدين بعدها يترافق مع زيادة اهتمامي بالفكر الغربي حين بلغت المرحلة الثانوية، أي حين بدأت أحوز الاستقلالية الكافية لاقتناء الكتب. ورغم تخبطي بين المواضيع والكتّاب، وعجزي عن فهم ما يقولونه في كثير من الأحيان، فقد واظبت على تلك القراءات حيناً من الدهر، من دون أن أنجح في العثور على ما ينفذ إلى نفسي. كان ثمة تلك الهوة بين الحياة التي أرجو خوضها وتلك التي أعيشها، وكنت نهماً لملئها بالتجربة، ولم يكن ذلك ممكناً بالفكر وحده. لم يكن ممكناً إلا بشيء يخترقني على نحو محسوس،

بكلمات تملك من الشفافية أن تنفذ تحت الجلد. هكذا حدث في أحد تلك الأيام أن قرأت رواية «الجوع». تِكْ، هذا كل ما يتطلبه الأمر. على الفور، راودني شعور حاسم بأن عالماً جديداً انفتح بين يديّ.

أذكر أني أنهيت الرواية بكاملها في يوم واحد، لم أكد أتناول فيه شيئاً لشدة انقطاعي للقراءة. ثم استيقظت في اليوم التالي عليلاً مضطرباً، هائجَ الذهن لفرط الجوع، فريسةً لذات التأثّرات التي مرَّ بها بطل القصة، والتي استمدها هامْسون من حياته الخاصة. لكني وجدت نفسي متشوقاً لأن أقاسي ما هو أفظع من مَشقّات هامْسون إن كان هذا سيمنحني القدرة على أن أكتب مثله. في ذاك الصباح، عاجزاً عن التفكير بأي شيء آخر، رحت أدعو الله، باستعطاف محموم، أن يعاقبني على الابتعاد عنه بمختلف التعاسات، مقابل أن يمنحني القدرة على التعبير عمّا سيجازيني به من شقاء. كان ذلك شيئاً أشبه بالنذر، ولعله كان نوعاً من التعويض الروحاني، أو شكلاً بديلاً من أشكال الالتزام.

أتبعت تلك الرواية بأخرى. فحين علمت أن الكاتب المعدم في «الجوع» تأثّر بشخصية راسكولنيكوف. عكفت على قراءة «الجريمة والعقاب»، وتأثّرت بها أيضاً أعظم تأثّر، بالتزام بطلها بفكرته واندفاعه للتورّط التام في التجربة، حتى خطر بذهني أن أرتكب جريمة قتل عشوائية ما، فقط لأقاسي عذابات راسكولنيكوف وأحسّ في نفسي بصراعاته الداخلية. لكن ليمدّني الله بتجربة حقّة غير مفتعلة، تداركت، كان يجب أن تعترضني الأقدار القاسية بأمر منه، من دون سعي آثم مني يخلّ بالنذر الذي بيننا.

تدريجياً، وبدافع من تلك التأثيرات، شكّل الأمر بالنسبة إليَّ حالة

هوَس. صارت متعتي تكمن في تحويل كل ما أراه إلى الخفة والحيوية في ما هو أدبي، وبدأ ذهني يمارس نوعاً من التدريبات الكتابية على كل ما ألاحظه. أما حين أعاود الكتابة حقّاً، فكانت النتائج تبدو هزيلة ركيكة مقارنة بمستوى ما كنت أقرأه، وكنت أردّ هذا دائماً إلى كون الظروف المؤاتية والأقدار القاسية لم تتهيأ بعد. ما زال أمامي عمر طويل من المهارات والخبرات التي يمكن أن تُكتسب، كنت أفكر.

بالطبع، كان لأمي موقف من هذا التوجّه الجديد، خصوصاً حين ازددت انشغالاً به. فطوال سنوات الجامعة، وحتى قُبيل أن أتوظف، ظللت أقضي معظم وقتي في البيت ملازماً الكتب. وهي لم تستطع إخفاء تحفّظها على هذا، كأنما كنت أرتكب ببقائي هكذا ذنباً خفيّاً، أو أفسد شيئاً في نظام العائلة. وقد كانت أول الأمر تنبّهني بنبرة ساخرة، تحاول أن تجعلها تبدو مازحة قدر الإمكان، مدركةً أن ملازمة البيت ليس مما يُلام عليه الأبناء بالعادة؛ فتشير مثلاً إلى أني كنت لأصبح عوناً كبيراً لها لو كنت فتاة، ثم تتبع هذا بضحكة مبالغة لتوحي بعدم جديته، لكن من دون أن تفقد نظرتها الساخرة التي تظن بأنها ستدفعني لترك الكتب وقضاء وقت أكبر في الخارج. لم يكن قلقها يختلف كثيراً عن قلقها السابق لتديّني؛ في نظرها كل ما فعلته هو أني استبدلت تطرّفاً بآخر.

لم يختلف الأمر كثيراً هذه الأيام، سوى أنها صارت تشرع في توجيه انتقادها لمواضع جادة وشؤون لا تحتمل الإهمال، مثل عدم زيارتي لجدي، أو لكوني لم أفكر في الزواج بعد، أو كوني لا أبذل جهداً إضافياً في تطوّري المهني. علاقتي بها لطالما شابها شيء من الانتقاد المتبادل، لذا كنت أحاول ألا أبدي أي اكتراث. حتى إني انتقلت مؤخراً إلى غرفة خلفية، كانت سابقاً مكتب والدي، لأنها

تفيض بالشمس من فترة ما بعد الظهيرة وحتى وقت الغروب، وهي الفترة التي أقضيها غالباً في القراءة خلال الإجازة الأسبوعية؛ إذ من النادر أن أجد الطاقة الكافية للقراءة وسط الأسبوع. بالنسبة إليها، بدا أن تصرّفي يمثل نوعاً من التحدي؛ فعوضاً عن أن أبدأ بالبحث عن خطط أخرى خارج البيت، عزّزت وجودي فيه بغرفة جديدة، كمن يؤكد أنه سيمكث طويلاً.

صارت تدخل فجأة وتقف عند الباب، كمن يأتي لخَطبٍ عاجل وينتظر قراراً حاسماً. تقلب عينيها بصمت، فأفهم أنها تنتقد الفوضى وتجدّد انزعاجها من انتقالي في آن واحد. تلمح في يدي كتاباً، ومع ذلك تسألني ماذا أفعل، فقط لتؤكّد أنه هنا تكمن المشكلة. وسرعان ما تضيف أني أغرق في عالم من الأوهام والقصص الخيالية، وأفصل نفسي عن الواقع بأفكار أجنبية. تنظر في المكتبة لتبحث عن دليل، ويخطف بصرها فوراً رفٌّ يحمل مجموعة كاملة؛ 18 مجلداً بغلاف متشابه وعناوين مختلفة. تسحب واحداً منها وتنطق الاسم: «دو- ستوي- فسكي»، بتهجئة خاطئة لكن محببة للسمع، ثم ترفع رأسها نحوي في انتظار تبرير، كأن الاسم وحده اتهام. «كاتب روسي»، أقول. «وما الذي يجبرك أن تعرّض نفسك لكل هذا الشقاء؟»، وكأنها أدركت بحذقها الفطري نوعية قصصه وشخوصه، أو ربما خمّنت أني أرهق نفسي بقراءته لمجرّد أن اسمه صعب.

أخبرها أنه كاتب معروف، وليس ثمة علاقة طردية بين صعوبة الاسم والمحتوى، فهو لن يكون أقل تعقيداً لو كان اسمه ساشا، وربما سيظل اسمه دوستويفسكي حتى لو نشأ ليصبح فلاحاً أو ماسح أحذية. وهي بطبيعتها تحب مثل هذه النقاشات، وتستطرد فيها، وتبرع

في ارتجال الحجج، كما أنها عنيدة بما يكفي لتحاول الالتفاف على أي شيء أقوله؛ فتأخذ تفحص كتبه بنظرة سريعة لتجد شيئاً يدعم استنتاجها، ثم تقرأ العناوين واحداً تلو الآخر بصوت مرتفع: «الأبله»، «الشياطين!»، «مذَلّون مهانون!!»، «رسائل من القبو!!!»، «ذكريات من منزل الأموات!!!!!»، وترفع رأسها نحوي بحركة تؤكّد أن تلك العناوين تكفيها لتصل إلى نقطتها:

-«كيف بعد هذا ترجو أن تكون سعيداً؟».

عندها يتّخذ النقاش بيننا منعطفات أخرى، فأقول إني راضٍ بالطريقة التي تسير بها الأمور، وهي تهزّ رواية «الأبله» في يدها وتقول إني يجب أن أستيقظ. ويحتدّ الحديث وينحرف عن مقاصده لأنه يدور في فلك دوستويفسكي، وأبدو كإحدى شخصياته الروسية الشقيّة.

كان يمكن لكل هذا أن يتغير لو أنها سحبت كتاباً لهيمنغواي مثلاً، بشخصيته الرزينة المبتهجة المقبلة على الحياة، وطبعه الذكوري المتحفّز دائماً لخوض المغامرات، والنيل من الصعاب وصيد الأشياء، والوقوع في حبها ولكمها، ومصارعة حتى الثيران. وحتى لو أنها استنكرت اسمه الأعجمي الطويل، لرفعت صدري مدافعاً عنه، وانطلقت واثقاً بالحديث عن التدفّق الحيوي لأسلوبه، والأثر الإيجابي لرسالته، وكيف أن الحياة عنده لا تتخذ منعطفاً خاطئاً حتى عندما تسوء، وبإمكانك دائماً أن تساير المجريات وتندفع مع التيار بعزيمة وصلابة، ولعرضت عليها أن تقرأ «الشيخ والبحر» لأثبت هذا. أو لو أنها تناولت كتاب تانيزاكي الصغير «في مديح الظل»، لامتلكت حجة راسخة أمام كل نقد توجّهه نحو ذائقتي. فهو حتى حين يتحدّث

عن الذهاب إلى الخلاء، فإنه يضع كل شيء ضمن سياق شعرية يابانية أصيلة، ذات خصوصية تخلو من الادعاء أو الشعور بالدونية أو الميل للشقاء. إنها جماليات لا يشعر المرء بأي خزي تجاهها.

لكن عوضاً عن هذا، ولأنها وقعت على دوستويفسكي فقط، لم يكن ثمة بدّ من أن يُسقط في يدي، ويتّجه الموقف لسوء فهم مريع، وننقلب إلى جدال طويل عن الواجبات، والأدوار العائلية، والمسؤوليات الشخصية، والقرارات الجادة، وانظر إلى أخيك، ومتى تزور جدّك، وهذه الفوضى، والبيت، والغرفة، وإلى متى يا بني؟! ثم تخرج، وتترك الباب مشرَعاً، فيُخيل لي أن كل ما حولي يخالف طبيعتي.

لم يكن بيننا أبداً أي إمكانية للتوافق. إن مفهوم الأمومة لديها مرتبط بشعورها بالذنب لمسؤوليتها تجاهي، وكأنما سأحاسبها على التقصير في الدفع بي لأقصى مستويات الأداء. وهي كثيراً ما تستشهد بموهبتي حين كنت صغيراً، والتي كانت تفاخر بها أمام نساء أعمامي، لتحاججني بقدراتي المدفونة على أن أصبح شيئاً بارعاً لو تخلصت من الكسل، لكنها مع هذا تعني أي شيء سوى أن أصبح كاتباً. أما حين أغلظ لها القول، فكانت تتفهم وتتراجع قليلاً أمام ضراوتي قصيرة الأمد، لكنها لم تكن تهدأ وتتنحّى إلا لتعاود الانقضاض بضراوة أشد، وتروح تكرر بعصبية أن ثمة أشياء لا يمكن لها عدم التدخل فيها، وتطلب مني الخروج أكثر من البيت لهذا الواجب أو ذاك، مثل نسرة تركل صغيرها خارج العش لمصلحته.

حرصها على زيارتي لجدي، بالذات، كان أحد تلك الأشياء التي لا يمكن لها التنازل عنه. فبعد وفاة والدي، جامَلَنا أعمامي لفترة ببعض النفقات. وحين انقطعت أواصر الأعمام، حتى بين بعضهم البعض،

ظل جدي يتكفّل بدعمنا مالياً حتى توظفت أنا وأخي وتزوّجت أختي. لكن رغم أنه استمر يمنح أمي النقود بطيب خاطر، بل ويصرّ عليها حين ترفض، ظلّ يواجهني باللوم في كل مرة أزوره لأني لا أغنيها عنه، ولعله يصرّ عليها بالنقود فقط ليجد ما يلومني عليه. ولم يكن هذا بالشيء الجديد عموماً، فقد كان دائماً يخترع أكثر الأسباب عشوائية للتوبيخ. أما هي فقد ظلّت تحفظ لجدي هذا التقدير المتبادل وتذكّرني في كل مناسبة أن أذهب لزيارته. بطريقة ما، كان يجسّد لها تعويضاً عن غياب والدي، ابنه؛ وربما تعويضاً عن وفاة والديها أيضاً.

كان المال عموماً هو المشكلة التقليدية. ورغم أننا نعيش بحال ميسورة نسبياً، إلا أن القلق من المستقبل كان دائماً هناك، خصوصاً الآن وقد طرأ موضوع زواج أخي. كانت آخر خطة تقتضي أن تنتقل أمي للعيش معه حين يتزوج، أما البيت فسوف يُباع ويسلم إلى مالكه الجديد في الشتاء المقبل بمجرد إتمام الزفاف. هذا التخطيط تم بموافقة الجميع، إلا أن اقتناعنا لم يكن عفوياً، بل تطلّب الطرق السحرية التي تعمل بها أختي.

***

انقطاع. عاودني الغثيان على حين غرّة بالأمس، بمجرد أن تناولت تلك الأخت. كنت لأتجاهل متابعة الحديث عنها الآن لولا أنها زارتنا مجدداً ليلة الأمس. وقد صارت تزورنا باستمرار مؤخراً لتتأكد أن الخطة تسير على ما يرام.

يمكن دائماً استشراف قدومها من الطريقة التي يضرب بها كعبها على الدرج. وحين تدخل، يكون في يدها حجابها الذي خلعته لتوها، وشعرها مسرّحاً بعناية، وعطرها ينبعث مع الهواء المندفع عبر الباب.

لم نكن نراها سوى أنيقة مشرقة المظهر، كأنها تحاول أن تثبت شيئاً؛ حتى إنها كثيراً ما ترتدي أقراطاً لؤلؤية كبيرة، من النوع الذي تخلعه من أذن واحدة حين تتحدث على الهاتف وتعيده بعد أن تغلق السماعة. وكانت تحافظ على تقاطع ساقيها اللامعتين طوال مدة حديثها على الهاتف، أو مع أمي، وتهرع لتمسح مخاط ابنتها وتحدّثها غاضبة، كأنما لتفهم ابنتها ذات العامين أن عليها أن تكون أنيقة مثلها، ثم تعود على الصوفا بجانب أمي وتواصل الحديث، مقاطعة ساقيها مجدداً، لكن بنبرة توحي بأنها لا تزال تحادث ابنتها.

بإمكانك أن تخمّن من صوت الشخص وحده، فضلاً عن مواضيع ثرثرته، أنه بدأ لتوّه حياة جديدة. وصوتها كان واثقاً مستقراً ويملك خططاً في الحياة؛ صوت امرأة مرفَّهة حديثاً، وزوجها مدير في بنك، وأسرته ذات سمعة ووجاهة.

كانت قد أتمت بنفسها خطبة أخي مطلع الشهر، بعد أن أقنعته بابنة أحد معارف زوجها الأثرياء وأقنعتهم بأخي. ولإتمام خطتها تلك، فإنها تأتي لتحدّثه وتحدّث والدتي عن استعدادات الزفاف؛ وعندها يُضاف إلى صوتها تلك النبرة العالية الناتجة عن شعورها بالمسؤولية بصفتها المنسّقة الرسمية بين العائلتين. لكن بمجرد أن أدخل في الصورة، فإن صوتها الطاغي ذاك كان يتحوّل إلى نبرة خافتة، ذات طبيعة ملغزة متكتمة، موشكة على التحذير؛ وهذا فقط حين تتحدث مع الآخرين في حضوري. أما حين نبقى بمفردنا، أنا وهي، فكان يطغى عليها ذاك الهدوء الرتيب الموتّر؛ ذاك الصمت الذي تفرضه مع شخص لا تشعر حياله بالارتياح.

لم يكن حذرها تجاهي حدثاً غريباً بالنسبة إليَّ عموماً. فحين

أنجبت ابنتها مثلاً كانت تخاف لمجرّد أن أحملها، كأنما أحملها لمجرد الرغبة في التجربة، حتى إنها يمكن أن تتخيلني ألقي بها على رأسها فقط لأرى ما سيحدث. والحق أني حملتها لأن اللباقة تحتّم عليك حين تزور شخصاً أنجب لتوه في المستشفى أن تحمل ما أنجبه، حتى لو كان سيكبر ليصبح كتلة مخاط. وكنت أقبّل الطفلة مجاملة، لمجرد أني لا أجد كلمات تدليل مناسبة أقولها لها. وكنت متأكداً أني رغم ذلك بدوت لها مثل كينغ كونغ، ذاك الغوريلا العملاق الذي يتطلّع بفضول إلى فتاة صغيرة جميلة تستقر على كفه برعونة، ثم يهرب بها. كانت أختي تمد ذراعيها وهي على السرير كي أعيد لها الطفلة، بطريقة بدت متوسّلة رغم أنها تحاول أن تبدو طبيعية متوددة؛ وربما تراءى لها أني في اللحظة التالية سأفتح الباب وأهرب بابنتها، ولعلي أتسلّق بها سطح المستشفى كما تسلّق كينغ كونغ سطح الإمباير ستايت في نهاية الفيلم.

حتى قبل زواجها، كانت أختي شديدة الحذر بخصوص مساحات تقاطعنا. فإذا استيقظنا في الساعة نفسها كانت تعود للنوم، وإذا خرجت من الحمام فإنها لا تدخل إلّا في الآخر، وإذا جلستُ على الصوفا فإنها تجلس على الكرسي، وإذا عطست لا ترد، وإذا دخلتُ خلفها لا تمسك لي الباب، وإذا سبقتها بالخروج تتلكأ كي لا أمسك لها الباب. لم تطرق يوماً باب غرفتي، ولا أعتقد بأنها تعرف شكلها من الداخل. وفي المساءات التي لا يبقى فيها سوانا في البيت كان تواصلنا يتم عبر الهاتف: هل تريد شيئاً للعشاء؟ نعم، لا، وانتهى الكلام. ومن النادر أن تكون هي من يشعر بالجوع إذا كنت الوحيد الذي يمكن أن يشاركها الطعام. وذات يوم عرضتُ عليها أن نتعشى في مطعم، فسألتْ بارتياب: «لماذا، وكيف، وماذا سنفعل؟». ورفضَتْ على نحو

قاطع كما لو كانت الدعوة خدعة ماكرة مني لاختطافها. وحين يحدث أن أقلّها إلى مكان ما نبقى في السيارة صامتَيْن. وحتى في صمتها يشعر المرء بأن لها تحفظات على ذوقي الموسيقي، أو على قيادتي، أو على القذارة في أرضية سيارتي. وكانت تعبّر عن هذا بالتجهّم أو التحديق المستمر من النافذة أو ركل الأشياء في أرضية السيارة طوال الطريق.

كانت أرضية سيارتي دليلاً واضحاً على أني لا أواعد أي فتاة، لا نقصاً في الرغبة بل فقط لأن فعل التعارف كله لم يكن يوافق شخصيتي. إنك مطالَب أن تكون ظريفاً وحفيّاً ومتحلّياً بالرقة معهن، لإقناعهن بأنك جدير بالثقة؛ وذلك من دون أن تفعل الفتاة شيئاً في المقابل، بل بمجرد السطوة الناتجة عن كونها أنثى. فهي تتمتّع بحق فطري أن تدين لها بمبادرات ظريفة، وتفتح معها مواضيع شيّقة للحديث، وتبقي المحادثة سلسة وسهلة، وتوضح أفكارك ومبادئك المتحضّرة، وتلقي كلمات بلهجة أميركية متقَنة، وتثبت أنك معتاد على مخاطبة النساء بعفوية، وإلا أعرضتْ عنك بالنظر إلى الجدار أو النافذة، مانحة إياك الفرصة لأن تبتعد عنها بكرامتك، أو تدفن وجهها في هاتفها الذكي على أمل أن تكون قد ابتعدتَ حين ترفعه. ولعل إحداهن تغلق فجأة عباءتها أثناء حديثها معك، أو ترفع فجأة الجزء العلوي من لباسها لتغطي خط التقاء نهديها، حتى لو لم يكن ظاهراً أصلاً، رغم أن الأمر غالباً لا يتجاوز تجنّبك للتحديق في أعين الآخرين حين تحادثهم. وأتصور أني لو كنت بريئاً تمام البراءة، لوجدن في خراقتي هذه نوعاً من اللطافة، ولربما استظرفن ارتباكي على نحو يدفعهن إلى تجاوزه، بل واحتوائه والأخذ بيده، غير أنه كان من الواضح أني أحمل خلف هذا الارتباك نوعاً من الخبث وفحش السريرة والفضول الشرِه

والقابلية للاندفاع في خيالات غريبة. نعم، إن من الأسهل لإحداهن أن تواعد كينغ كونغ لو خُيّرت.

حاولت كثيراً في العمل، بحكم اختلاطي المستمر بالفتيات، أن أتجاوز طبيعتي البهيمية هذه. لكن بمجرد أن أعبر بواحدة تعجبني فإني إما أن أثبّت نظرتي عليها على نحو يدفعها إلى الإسراع لتجاوزي، أو أتجاهلها كمن لا يلقي لها بالاً على الإطلاق؛ لا يوجد خيار متزن بين الاثنين. ولو بادرت هي فإني كثيراً ما أمنحها الانطباع بأنها تطفّلت عليَّ وغزت خصوصيتي، وأقضي بقية اليوم في مراجعة تصرفي ولا أجد له مبرراً، لأني في الواقع كنت متشوقاً للتعرف بها. وسأتربّص بها في اليوم التالي، بعد فوات الأوان، وأتظاهر بأني صادفتها في ممر، وأسألها كل تلك الأسئلة العشوائية المتتابعة، مطبّقاً فكرتي المشوَّهة عن التعارف. وإذا كانت تحب القراءة فقد أنجح أن أبدو طبيعياً، أعني إذا لم يكن كاتبها المفضل موراكامي أو خراء كهذا. وإلا فيمكن مناقشة العمل أو المستقبل أو كرة القدم أو أي شيء من أحاديث الناس الآخرين. وسأوضح في كل موضوع أي نوع من الأشخاص أنا، هل أقف على هذا الطرف أو ذاك. وسأسألها أي نوع من الأشخاص هي، وأهز رأسي مهما كانت الإجابة، وفي داخلي سأقول ما هذه البلهاء. ولعلها تشعر بهذا، وترى جيداً خلف عينيّ اللتين تحدقان نحوها بلطف، أني إنما أخضعها لتقييمات دقيقة، وأقيس مدى انفتاحها، وأتتبّع حركات يديها وفمها وأحللها بصرياً من دون أن أستمع لما تقول. وستدرك كم كانت غلطة منها أنها بادرت بالأمس، وإذا بها تحدّق نحو السقف وترجو ألا أفكر بسؤال آخر، وربما تقف وتصطنع هيئة من سيمضي، وجسدها يميل واقفاً للاتجاه الذي تحتاج أن تمضي إليه. وسأسألها سؤالاً أخيراً عن الساعة، لأني تأخرت قبلها عن مكان يجب أن أقصده، ثم ستنطلق

بعيداً ما إن أقول الوداع، وسأنطلق أسرع منها للجهة الأخرى، وسوف لن تلتفت نحوي بعدها أبداً؛ تلك القحبة.

عموماً، فلنعد للحديث عن أختي. لا أدري لِمَ أميل للانحراف لمواضيع أخرى حين أكتب عنها؟

كانت أختي من أولئك اللواتي يوقع جمالهن سطوة على الجميع، فيجد المرء نفسه وهو يطلب رضاها. ولا يهم في ذلك إن كان والدها أو أخوها، بل لعله كلما كان أقرب لها رحماً كلما كانت سطوتها أشد تأثيراً. بالطبع لم يكن الأمر هكذا في صغرنا، لكني لم ألقي بالاً للأمر قبل يوم خطبتها.

كنت وقتها في الثانية والعشرين، وكانت تصغرني بعامين. وكنت أجلس في استقبال خطيبها مع أخي الأكبر في مجلسنا الضيّق الصغير. وكان الخطيب يجلس منتظراً، بابتسامته المتباهية، واثقاً أن من شأنه أن يحصل على ما جاء من أجله، وراح يسألني عن تخرّجي الوشيك وطموحي الوظيفي. يسألني بذلك التلطف المفتعل الذي يفضح عدم اهتمامه بي. لم أكن مهتماً بنوعه في المقابل، سمعت مسبقاً باسمه ومنصبه وأن الارتباط بعائلته أمر لا يمكن التفريط به. وقد وافقت أختي على رؤيته فوراً. من جهتي شعرت بأنه كان خليقاً بها أن تصطنع بعض التمنّع.

حين دخلت علينا كان قوامها قد تمايل وامتلأ، وحركاتها بدت أشد رقة، ونظراتها أشد خفراً، بل كان ثمة حُسن إضافي ربما قضت حياتها حريصة على إخفائه، فقط لتبعث الدهشة حين تبرزه أخيراً في هكذا موقف. ولم أشعر حينها أني بأقل غربة عنها من الآخر الذي يراها لأول مرة، بل شعرت لفرط غربتها عني بأني أشاهد إعلاناً على

التلفاز. كان الموقف برمّته مزعجاً، وقد جلست هناك مطرقاً رأسي متجنباً النظر نحوها، يراودني مزيج من الانبهار بجمالها والنفور من فجائيته، ولم يستغرقني الأمر دقيقة قبل أن أسحب نفسي من المجلس كمن لم يعد له علاقة بهذا كله.

يحدث أحياناً أن يلتبس فهمي لنفسي، بفعل سطوتها، فإذا بي لا شعورياً أرى نفسي من حيث تراني هي. لذا، أجد نفسي هنا مضطراً لأن أسهب قليلاً لأتبيّن موقفي وأستوضح ما دار بخلَدي في ذلك اليوم، رغم عزمي السابق على عدم الإغراق في الشروحات.

التناحر المتبادل بيننا يعود لأيام الطفولة، إلا أنه لهذا السبب بالذات كان تناحراً متناسقاً مع رابطة الدم. لم يكن ثمة ما يدل على أخوّتنا سوى هذا الشجار الدائم والوقح، والذي يجعل تعاملنا مع بعضنا أشد عفوية وصراحة. وفي ذاك اليوم، حين دخلت هي بتلك الصورة أمامنا وأمام خطيبها، فإن كل هذا تعرّض للتهديد. لم يعد في مظهرها ما يشبه الصراخ وتبادل الشتائم والركل أحياناً، وشد الشعر والقذف بالأشياء والتجهّم، وكل ما اعتدت رؤيتها من خلاله. كل شيء فيها بدأ يعارض الصورة التي تجعلها أختي وليس مجرد فتاة لا تختلف عن أي فتاة أخرى أشعر أمامها بالارتباك.

حاولت أن أستمر في معاملتي القديمة لها، إلا أنه كان واضحاً أن ثمة ما صار مصطنَعاً في عدائيتي معها، شيء يدفعني أن أتلطف وأخفّف من شراستي وأبدي لها مزيداً من اللباقة، كما يفترض بالجنتلمان أن يعامل فتاة. وقد أخذت المواقف الصدامية بيننا تقل شيئاً فشيئاً؛ وهذا لم يحدث لصالح تعامل أكثر ودّية، بل إن فراغاً هائلاً حط بيننا محل تلك المشاحنات، حتى إن تقاطعاتنا كادت تنعدم. وهي لاحظت هذا

الاختلاف الجديد في معاملتي لها، وأدركتْ أنه نتاج هذا التحول الطارئ في هيئتها، وهذا ما زاد الوضع إرباكاً، لأنها أوّلتْ شيئاً مريضاً في تلك المعاملة الجديدة من جهتي، بتفسيراتها المهيأة دائماً لأن تفترض ما يزيد نفورها مني. وحين رحت أحاول أن أثبت لها أن الأمر ليس كما تظنه، وأفرطتُ في خلق المسافات بيني وبينها لأقنعها بسوء تفسيرها لنياتي، لم ينتج هذا سوى مزيد من الفشل في التواصل. ثم تزوّجت هي وصار من المعقول التسليم، بحكم انتقالها لبيت آخر، أن يكون التباعد هو الإيقاع الطبيعي بيننا، وتظاهرَ كلّ منا بأن الأمر لا يعدو كوننا كبرنا على مثل تلك الصدامات. لكن ما إن نضطر للتواصل عن قُرب، لغرض أو لآخر، حتى يطفو شيء ما عَكِر.

أثناء زياراتها المتكررة في الأيام الأخيرة، مع اقتراب زفاف أخي، كانت تتحيّن الفرص لأن تنفرد بأمي. وكان حديثها إليها ينقطع فجأة بمجرد أن أدخل. ظلّت تفسر موافقتي على الخطة بريبتها المعتادة، خصوصاً في ظل عدم اتخاذي خطوة جادة للعثور على مسكن جديد، رغم أن هذا من ناحيتي لم يكن سوى مسألة تأجيل. وفوق كل شيء، كان ثمة شعور أمي الغريب بالذنب تجاهي بعد بيع البيت، كأنما سأتشرد بانتقالهم وخروجي، وقد ظل يحرّض شُبهات أختي بأني أنا تحديداً من سيفسد كل شيء.

سمعتها بالأمس من حيث لا تراني، بصوتها المرتفع الذي طوّرته في بيتها الكبير. أنا اخترتها بنفسي، كانت تقول، فتاة ذات أصول، ستعتني بك خير عناية. هو لم يعد صغيراً، تقول عني، يجب أن يُترك ليدبّر شؤونه بنفسه. إن لم يرغب بالزواج أيضاً فذاك قراره، ويجب أن يتحمّل تبعاته وحده، لقد تحملتِ عبئه بما يكفي؛ وأمي تهز رأسها وتبكي. لا يمكن مراعاته أكثر من ذلك، يعلم الله أنك تحمّلتِ ما

يكفي، تكرر أختي، وأمي تندب نفسها وتبكي: يعلم الله أني تحمّلت ما يكفي.

بعد خروجها، تندفع أمي في مواجهتي بتينك العينين المبتلّتين. تشرع في لومي على الإهمال والتأجيل، كأني لا أنشد سوى أن ألوّح بالإخفاقات في وجهها نكالاً بها. لم يكن ثمة إمكانية للتوافق. كانت تعبّر عن قلقها تجاهي بالتحقير، وكنت أبادلها الازدراء لذات الدوافع. كلانا كانت تعوزنا الرقّة.

الأسبوع 5:

أستيقظ متعرّقاً. غثيان، صداع، دم على المخدة، آلام في المفاصل، كأني خضت عراكاً في نومي. لا شيء جديد، لا شيء جاد. أتبوّل، أستحم، أنظّف أسناني، أرتدي ملابسي بالعجلة المعتادة من دون الطاقة الكافية للاستعجال. أتعثر أثناء ارتداء البنطال، أسقط، أقف مستعيداً أنفاسي وأهرع إلى الخارج.

أصل المكتب متأخراً فوق عادتي. أجد ورقتين ملصوقتين على الشاشة؛ ربما يريد أن يخبرني أني تجاوزت الحد هذه المرة. أكوّرهما في يدي وأتركهما على الطاولة. أتناول قنينة مياه صحية وأتجرعها كاملة. تلك وصفتي الوحيدة في مواجهة الإعياء؛ الكثير من الماء لتنشيط الدورة الدموية. إنه تكنيك تعلمته في صباي لأستعيد أودي بعد نوبات الرعاف، وأعاود اللعب في أسرع مدة ممكنة، قبل أن ينزف أنفي مجدداً. حين بلغت التاسعة، أجريت عملية كيّ مؤلمة للعِرق داخل الأنف كي يلتئم، وكنت كلما سألت الطبيب متى ستنتهي لم تكن إجابته تقل عن «خمس دقائق». كانت العملية الوحيدة التي

أجريتها في حياتي. ربما يجب أن أعيد إجراءها لأن الرعاف يعاودني مؤخراً.

أتناول قنينة أخرى وأشرب المزيد. بالقطرات الأخيرة فيها، أسقي الصبّارة المهملة على المكتب. يحلو لي أن أفكّر أن سبب اصفرارها هو كونها، مثلي، لا تنتمي لهذا المكان. ولعلي أتعمّد عدم المواظبة على سقايتها بانتظام فقط كي توافق فكرتي تلك؛ الصبارة التعيسة، أليست تجسيداً مثالياً للصلة بين الأدب والواقع؟

عدا الماء، أكاد لا أتناول شيئاً؛ شهيتي لم تعد تحتمل الأكل المبكر هذه الأيام. أدين للشيخ بجانبي أنه لا يبدي انتباهاً لأصوات معدتي الفارغة. حين ألتفت نحوه لا أعرف إن كان يلاحظ تفحّصي إياه؛ فقط هذه النظرة المثبتة إلى شاشته والتحريك الخفيف للفأرة، من دون أن يبدو أنه يعمل على أي شيء. أحياناً، يخطر بذهني أن أجري معه محادثة لأعرف عنه المزيد. أين تقطن؟ ماذا تفعل في يومك؟ حدثني عن أسرتك... أشياء من هذا القبيل. لكني أفضل عدم إفساد التناغم الصامت بيننا. بمجرد أن يتحادث اثنان جالسان جنباً إلى جنب يغدو من المتعذّر بعدها أن يعاودا الصمت بذات الارتياح.

أفتح رواية على الجهاز. أختارها عشوائياً من قائمة الروايات التي حمّلتها من الانترنت. أستغرق في القراءة فيما أبقي يدي على الفأرة. حين يمرّ أحدهم ليستلم أوراقه من الطابعة، أغيّر الشاشة فوراً إلى صفحة الأخبار. أتصفح الأحداث بشرود، بشعور بالبُعد عن كل ما يجري: تهديدات نووية، هجمات إرهابية، إضراب أسرى، الاحتباس الحراري، أسعار البترول، مباراة الكلاسيكو. تلك نوعية قراءة لا تتطلّب ذات القدر من التستّر. لطالما شعرت بأن قراءة الأدب بالذات

يجب أن تتم بسرية، ربما لأنها ترتبط في المفهوم العام بنوع من الحس الرهيف والمشاعر المتوهّجة وسرعة التأثر، والتي لم تكن أبداً من سماتي الظاهرة.

أذكر أن أحدهم ذات يوم هرع مسرعاً من خلفي ليستلم أوراقه، وقبل أن أوفق إلى تغيير الصفحة على شاشتي كان قد لمحها، وانتبه من ترتيب الأسطر في الصفحة أني أقرأ قصيدة، وليعبّر عن إعجابه بهذا النشاط هتف بطريقة مسرحية:

«المجد للقرّاء، المجد للشعراء!».

وكان صوته مسموعاً بما يكفي ليلفت انتباه موظفَيْن يجلسان أمامي في الصف التالي، فالتفتا فوراً. إنهما أبلهان يقارباني في السن، ويبدوان دائماً على أهبة الحديث معي لو منحتهما الفرصة. ما كان مني عندها إلا أن التفتُّ على المسرحي الواقف خلفي بملامح هازئة، مزدرياً السجع في عبارته. «ياللحذلقة»، تمتمت وأنا أعاود التحديق إلى الشاشة. بذاك التهكم، كنت أحاول أن أفصل نفسي عن نوعية هذا المدّعي، وأنضم لعشير أولئك الذين يتّخذون موقفاً لا مبالياً، بل ومعادٍ، من هذه الاهتمامات الأدبية، وكأن قراءتي للقصيدة لم تكن تتجاوز ما يشبه العبور السريع على إيصال وجدته في جيبي. ابتسم الأبلهان وهما يعاودان النظر أمامهما، لكن من دون أن أميز إن كانت تلك ابتسامة ساخرة أم متواطئة. شعرت بأن شيئاً ما في تعابيري خانني، وأظهر لهما أني لم أكن أقل تصنعاً في محاولة درء الشبهة.

أتفقد بريد العمل أخيراً. أكتشف أن إحدى الورقتين الصفراوين التي تركها لي رئيسي هذا الصباح فيها تنبيه لضرورة حضوري لاجتماع ما. من المفترض أن يكون شيئاً ذا أهمية لأنهم سيستضيفون أكثر من

موظف لامع لسرد قصص نجاحهم. المدعوون هم فقط الموظفون الجدد من جيلي، والحضور إلزامي.

حين حضرت، كانت قاعة المؤتمرات تضم تقريباً نوعين من الأشخاص: هؤلاء الناجحين، وأولئك المتطلعين لأن يكونوا ناجحين. ثم هناك أنا. بحكم كوني موظفاً جديداً نسبياً، لم تكن صدفة أن يتم إلحاقي بفئة المتطلعين للنجاح، فالإدارة تفترض دائماً أن الموظف يطمح لتحقيق ذاته عبر خدمتها. كان هؤلاء يجلسون بحماسة إلى جواري، قبل بدء الاجتماع بربع ساعة، معززين ذاك الافتراض. وكانت عيونهم تلتمع فيما ينتظرون قصص النجاح التي ستغير حياتهم، ولعلهم أخذوا بالتغير حتى قبل سماعها، إذ إن تلك القصص تتشابه ويسهل توقع نهاياتها، فجميعها - وياللعجب - تنتهي بالنجاح.

التمس أحدهم مقعداً بجانبي، وأخذت رائحة عطره تغمر أنفي وعينيَّ ودماغي والطاولة والفتاة المجاورة له من الجهة الأخرى والجن في بُعدهم الماورائي. وهو حال جلوسه استنشق نفساً عميقاً وقال بإنجليزية متقنة: «أليس منعشاً أن يكون المرء محاطاً بالشباب؟»، كأنما يحثّنا على استنشاق المزيد من رائحة عطره. وقد ظلّ ينظر نحوي لبرهة بعد إلقاء سؤاله، فلاحظت أنه كان موجَّهاً لي. لم أعرف بمَ أجيب؛ هل كان يفترض بي أن أجسّد فكرته عن الشباب؟ حين لم يحصل على رد توجّه بحديثه للفتاة. لطالما كنت متحدثاً سيئاً، خصوصاً حين لا أقول شيئاً. وأتساءل ما إذا كانت الفتاة قد تركت مقعداً بيني وبينها عن عمد، لأنها قرأت في وجهي تلك السمة؛ لست الخيار الأمثل لقطع الوقت بالحديث الجانبي قبل الاجتماع.

أخذت أتلفّت حولي في القاعة، وكانت طاولتها ذات تصميم بيضاوي يمكّنك أن تحيط بكل المتواجدين. وقد استنتجت أني الوحيد الذي لم يأخذ كفايته من النوم في الليلة الماضية. بدا هذا واضحاً من سحناتهم، كما هو واضح أني الوحيد الذي تعثر ببنطاله هذا الصباح. الكل هنا متألقون، مصقولون، فائقو الروعة، يرتدون ملابسهم بشكل مهندم، ولا يظهر أن أحداً منهم سيضطر إلى الخروج للحمام خلال المحاضرة. لا يوجد تفسير لحفاظهم على هذا القدر من العناية بالتفاصيل سوى أن كل ما يفعلونه بعد عودتهم من العمل هو التحضير ليوم العمل التالي، بل كانوا يبدون كما لو ظلوا يستعدون لظهورهم هذا طيلة حياتهم. كانت الطاولة مسنودة بدعائم، بحيث يكشف أسفلها عن أحذيتهم اللامعة وجواربهم المتناسقة، والتي بمجرد أن تراها تتيقن أن سروال أحدهم الداخلي أيضاً لا بد أن يكون أنيقاً ومتلائم الألوان مع بقية مظهره. وأنا لم أر سروال أحدهم أو أي شيء كهذا، لكني أرى في وجوههم أنهم سعداء بها وجاهزون تماماً لأي شيء، حتى لو طلبت من أحدهم أن يريك إياه لنهض فوراً وقال: طبعاً، انظر كم هو ملائم سروالي فأنا ليس لدي ما أخفيه.

الفتيات كن يظهرن بدورهن كما لو خرجن من إعلان مسحوق غسيل، بعباءاتهن المكوية متنوعة الألوان، وأغطية رؤوسهن الموزونة بإحكام فوق نواصيهن، وشعورهن التي تبرز فقط بما يكفي لإيضاح أنها مصفَّفة بعناية تحت الحجاب. أما وجوههن فتتألق مشرقة بكافة أسرار المكياج الحديث التي يعجز المرء عن تخمينها. وكن يتوزّعن بين الحضور بطريقة توحي أنهن لا يتخلفن في العدد عن زملائهن من الرجال، كما لو كن قد خططن لتوزيعهن هذا معاً قبل أن يدخلن. كان ثمة نوع من التواطؤ الودود بينهن منذ أن دخلنَ القاعة، حتى من دون

تعارف مسبق. وحين يتابع المرء اللطف والجذل والخفر في حديث إحداهن للأخرى، وانطلاقهن العفوي في التعارف بكل رقة ووئام، يعجز عن فهم كل تلك القصص الجامحة عن غيرة الفتيات ولؤمهن وطرقهن الخبيثة في رصد المصائد لبعضهن البعض. تواصُلهن هنا يبدو للوهلة الأولى كما لو ينتمي لعالم من السلام والتناغم الفطري ولا يمكن لشيء أن يكدّر حميميته. لكن مع المزيد من الاستماع للأحاديث الجانبية، صار بوسعي تخمين أن توزّعهن في المقاعد لم يكن قد تم بالعشوائية التي ظننتها في البداية؛ ولم يكن هذا مقتصراً على الفتيات. يبدو أن الجميع يعلم أنه يتواجد في هذه القاعة مع خصومه الذين سيقارعهم يوماً ما على الارتقاء في المناصب؛ كما يعدّ هذا الاجتماع فرصة للبعض لإنشاء نوع من شبكة العلاقات مع الآخرين الذين قد يفيد منهم مستقبلاً في الوصول إلى هدفه. ولعل موضوع المحاضرة تحديداً هو ما يشحذ هذا النوع من التفكير المستقبلي؛ إذ يُستثار المرء لمجرد أن يرى هؤلاء المحاضرين الذين يقفون أمامه ليستعرضوا نجاحاتهم من دون أقرانهم، فيبدأ بالعمل فوراً على أن يبلغ تميزهم.

بدأتْ المحاضرة وانشغل الجميع بالاستماع، فيما واصلتُ السرحان في أشياء أخرى. أخذت أسلي نفسي بتأليف قصة قصيرة في ذهني، واندفعت بتشكيل أحداثها وشخصياتها وحواراتها، عازماً على أن أكتبها بمجرد عودتي للمكتب. والقصة باختصار تتناول موظفاً يجد نفسه فجأة في اجتماع ما، من دون أن يدرك كيف، وكأنما نُوّم مغناطيسياً حتى تم اقتياده إلى القاعة، ثم استيقظ بعدها وقد أُوصدت الأبواب. وحين قرر ذاك الموظف أن يعترض على وجوده هناك، لم يجد أي منفذ مقبول لمقاطعة سير الاجتماع، فقد كان اجتماعاً محترماً

منظماً رغم كل شيء، وعلى من يرغب بالخروج أن يفعل هذا فقط عبر الأجندة المحدَّدة سلفاً والقوانين التي التزم بها الجميع. وحين حدج الآخرين بالنظر، وجد أنهم فعلاً ملزَمون مثله تماماً بذات القوانين، باستثناء أنهم بدوا سعداء بإجبارهم على الوجود هناك، في القاعة ذات الأبواب الفخمة التي يسر المرء أن يجدها تُوصد عليه.

سيل من الضحكات اخترق أذنيَّ وأعادني للحاضر. وعلى الفور فكّرت أن أدرج هذا التفصيل في القصة: كان الضحك ينقطع ويعود في إيقاع بدا متفَقاً عليه بين الجميع. لعلي أسمي ذاك الموظف «ك.» أيضاً، ولْيغفر لي كافكا. أما القصة ففكرت بتسميتها «قاعة المؤامرات»، كتحوير لمصطلح «قاعة المؤتمرات»، أو شيء أبله كهذا.

أصغيت قليلاً لما يجري هنا. كان المحاضرون الذين يروون قصص نجاحهم محترفين، مفوَّهين، بحركات أياديهم التي توحي بأنهم تلقوا دورات مكثّفة في فن الإلقاء، ولهجاتهم الغربية التي توحي بأنهم درسوا في الخارج سبع سنوات على أقل تقدير؛ وهذا يمكن تخمينه أيضاً من حديثهم المتكرّر عن شهاداتهم. إنهم ينتقون جملهم ولحظات صمتهم بدقّة وكياسة، حتى إن أكثر نكاتهم عفويةً تبدو محسوبة كما لو حضّروا لها مسبقاً. الجميع هنا يدرك أن ثمة وقتاً للمزاح ووقتاً للجد، فنادراً ما يحدث أن يلقي أحدهم طرفة في غير موضعها، أو يضحك في وقت الجد، أو حتى أن يمتنع عن الضحك على طرفة ما؛ فهذا الأخير سيكون خطأً لا يقل خطورة عن الضحك على شيء جاد. وقد لاحظت أن أحدهم بدأ يكرّر النظر نحوي بتعبير متشكّك لأني بقيت واجماً في الأثناء التي وجد فيها الجميع أمراً ما جديراً بالمرح.

شعرت بضيق في النفَس ورغبة في تغيير الهواء، وفوق هذا كنت بحاجة للتبوّل بعد كل ما تجرّعته من مياه؛ أسباب كافية لأن أعتبرها حالة طارئة تستدعي الاستئذان. من الجيد أني توقفت عن التدخين وإلا فلا أدري ما ستكون عليه حال رئتيّ الآن.

في الحمام تبوّلت طويلاً، طويت أكمام القميص، وغسلت يدي ووجهي. على ذراعي تشكّلت كدمة نتيجة وقوعي عليها هذا الصباح. كنت قد وقعت على ساعدي، لكن أثر الكدمة امتد لشيء من مرفقي أيضاً. كانت ذات تلوّنات حمراء محتقنة، رغم أنها لم تكن تبعث ألماً يذكر. أخذت نفساً عميقاً، وحدّقت متفحصاً في المرآة، كأني لم أنظر إلى نفسي منذ أعوام.

ما عدا بعض الذبول نتيجة قلة النوم وسوء التغذية، لم أكن سيئ المظهر عموماً، ولا بوهيمياً تماماً. على الأقل، وُفّقتُ دائماً في الحفاظ على نظافتي، من دون أن أعلن هذا برائحة عطري لكل من يشاركني رمز المنطقة البريدي. لكني لا أرى ضرورة تشذيب ذقني بشكل يومي، وكثيراً ما أنسى سحّاب بنطالي مفتوحاً، وأحياناً ألبس كمتشرّد. كل صباح، أبحث في الدرج عن زوج جوارب متطابقة، ثم ينخفض السقف لمحاولة التوفيق بين جوربين بذات اللون، ثم أرضخ لارتداء الكحلي مع الأسود، أو البني مع الأزرق، أو ألوان متقاربة كهذه. أما حذائي فلم أغيره منذ عامين، ولعل قذارته تمنحه مظهراً ذا طابع كلاسيكي أنيق، أو هكذا كنت آمل. لطالما علّلت تأجيلي لشراء زوج جديد بغلاء الأحذية الجيدة وندرتها هذه الأيام، فأنا شخص مسؤول عن مصاريف عائلة، جزئياً على الأقل، ولا أملك رفاهية تبديد أموالي في هذه الكماليات. وفي جزء مني كنت أدرك أن

الأمر متعلّق أيضاً بشعوري أن حذاءً جديداً سيغيّر من مظهري وربما يستدرج بعض التعليقات.

تبوّلت مجدّداً لأتأكد أني لن أضطر للخروج إلى الحمام مرة أخرى؛ مرة واحدة هو العدد الأقصى من المرات المقبولة لمغادرة اجتماع يدوم ساعتين. زررت أكمامي، تنبّهت لإغلاق سحاب البنطال، وحدّقت مجدداً في المرآة. حاولت أن أبدو كمن يتمالك خراءه، وعدت إلى القاعة.

حين جلست لاحظت أني لفتّ بعض الأنظار. تأكدت من سحاب البنطال مجدّداً، كأني لم أفعل ذلك لتوي. لفترة بعد جلوسي، ظللت أتظاهر بأني أتابع باهتمام مجرى الحديث. في تصوّري كان ثمة مَن لا يزال يتابعني منذ أن عدت، ولعل البعض قد ظنّ، قياساً على مدة مكوثي في الحمام، أنني كنت أتغوّط. وسرعان ما ضرّجني هذا بنوع تافه من الحرج، لا سبيل إلى إقصائه رغم إدراكي طفوليته، حتى شعرت به ينعكس على ملامحي إلى حد من المتعذر بعده إنكار تلك الشبهة. أتمنى أحياناً لو أستطيع فقط أن أتحكّم بتعابير وجهي، لتعكس في أي موقف ما أرغب منها أن تعكسه؛ كل شيء بعدها كان ليسير من تلقاء ذاته على ما يرام.

أخذ الميكروفون يتنقّل بين المستمعين لطرح أسئلتهم وآرائهم بعد المحاضرة. كان لا يزال ثمة نصف ساعة مخصّصة للنقاش، وهي مدة كافية لكي يتحدّث الجميع إذا تم تقسيمها بينهم بالتساوي، لولا أن البعض أخذ يتعامل مع تلك الفقرة بصفتها فرصة لا تعوَّض لإبراز الذات وإبهار المحاضرين وجذب اهتمام البقية. حين جاء دوري،

مرّرت الميكروفون إلى زجاجة العطر بجانبي. وهو أخذ نفساً عميقاً وأطلقه داخل الميكروفون ثم قال:

- «أليس رائعاً أن يكون المرء محاطاً بالشباب؟».

وقد قالها بنبرة توحي بأنه فكر بهذا لتوه، وهزّ الجميع رؤوسهم مثنين مبتسمين موافقين على تلك الفكرة. ثم تحدّث باختصار عن تجربة نجاحه الخاصة، رغم أن أحداً لم يسأله، فقط ليبين كم يليق به أن يكون في العام المقبل ضمن المحاضرين. الفتاة بجانبه قبضت على الميكروفون بعده بأصابعها المترعة بالخواتم، وكالت الكثير من المديح للمحاضرين، وراحت تبدي انبهاراً مفرطاً بحكاياهم كمن يسمع قصة نجاح للمرة الأولى في حياته. أسعدهم هذا كثيراً، وهم يصبحون دائماً أشد مرحاً وانتباهاً حين يُمرَّر الميكروفون إلى فتاة.

لم أكن أفضل منهم عموماً، فقد بدا لي أنها تقبض على الميكروفون كما لو كان قضيباً أسود صلباً بين أصابعها المترعة بالخواتم. لكن حديثها المتأثّر والمتفائل، والمصر على إقحام كلمة «إلهام»، طرد الفكرة من رأسي.

عموماً فلنعد إلى القصة، طالما تبقّى بعض الوقت. قد يكون إنهاؤها على نحو جيّد هو الحسنة الوحيدة لهذا الاجتماع.

إذاً يجد «ك.» نفسه منخرطاً في مسايرة القوانين المتبَعة في القاعة ليجد طريقة للمغادرة. هكذا فإنه لا بد من أن ينتظر دوره في الحديث مثل البقية، حتى يُسمح له بالاعتراض على وجوده هناك. لكن المعضلة أنه في الوقت نفسه لم يكن يُسمح له بالاندماج؛ وذلك لم يتم على نحو معلن وصريح، بل كان ثمة مقاطعات مباغتة تعترضه بحيث يُصرف عن التحدّث حين يحين دوره. فمن جهة، كان الرجل إلى جانبه

يتنشق من أنفه باستمرار، وكان صوت استنشاقه مرتفعاً بحيث ظل يحجب عنه القدرة على الاستماع ومتابعة المجريات. إضافة إلى أنه حين يستنشق كان يسحب بمنخاره الضخم كل أُكسجين حول«ك.»، وهكذا وجد هذا الأخير نفسه في حالة من الغثيان والإرهاق وضيق التنفس، مما شتته أكثر، فتجاوزه الميكروفون وصار عليه أن ينتظر دورة جديدة. وكانت تلك الدورات تستغرق وقتاً طويلاً طويلاً قبل أن تبدأ من جديد. لذا، فإنها ما إن تبدأ حتى يكون الكل يستعجل أن يصله الدور، بل ويسعدهم أن يتجاوز أحداً آخرَ منهم. ومع الدورة التالية، صار تمرير الميكروفون يتم بينهم بسرعة كبيرة، ليمنعوا بعضهم بعضاً من الحصول عليه، بل لم تعد لحظة مروره تدوم سوى برهة خاطفة. لم يكن إيقافه ممكناً إلا بأن يكون المرء في كامل تأهبه، ويملك مقولة جاهزة ليفتتح بها حديثه حتى قبل أن يصله الدور.

هكذا، عازماً على ألا يصرفه شيء هذه المرة عن الاعتراض، استجمع«ك.» قواه ليكون في كامل تأهبه. فتح عينيه على اتساعهما، وحدّق أمامه بتصميم، وظل محافظاً بثبات على تلك الوضعية. وأثناء ذلك، لاحظ فجأة أن الفتاة المقابلة له، في الجهة الأخرى من الطاولة الدائرية المكشوفة من الأسفل، عمدت فجأة إلى تغطية قدميها بيديها، الأعضاء الوحيدة التي تظهر منها إضافة لوجهها المرتاب المحدّق نحوه بنفور. وعندها، انتبه«ك.» أن قدميها كانتا مطوقتين بسلاسل زينة فضية (أو هل كانت قيوداً؟)، تلمع في وجهه مع كل حركة منهما، مما كان يلفت نظره لهما، فأدرك أنه كان يتابعهما من دون وعيٍ كامل بما يفعل. وحين أطرق بالنظر إلى حجره ليؤكد لها أنه لم يتعمدً التحديق، أو على الأقل أنه لم يكن يفعل ذلك سوى شارداً، تبدّى لها أنه إنما يطرق بنظره ليمعن في التفرّس فيهما أكثر. فإذا بها تركل قدميها

بعصبية واحتجاج، ركلات صغيرة ضيقة، رافسة على نحو مضطرب زيها الأسود الطويل الذي لا يكاد يغطي كعبيها، مما كان يلفت انتباهه رغماً عنه ويصعّب عليه الإغضاء أكثر أينما نظر. وهنا وجد «ك.» نفسه مدفوعاً لأن يبقي عينيه مغلقتين، لبرهة فقط، حتى يثبت لها براءته. عندها، وكأنما بتوافق سرّي بين البقية، حصل أن تم تمرير الميكروفون إليه، خلال غمضة العين تلك، بحيث غفل عنه، فانتقل فوراً إلى الرجل الذي يليه.

بمجرد أن انفضّ الاجتماع، هرعت لأخرج قبل الجميع. الاستعجال في الخروج هو وجه الاعتراض الوحيد الذي أسمح لنفسي بممارسته. أفكر أني ربما لو حضرت اجتماعاً كهذا في ذروة حماستي الفكرية قبل سنوات، لشعرت برغبة لإفساده، ولكان خليقاً بي حين يحين دوري في الحديث أن أبتسم متهكماً طوال الوقت، ولربما أعددت في ذهني خطاباً يهزأ بقصص النجاح تلك، متخيلاً ردود الفعل التي تراجع نفسها، وصمت الاستحسان الذي سيطغى على المكان، وربما بعض الاعتراضات والامتعاضات الضرورية من الفتاة ذات الخواتم وأمثالها، والتي كانت لتؤكد فقط مدى صحة كلامي. لكني في الغالب لم أكن لأفعل شيئاً من تلك الخيالات، أو ألقي أي خطابات. فقط سأخرج منتشياً بيني وبين ذاتي بما تخيلته كاملاً في ذهني، كأني صارعت عدواً من ريح.

أعود إلى المكتب وأجد الشيخ منهمكاً في العمل كعادته، كما لو أنه لن يتقاعد نهاية الشهر. ألقي التحية، يرد بصوته الشاحب المألوف، ولعله لا يميز أني حييته مسبقاً هذا الصباح. أحياناً فقط يتبع تحيته بإيماءة صغيرة من رأسه، ربما عرفاناً لكوني لا أشغله بالمحادثات. لم تكن احتمالات تواصلنا تتجاوز هذا، لكن على نحو صامت وبسيط

أشعر بأن وحشة أحدنا مرآة لوحشة الآخر. أفكر بأن أسأله ماذا سيفعل بعد التقاعد، لكنّي أفضّل تجاهل هذا أيضاً.

أفكر بالاستغراق في العمل بدوري، لكني أعود لأشغل نفسي بكتابة القصة التي ألهيت نفسي بتأليفها في الاجتماع. أعجز عن الوصول إلى نهاية مقنعة فأحكم عليها بالإهمال. في كل الأحوال كانت تفتقر للأصالة كمعظم محاولاتي الواعية للإفادة مما يدور من حولي. ما الذي ينقصني؟ الإلهام؟ وكيف يقبض المرء على شيء عائم كهذا؟

لطالما وجدت الكتابة الجادة عملاً عسيراً، ولعلها أصعب مهنة في العالم كما يقول همينغواي، وهو الذي خاض الحروب العالمية، وتنقل في البقاع، ومارس الصيد والملاكمة، ومختلف الجلادات الصلبة القاسية، ولا يعجزه وصف شيء على حد قوله. سأقطع ذراعي لأكتب مثله، لكن أنّى لي هذا؟ لقد تجاوزت ربع القرن بقليل من دون أن يحدث شيء واحد مهم في حياتي، ولا في حياة الآخرين حولي، ولا في كل المدينة التي أقطنها، ولم أسافر سوى للجوار؛ فإلى أي تجربة ذاتية يمكن أن أرتد؟ وكيف أصل إلى ذلك المكان الخصب الذي يحوز فيه الكتّاب شيئاً يقولونه؟ حين أتقدم في العمر وأحاول الكتابة عن هذه الفترة من حياتي، فما الذي سأذكره؟ المزيد من الغياب الشخصي عن ذاكرتي الخاصة. إن ما سيملأ الفراغ في ذاكرتي هو الأيام الطويلة للعمل، من دون تذكّر واضح للتفاصيل، فقط ذلك الشعور بتبديد الوقت والإنهاك ونقص النوم والنقر المستمر على الفأرة.

إن كافكا، حين تحبطني صورة كل الكتّاب الآخرين، هو عزائي

الوحيد. أتصوره منهمكاً طيلة اليوم في مكتبه، ورئيسه خلفه يضع يده على كتفه، فيما كل ما يرجوه هو إجازة يتفرّغ فيها ليكتب رواياته، رغم أنه لم يكن قادراً على إنهائها حتى في فترات تفرّغه. يومياته كانت هي الملاذ الأخير لتجاوز نقده الشديد لذاته ونزعته للمثالية، وقد حافظ فيها على أسلوب رصين جدير بالمكانة الأدبية التي سيحظى بها يوماً حين يُنشر له كل شيء. لكنه كافكا في النهاية، وقد أنجز قصصاً ورسائل وروايات عظيمة وإن كانت غير مكتملة. أما أنا، فما الذي حقّقته حتى الآن؟

مذ أن وعيتُ بذاتي، كان يراودني ذاك الشعور بأني سبقت سني، وأني حزت من النضج ما انشغل عنه أقراني. كنت أشعر بأني أملك الإرادة لأن أصير شيئاً عظيماً، أن أغيّر العالم أو هراء كهذا، حتى تمنيت أن أكبر سريعاً لأصير جديراً بطموحاتي. غير أني شيئاً فشيئاً لم أعد قانعاً بأن أمارس أي تغيير مؤثّر في ما حولي، بل صار مجهودي يقتصر على أن أنزوي لداخلي وأمنع المكان من ممارسة تغييره المؤثر علي. حين كنت أسمع أحد العجائز يتحدث عن أن العمر مجرّد رقم، وكيف يشعر بأنه لا يزال في العشرينات، ويردّد عبارات من قبيل أن الشباب يكمن في الروح، يبدو لي هذا حزيناً محرجاً، وأفكر في المستويات العديدة من خداع الذات التي أتقن حبكها كي يصدق حقاً هذا الادعاء. في نفسي كنت أقول: لن أدع هذا يحدث لي، لن يغدر بي مرور الزمن كما يفعل بالآخرين. ورحت أتزود بالمعرفة كي أحيط مبكراً بكل ما يدركه الآخرون بعد فوات الأوان.

قطعت سنوات الدراسة وأنا متشبث بتلك الفكرة: أن أباغت حبائل التقدّم في السن، وأتّقي لاحقاً حسراته المتأخرة. حتى حين وجدت نفسي في معترك الدراسة الجامعية، في طريق لا يشبه فكرتي

عن نفسي، ظللت في داخلي أُحيي ذلك الصوت الذي يقول إني لم أخلق لهذا، وإن ثمة في الأمام انعطافة ما ستعيدني إلى حيث يليق بي أن أسير. كنت متأكداً من تحقق تلك الفكرة إلى حد أني لم أتعامل بجدية مع أي عائق يضلّني عن طريقي. وحتى حين اضطررت لأن أشغل هذه الوظيفة، بكل ما فيها من إشارات السقوط، فقد ظللت أعامل هذا بصفته شرّاً لا بد منه، مجرد خطوة تمهيدية ضرورية نحو مصيري المنتظر. وقد ظل هذا يمنحني القدرة على احتمال المواقف، وعلى التغلّب عليها بتحليلها ذهنياً حين أنفرد بنفسي. بل كنت مستعداً لتحمل أقصى ضروب البؤس والإحباط والانحدارات في الطريق، لأنها ستشكل تجربة خصبة أفيد منها لاحقاً.

ثلاثة أعوام في هذا المكان، كانت فترة كافية لأن تتواتر إليّ، ثم تستقر في داخلي، حقيقة تلك المزاعم. لقد أدركت متأخراً أني من بين أقراني كنت ضمن الأشد تخلفاً وأقل نضجاً، وأني تركت الحياة تمضي فيما كنت منشغلاً بعدم الانخداع بمظاهرها، بل والانتقاص من متطلّباتها العملية ومسؤولياتها.

أرى الآخرين يؤدّون عملهم ويندمجون في هذا النسيج، ويضعون خطواتهم في الطرق التي يرون فيها ذواتهم المستقبلية؛ فيما أنا لا أزال أفكر: كيف انتهى الأمر بي إلى هنا، وكيف أعترض من دون أن أُسحَق، وكيف أجد منفذاً للخروج؟ مع هذا، ما زلت في جزء مني أتصور أني سأغادر قريباً، وأنه لا يمنعني سوى أني لم أحصل على مبرري بعد؛ حتى إنني لم ألصق على المكتب بطاقة تحمل اسمي، فقد ظل هذا يعزّز شعوري بوجودي الموقت في القسم، رغم أنه قد يثير عند الإدارة بعض الملاحظات.

إني أصبح مشتط الذهن حين أمر بيوم سيئ، لكنه على الأقل يشارف على الانتهاء. ولعل أهدافي في الكتابة يجب ألا تتعدى هذا: قَطْع الوقت بأكبر خفة ممكنة؛ لكني أتساءل حتى متى يمكنني الصمود على هذه الحال.

نهضت لأتريّض قليلاً، وبمجرد وقوفي شعرت بالدوار. اتجهت للحمام، وخطر بذهني أن ألقي نظرة أخرى على ساعدي. حين رفعت كم القميص، أجفلت من المنظر. كانت الكدمة، وقد انتشرت على امتداد الذراع، قاتمة، مزرقّة، فاحشة، كما لو كنت مريضاً بشيء آخر غير هذه الوظيفة.

الأسبوع 7:

أتصفح الأخبار من كمبيوتري المحمول، أقرأ قليلاً، ثم أكتب، كأني ما زلت على المكتب.

كانت الحمى قد بدأت منذ الأسبوع الماضي. تحاملتُ عليها بالمسكّنات كالمعتاد، لكنها واصلت الارتفاع. ثم استيقظت قبل أيام وقد فقدت صوتي تماماً. نقلني أخي إلى الطوارئ فجراً، ورافقتنا أمي. قالوا إنني كنت أغلي. حقنتُ بحقنة مهدئة، وأجريت لي بعض الفحوصات. قالوا إن الطبيب سيراني في الصباح، لكنّي أصررت على العودة إلى البيت. بدأت أشعر بالتحسن واستعدت صوتي نسبياً، لكني اضطررت للتغيّب عن العمل لأسبوع آخر. لم أعاود الذهاب إلى المستشفى للحصول على إجازة مَرضية، لذا سيتم اقتطاعها من رصيد إجازتي السنوية إن وافق المدير.

لم أستهلك الكثير من إجازاتي حتى الآن بفضل عادة لغد الديك ذاك في رفض العطلات الطويلة. لكن ما زالت تراودني خيالات بأني أوفّر رصيدي لرحلة طويلة يوماً ما خارج البلاد. بين حين وآخر

أبحث في الانترنت عن الأماكن السياحية في براغ أو بطرسبرغ، أو مهما كان مسقط رأس آخر كاتب تأثرت به. وكثيراً ما أستعيد بشغف تلك النهايات التي يعزم فيها البطل على الرحيل فجأة ليتحرر من القيود التي تكبّله، كما يحدث في رواية «الجوع»، أو «صورة الفنان في شبابه». أتذكر المقطع الأخير جيداً: «أهلاً أيتها الحياة! إنني ذاهب لكي أقابل للمرة المليون حقيقة التجربة». هذا ما كتبه جويس الشاب قبل أن يجوب أوروبا وينتهي مع همينغواي في باريس، والتي ربما أعدّها بسبب هذا أحد الاحتمالات الواردة. بفضل تانيزاكي، أفكّر أيضاً في اليابان، إلا أن بُعد المسافة وارتفاع التكلفة يقفان عائقاً أمام إدراجها ضمن المخططات. كلما خطرتْ بذهني أتذكّر عبارة قرأتها قديماً في قصة ما: يجب أن يكون في حياة المرء مكان يفكر به، يتعلم عنه، وربما يتوق إليه، لكن لا يزوره أبداً.

حين تبدو أحلام السفر مستبعدة، ألجأ إلى نوع آخر من الخيالات، كأن أتصوّر مصيبة شنيعة تحل بي وتحرمني من كل أمل في الحياة السعيدة. تكون هذه الفكرة عادةً مصحوبة بقدر من المازوشية، إذ أجد نفسي متلذذاً بكيفية تأقلمي مع تلك المصيبة، وكيف ستثمر لاحقاً في حياتي. فمثلاً، بعد خرسي المؤقت في الأيام القليلة الماضية، لم تبدُ لي فكرة سيئة لو صرت أخرسَ للأبد. أولاً، ستضطر الشركة للاستغناء عن خدماتي، وتعوّضني فوق ذلك براتب تقاعدي نتيجة اضطرارهم لتسريحي بسبب الإعاقة. وثانياً، سأصبح معفيّاً من الزيارات والواجبات الاجتماعية التي لطالما شعرت بأني أخون ذاتي خلالها. وإن كان لهذا القصور في التواصل جوانبه السلبية أيضاً، لكن يمكن الإفادة منه بأن أصرف كامل طاقاتي التعبيرية في الكتابة، ولعل قدرات جديدة للكلمة المكتوبة تنشأ من العجز عن نطقها. ثم

إن الخرس بالذات، مقارنة بالصمم والعمى ومصائب مشابهة، يُبقي لي على استمتاعي الكامل بالكتب والأفلام والموسيقى، من دون أن يسلب شيئاً من حواس التلقي اللازمة لها، وهكذا لن أعدم أن أجد ما أسلّي به نفسي طوال اليوم. هكذا سيصبح مبرراً لي أن أغرق في عزلة هادئة مريحة، وهذا هو الجزء الأجمل في الفكرة: إمكانية التعذّر بالظروف أمام الأصوات التي تطالبك بالارتقاء إلى مستوى التوقّعات. أما إذا قال أحمق ما: «ليست خسارة كبيرة، لم نكن نسمع صوته كثيراً على كل حال»، فيمكنني دائماً أن أركله على خصيتيه، أو أرفع إصبعي الأوسط في وجهه، إذ يصبح كل ذلك مبرَّراً بعد أن حُرِمتُ وسائل التعبير التي أدافع بها عن نفسي.

لم تكن تلك هي الفكرة الطفولية الوحيدة التي رافقتني أثناء المرض. في الأسبوع المنصرم جرّبت بنفسي شكلاً من أشكال تلك المقولة: الابن المفضل لدى الأم هو الابن المريض. كانت أمي توليني اهتماماً كبيراً في المستشفى، وتجلس بحزن على طرف السرير، وتظل تقلّب يدها على جبيني لتقيس حرارتي. لكن بمجرد أن أفتح عينيَّ، كنت أرى نظرتها الحزينة الدامعة تلومني: لماذا مرضت، لماذا أوقظت أخاك في الثالثة فجراً، لماذا لم تكن فتاة؟ في ذاكرتي يمر سريعاً مشهد من بداية مراهقتي، بعد أن بدأ جسدي بالنمو، وهي تمسك ذراعيَّ وتقول: «يا للذراعين القويتين لفتى»، لكني كنت أرى في عينيها الحسرة. أذكر هذا جيداً لأننا توقفنا عن التلامس قبلها بفترة، لكن لمستها يومها كانت حانية.

لطالما كان أخي الأكبر هو الابن المفضَّل لديها؛ ولم أشعر بالظلم لهذا الانحياز، فقد كان لتفضيلها مبرراته، بل وكنت بطريقة ما أشجّعه، إذ كان يصرف تركيزها عن مراقبتي والإلحاح على تقويم كل خطوة

لي. كنت أرغب في أن أكون ملحوظاً بطريقة خاصة، لكني لم أرغب أبداً في أن أكون الأكثر إثارة للانتباه. وكان هذا نزوعاً يجري في طبيعتي، فلطالما ارتبكت متى اضطررت أن أكون في الواجهة في أيٍّ من مجالات الحياة. إن هذا يذكّرني بدراسة تقول إن المولود الثاني في الأسرة ينزع دائماً لتهميش نفسه. أو ربما هو بهذا ينزع لتمييز نفسه؟

على كل حال، أدين لأخي كثيراً بأنه جاء قبلي. سيكون من الصعب تخيّل مدى الضغوط التي سأضطرّ لتحملها لو كنت أكبر إخوتي. وفي الحقيقة لست من النوع الذي يستيقظ فجراً ليقلّ أحداً لأي مستشفى لعين. أما هو، بحكم كونه ولي الأمر بعد وفاة والدي، فقد كان دائماً في حالة متابعة وحرص وسعي للصالح العام. فبالإضافة إلى مهمات البيت، كانت مسؤوليات دوره الجديد كربّ أسرة تتضمّن بناء علاقات اجتماعية مثلاً، للحفاظ على ما تبقّى لنا من وجاهة بعد تفكّك الأواصر بين أعمامي. وحتى حين اقترحتْ عليه أختي خطيبَته، أبدى حماسة لعائلتها بسبب الوجاهة والسمعة والثراء أكثر مما أبدى رغبة بالفتاة نفسها.

إني أساهم في المسؤوليات الماديّة بقدر ما أستطيع. فنحن نصرف راتبيْنا على متطلبات البيت بالتساوي تقريباً، بالإضافة إلى راتب والدي التقاعدي. لكن في حين أن هذا كافٍ من جهته إلا أنه من جهتي ظل ينعت بالقصور. ولهذا تفسير بسيط؛ فقد كان استغنائي عن الطموح الوظيفي يقلّل من شأن مساهمتي حتى لو قدمت الكثير مما أكسبه. أما أخي، فما فتئ يشارك في دورات تدريب، ويدرس الماجستير بعد دوامه الصباحي، ويبذل ما يفوق طاقته في الحصول على مختلف الشهادات والزيادات والترقيات. ورغم أنه لم يصل بعد إلى حيث أراد أن يصل، إلا أن سعيه الدؤوب ذاك للتطوّر كان يجعله دائماً موضعَ

مؤازرة واحترام، خاصّة من أختي، وذلك لأنه يوافق معايير محيطها الاجتماعي، والتي تربط القيمة الأعلى للفرد بالنجاح الوظيفي.

أعترف بأن هذا يثير القليل من غيرتي أحياناً، لكني ما زلت أعامل الأمر كما كنت أعامل تفضيل أمي له، أي بصفته التوازن الطبيعي الذي يجب أن تتوزّع به أدوارنا بحسب اختلاف طبائعنا. طبيعته الهادئة والمسالمة بالتحديد ساعدت كثيراً في أن لا آخذ غيرتي بجدية أكبر، وبفضلها ظلّت علاقتي به منذ صغرنا خالية من التنافس والتسلّط والاستفزازات التي تدور عادة بين الأشقاء. الفارق العمري بيننا لا يتجاوز العامين، ولم يكن في الظاهر ما يدل على وجود اختلاف جوهريّ بيننا. كانت طفولتنا مشتركة غالباً؛ ننام في الغرفة نفسها، ونذهب إلى المدرسة نفسها، ونمارس الأنشطة ذاتها بعد المدرسة. تعلمنا ركوب الدرّاجة ولعب الكرة معاً، وكنت دائماً أقلّد تصرفاته في المناسبات والولائم، لأعرف كيف يجدر بشخص في سنّي أن يتصرّف. وفي مجمل الأمر، يمكن القول إن طفولتي كانت أقل بؤساً وارتباكاً بفضل وجوده فيها، فقد كنا متلائمَيْن على نحو مريح. إلا أن كل هذا تغير لاحقاً. إنه من الغريب تتبّع الطرق المختلفة التي تسلكها شخصيتان هادئتان، رغم الدرجة التي كانا يبدوان عليها في هدوئهما متشابهيْن.

الآن، صار يدخل الغرفة هكذا فجأة، فقط ليطمئن أن كل شيء على ما يرام. لم يكن يستغرقه الأمر سوى نظرة واحدة قبل أن يبدو عليه عدم الارتياح لوجوده هناك. فبمجرّد أن يفتح الباب كان يُصدم بالعدد الهائل للصناديق الموزّعة بعشوائية؛ والتي ما زال معظمها في مكانها منذ انتقالي. وليتقدّم المرء داخل الغرفة، فإن عليه أن يسير بين تلك الصناديق بحذر، كما لو أنه سيدوس على سلة من البيض. لذا كان عادةً ما يكتفي بأن يقلّب عينيه مستنكراً، محتاراً من أسلوب الحياة

إياه. إنها نظرة ما زال محافظاً عليها منذ أن أكتشف أثناء مراهقتنا أني بدأت أدخّن.

كنت أبدو له غريب الأطوار، وذا شخصية لا تتورّع عن أيّ محظور، ولو لمجرد أني لا أرى ما يمنعني. بل كان يشك أني أرتكب المحظورات بسرّية تامة، بحيث يمكنه إذا محّص أكثر في ما حولي أن يكتشف ما يؤكد مخاوفه وحذره تجاهي. وهو حين لا يجد ما يقوله لي، يأخذ بالتساؤل عن أي شيء يراه حولي: «ما كأس الحليب هذا؟». وإذا به يحدّق بتعبير يوحي بأن الغرابة إنما تكمن في الكأس، لا في السؤال. وحين أجيبه أنه مجرد كأس حليب، فإنه يظلّ يحدّق من دون أن تمَّحي عن وجهه ملامح الشك، وكأني منحته إجابة ناقصة. في بعض الأحيان نضحك كلانا لغرابة التوتر بيننا في هذه المواقف. لكن هذا يؤدي فقط إلى مزيد من عدم الارتياح؛ ربما لأننا نتذكّر كيف كنا نضحك سابقاً. لقد اختلف الأمر كثيراً عما كان عليه حين كنا صغاراً.

من الواضح أنه يحاول تمثيل نسخة تعويضية للأب، إلا أنه هو نفسه لا يستطيع أن يأخذ نسخته معي بجدية. فرغم تعاطفي مع حسن نيته، وتقبّلي الظاهر لنصائحه وشعوره بالمسؤولية، إلا أنه ذكي بما يكفي ليلحظ مقتي وازدرائي لأبوّته المفتعَلة تلك. أشعر أحياناً بأني أنا من يمارس دور الوالد عليه، بذاك الانتقاد المحايد لكل ما يصدر عنه. لكن لأكون منصفاً، كان والدي عرْضاً يصعب أن يُتبع، وحريّ بأي شخص ألّا يبدو أبوياً بعده، بل حريّ بكل شخص أن يبدو متصنّعاً بالمقارنة. ولعلي أكمل البورتريه العائلي وأكتب عنه غداً، بقدر ما تبدو تلك مهمة متعذّرة، وربما لهذا تجنّبتها حتى الآن.

***

كما لو كنتَ تحدّق إلى قناع؛ كانت هناك دائماً مسافة تفصله عن كل الأشياء. كان هذا ما يشدّني إلى صورته، وهذا أيضاً ما يجعلها الآن عصيّة على التحليل. لم يكن أشد الرجال تعقيداً، لكن كانت له قدرة على النفاذ إلى بواطن الأمور. وبجملة واحدة يمكن أن يصيبك في مقتل. وكنت أكره هذا لكن لا أمقته، حتى إني تعلمت أن أحبه بعد وفاته، إنما كما يحب البعض هتلر: لمجرد أنه كان فريداً من نوعه، لكن من دون رغبة بأن يعود.

لم أشعر بأنه يمقتني بدوره، ولم يكن يبدو أنه يحبني بشكل خاص أيضاً. لم يكن متسلطاً ولا موبّخاً، ولا مشغولاً بالطريقة التي يلقّن بها الآباء أبناءهم درساً. كان يكتفي بأن يأمرك بنبرة هادئة أن تكفَّ عن المبالغة، وكان هذا كافياً لأن يردعك. ولم يكن في هذا نقد شخصي موجّه نحوك تحديداً، فلو أن رضيعاً بكى بجانبه، وهو يقرأ الصحيفة أو يتابع التلفاز، لأمره بهدوء ألّا يبالغ؛ كأن المُتوقَّع في اللحظة التالية أن يفهم الرضيع ويصمت، لا أن ينزل هو إلى مستوى فهم الرضيع.

كانت تلك عبارته المفضلة: «لا تبالغ»، بل تكاد تكون عبارته الوحيدة لتصويب كل الأمور. حتى لو أنه قرأ هذا الآن لردّ بها عليّ، وربما لكان ردّه في محله. إنها إحدى تلك العبارات التي لا يمكن أن تخطئ، أو لم يستخدمها هو في غير موضع فعّال. وكانت له طريقته الهادئة الخاصة في لفظها، بحيث لم تكن تترك ذات الأثر حين تخرج من غيره. لم يكن في استخدامه لها أي قسوة، ولا رقة، من جهته. فقط نزعة محايدة لتجريد الشيء من الزوائد. ولعل هذا ما يجعلها مؤثّرة إلى هذا الحد: خلوّها التام من أي تنازلات.

أذكر مرة أني أحضرت له كشف الدرَجات من المدرسة، وكنت

في المرحلة الابتدائية، وقد دخلت البيت مبتهجاً راكضاً وأنا أصيح أني حصلت على العلامة الكاملة. فما كان منه إلا أن قالها بهدوء: «لا تبالغ»، وانكتم صوتي على الفور. لكن ماذا يعرف هو؟ لم يكن قد نظر إلى كشف الدرجات بعد، أو امتلك أي دليل يدحض ادعائي، فبأي حقٍّ يشكّك؟ حين لاحظ التعبير المعترض على وجهي، استلم الكشف مني ومسحه بنظرة، ثم اكتفى بالإشارة بإصبعه للعلامة الناقصة، علامة في مادة الخط. لكن هل الخط مادة دراسية حقّاً؟ إنه شيء منحط لا ينبغي أن يؤخذ في الحسبان، هل يجب أن أقول إني لم أحصل على درجات كاملة لمجرد أن مدرّس العربية النغل لا تعجبه الطريقة التي أكتب بها حرف الكاف؟ لكن هذا شيء آخر. ربما كشف أمري من صوتي أو من طريقة دخولي.

في بعض الأحيان لم أكن أفعل أي شيء، لا أصيح، ولا أركض، ولا أقول شيئاً، لكنه كان يجد طريقة ليكتشف أني أبالغ؛ أبالغ في فعل اللاشيء. كان يعود من العمل مرهَقاً، فترة ما بعد العصر، أي في ذروة وقت لعبي ونشاطي، ويستلقي على الصوفا في الصالة. وكنت أشعر بأنه يحتاج إلى الراحة والهدوء، فألتزم الصمت ولا آتي بحركة. أجلس متصنّماً واثقاً، ممعناً في إيضاح أني لن أزعجه، فإذا به ينظر نحوي ويقول: «لا تبالغ»، كما لو أنه يقول: «كفَّ عن الادّعاء».

كنت ولداً حيِيّاً، سهل الانقياد، لكن عينه البصيرة كانت قادرة دائماً على كشف حِيَلي، وطرقي الملتوية في جذب الاهتمام. كان من الواضح له أن هذا التهذيب المفرط، الذي أرضي به ذاتي والآخرين، لم يكن ينبع من صفاء نية تجاههم، بل من ضعف في طبيعتي؛ من رغبتي أن أكون موضع قبول لدى الآخرين، حتى حين لا أستسيغهم. لم أكن أخلو من الكبرياء أيضاً، إذ كنت أعمد إلى أن أشاكس وأعاند

أحياناً لأثبت أني لا أراعي نظرة أحد، وعندها أيضاً لم يكن يعجزه أن يكتشف في هذا شيئاً من المبالغة.

حين بلغت المرحلة الثانوية، بدأت أطلق العنان لنزعاتي المتمرّدة، وقد زادني الاطلاع ثقة وحرية وشعوراً بالفردانية. كنت وقتها قد اندفعت في القراءة الجادّة، عن المدارس الفكرية الغربية خصوصاً. وكان أبي يلقي نظرة على الكتب التي أطالعها بين حين وحين، فهو من كان يمنحني النقود لاقتنائها طالما أستأذنه في ما أشتري. لم يكن يبدو أنه يمانع تلك العادة الجديدة، فليس هذا أسوأ ما يفعله الصبيان في تلك السن، ولكن لم يكن واضحاً إن كان يوافق أيضاً. كل ما حدسته هو أنه تلمّس تغييراً ما يجري في نفسي نتيجة تلك القراءات. فقد بدأت أعارض كبار السن في المجالس، وأتجرأ على التشكيك في مسلماتهم، بل وأعلنت ذات نقاشٍ انشقاقي عن تقاليد المجتمع، بحجة أني أرفض أن أكون جزءاً من القطيع، موحياً بأن طبيعتي الانطوائية إنما كانت في أصلها اختياراً.

ثم حدث في أحد تلك الأيام أن احتجت نقوداً لشراء كتاب لنيتشه. وكنت قد قرأت «ما وراء الخير والشر»، وأثر بي تأثيراً جمّاً، بحيث رغبت بعدها باقتناء كل ما كتبه ذاك المعتوه. كان أبي جالساً وبصره شاخصاً إلى التلفاز، يتابع برنامجاً حِوارياً، لكن بتلك النظرة التي يمكن بها أيضاً أن يحدّق في الأبدية. وحين استأذنته، ظَلّ صامتاً، فافترضت أنه يطلب المزيد من التوضيح. ذكرت له العنوان: «هذا هو الإنسان!»، وهو ظل صامتاً لبرهة أطول قليلاً. ثم من دون أن يرفع رأسه نحوي، ومن دون تمهيدات، سمعته يقولها. لكن لماذا يقولها الآن؟ كيف لي أن أعرف؟ وما زاد اضطرابي حينها أنه منحني النقود رغم ذلك، وأخذتها منه في حيرة مزدوجة. لم أفهم تماماً، لكنني أيضاً

فهمت. كان هذا النوع من العبارات التي تصيب كبد الأشياء، وليس ثمة داعٍ لأن تضيف شيئاً بعدها.

بإمكاني أن أسرد عدداً لا نهائياً من الذكريات، من طفولتي حتى نضجي، والتي لا دور له فيها سوى أن يكشف أمري بتلك العبارة. لقد كانت اللازمة التي شكّلتني منذ صغري، وصبغت الكثير من ارتباكي وشكوكيتي تجاه ما أقوم أو أفكّر به. حين أفكر الآن بالأمر، يبدو لي أن تأثيره كان ملموساً في أساسات تفكيري وبشكل عملي أكثر من أي فيلسوف. كنت أمتنع عن تصرفات عفوية أمامه لمجرد أن أحدها قد يبدو مفتعلاً، بل وحتى حين لا يكون في الجوار، مستعيراً عينه الحادة في تعرية المبالغات. لقد علمني هذا أن أكون صريحاً مع نفسي، أو أشد براعة في إخفاء الحِيَل، لا فرق بين الكذبتين.

ومع تقدّمي في السن، كان قد نشأ لديَّ شعور بأن ثمة دافعاً خفياً وراء كل ما أفعله. هكذا ظللت أنزع القشرة تلو القشرة، في محاولة الوصول إلى لب دوافعي، بالطريقة التي يتسلّى بها طفل يجنح للتحليل، غير أني أفعل ذلك بجدية تامة، إلى حد أن أجرّد تصرفاتي من كل معنى للخير، وربما كل معنى للشر أيضاً.

لكنّي لم أكن الوحيد في البيت الذي تأثّر بهذا النقد الأبوي، لفرط حساسيتي أو شيء من هذا القبيل، بل أخي الأكبر كذلك، وربما كان نصيبه من تلك العبارة أشد لكونه الأكبر. أختي الصغرى تجاوزَتها، بطريقة سحرية ما، وكذلك أمي. ربما لأن الأنثى تتبع دائماً غريزتها، فلا تبالغ حتى عندما تبالغ. أتذكّر منظرها جيداً في غرفة المستشفى، وهي منهارة على الكرسي، وتذرف دموعها ليل نهار، وهو يتمدّد إلى جانبها على السرير، واعياً ومواسياً، من دون أن ينكر عليها شيئاً. كنت أجلس

بعيداً آخر الغرفة، على الكنبة الجلدية السوداء، كما لو أني فائض على المشهد.

لطالما تساءلت كيف لزواجه بها أن يستمرّ من دون خلافات، من أين لهما كل ذاك التوافق؟ كانت أمي هي التجسيد البشري لفكرة المبالغة. بل إني حين أفكر بنفوري المبكر من كل ما هو عاطفيّ وانفعاليّ، يمكن أن أتتبّع جذوره إلى نزعات أمي الهستيرية، والتي تستولي على كامل انفعالاتها أحياناً إلى حد تخرج به عن السيطرة. مع هذا، شيء ما فيها كان يدفعه للتغاضي؛ لم أدرك أبداً ما هو، لكني كنت أدرك أنه ينقصني.

كانت تلك أيامه الأخيرة. حتى قبل أسبوعين من موته، لم يعرف أحد أنه كان متعَباً، ربما هو أيضاً لم يعرف. أصيب فجأة بالحمى، وكان من المبالغة طبعاً أن يذهب إلى المستشفى. وحين تردّت حالته وأخذناه اندهش الطبيب:

- «كيف لم تأت إلى هنا قبل الآن؟ إنزيمات الكبد ترتفع بشكل مخيف!».

«لا تبالغ»، ردَّ بنبرة هادئة. واصلت الإنزيمات الارتفاع من دون أن يغيّر موقفه. «إذا كنت ورثت من والدك شيئاً فهو هذا العناد»، ظلت أمي تقول لي لاحقاً، وسط خلافاتنا، وكانت تلك لحظة صفاء ورضى بيننا.

ثم بدأت أعضاؤه تنهار، واحداً تلو الآخر، ودخل في غيوبة حُمِل إثرها إلى غرفة العناية المركّزة. أبلغنا الطبيب أن فرص نجاته ضئيلة، لكن هو لم يعرف ذلك بعد. استيقظ في اليوم التالي في العناية، وثمة قناع أُكسجين على وجهه، وقد وجد نفسه محاطاً بالأجهزة الطبية الضخمة والشاشات الطنانة من كل حدب وصوب. استيقظ مضطرباً،

وهو يصرخ بكلمات غير واضحة من خلف القناع، ولوهلة ظننته يطلب بغضب أن يبعدوا عنه كل هذه المبالغات. كنا نتناوب على البقاء معه في العناية، وكان موعد نوبتي حين حدث هذا. عيناه الجاحظتان كانتا تتطلعان نحوي، تكادان تخرجان من محجرَيْهما، وقناع الأكسيجين يمتلأ ببخار أنفاسه وصراخه المكتوم، وقد تسمّرتُ في مكاني مرتعباً لبرهة، ثم أدركت أنه يطلب مني إحضار الطبيب. هرعت مسرعاً، وفي داخلي تعتمل حماسة متّقدة جديدة؛ كنت عازماً على مؤازرته على أي نحو يطلبه في تلك اللحظة، حتى لو طلب مني أن أنزع عنه كل تلك الأجهزة لنتركه يموت بهدوء.

حين عدت بالطبيب، كان بؤبؤا عينيه يضربان يمنة ويسرة، وأجفانه تطرف بسرعة مفزعة، وأنفاسه تعلو محاولة التشبث بأي أُكسجين في الغرفة، أما صوته فقد استحال أنيناً لا بشرياً ولا حيوانياً. لم يكن ما يرعبني وقتها هو أن أشهد موته، بل أن أجده على هذا القدر من الذعر. كل الإجراءات الروتينية العاجزة التي قام بها الطبيب لم تخفّف من إدراكه أن أجله قد حان، بل تزيده وعياً بذلك، ومع هذا ظل يطلب أن يُنقذ. بالحركة المذعورة لعينيه كان يطلب أن يُنقذ. وحين توقّف قلبه تماماً، كان جهاز التنفس الاصطناعي لا يزال يضخ الأُكسجين في رئتيه، وصدره ظل يعلو ويهبط.

ما زالت عالقة بذهني حتى الآن تلك الصورة الشاذة لرجل ميت يتنفّس. فقط حين نزعوا جهاز التنفس وهمد أخيراً، جثةً رخوةً ساكنة، بدا أقرب شبهاً بصورته المعتادة. ولبرهة بعدها، راودني شعور حادّ يتعذّر استعادته الآن على نحو دقيق؛ كان أشبه بشيء يقول إن الحياة كلها ليست سوى مبالغة.

الأسبوع 8:

كان أول ما لفتني بعد عودتي إلى العمل، بريد إلكتروني من المدير ذي لغد الديك:

البقاء لله، توفي موظفنا السابق (فلان الفلاني)، والذي خدم الشركة خير خدمة خلال 30 عاماً.

تُقبل التعازي على هاتف أخيه، (وثمة رقم غريب في نهاية الرسالة)، إنا لله وإنا إليه راجعون.

اتصلت على الرقم الموجود في رسالة العزاء. وحين رد أحدهم، توتّرت فوراً. إنه أخوه، لا شك في ذلك. لكن صوته كان مشابهاً لصوت الشيخ إلى حدٍّ غريب، ذات الشحوب الذي تتكدّس به حناجر من صمتوا لفترات طويلة. بطريقة ساذجة، لم أستطع منع نفسي من الشعور بأني أعزي الشيخ نفسه.

كان موتاً مفاجئاً، لكن أي رد فعل مفاجئ لم يكن ليبدو طبيعياً. فالجميع يعرف الشيخ، لكنّ أحداً لم يكن يعرفه إلى الحد الذي يخوّله

ادعاء أنه لم يتوقّع دنو أجله. وكون أجله قد وافاه بالتحديد بعد أسبوع من تقاعده، كان تسلسلاً يوحي بمنطقية الحدث. فبمجرد تقاعده، كان الجميع قد قبِل أن وجوده في حياتهم انتهى، وأنهم على الأرجح لن يرونه مرة أخرى، ولم يكن موته إلا دليلاً مؤكداً لهذه القناعة. وفوق هذا، كان موظف جديد يشغل مكانه إلى جواري، وقد تم تعيينه هنا قبيل وفاة الشيخ، وبعد تقاعده مباشرة، أي في الأسبوعين اللذين غبت فيهما وحدث خلالهما كل هذا. ولأن فراغاً في المقعد لم ينتج إثر هذه الوفاة، فقد بدا كأن نقصاً لم يحدث. كان الجميع يمارس عمله باعتياد، حتى يمكن أن تشك أن الموظف الجديد كان يجلس هنا طوال الوقت.

لم يكن من عادة الموت أن يؤثر بي عموماً، حتى إني لم أذرف دمعة بعد وفاة والدي، وكل ما نتج عنها كان قصة قصيرة سرعان ما ساءتني رعونتها وافتقارها للأصالة، وخلوّها من خصوصية التفاصيل المستلهمة من تجارب حقيقية. في الحقيقة، لم أشعر أن وفاة أبي أمر يخصّني، وكأنما عزل نفسه حتى بعد موته بذاك القناع الذي يقصي به ذاته عن الجميع. لكن أن يموت هذا الشيخ الذي كان يجلس إلى جانبي 9 ساعات في اليوم، وبعد أسبوع من استقالته، هو أمر لم يكن يمكن أن آخذه إلّا على محمل شخصي. شعرت لسبب ما بأنني المسؤول عن الإبقاء على موته مؤثراً وحاضراً في المكان. لكنه كالعادة مجرّد شعور، لا ينتقل أبداً إلى مرحلة الاحتجاج؛ وعلى ماذا يمكن للمرء بالتحديد أن يحتجّ؟

ربما كانت معرفتي الغضة بالخبر، بعد عودتي من الإجازة، تضعني في مرحلة جنائزية مختلفة عن البقية، الذين اكتملت كما يبدو دورة تأثرهم بالحدث. لقد كان في النهاية موظفاً سابقاً، ولم يكن حتى

من قوانين الشركة أن تعلن عن وفاة المتقاعدين؛ فلو أخذت الشركة بالنعي كلما مات متقاعد منها لما فرغ صندوق بريدنا الإلكتروني من جنازة كل شهر، إذ يبدو أن هؤلاء المتقاعدين لا يجدون ما يفعلونه بعد انقطاعهم عن العمل سوى الموت. ومع هذا، فقد آثر مديرنا أن يعلن خبر وفاته في إدارتنا، بمبادرة إنسانية يُتوقع منها أن تنال استحسان الجميع. بهذا كان يؤكّد الرعاية التي يحيط بها موظفيه، وحرصه على حفظ التميز والعرفان الذي يستحقه جنوده المجهولون، بأن يعلن عن وفاتهم حين يفارق واحد منهم الحياة.

ما يزيد ضيقي بكل هذا، هو أن الموظف الجديد بجانبي لم يكن يبدو كمن يحل محل رجل مات لتوه. ليس ثمة طريقة خاصّة لأن يبدو المرء على ذاك النحو، لكن هذا الشخص بالذات يبدو مستعداً للمشي فوق قبور الآخرين إن كان هذا هو الطريق الوحيد لمنصب أفضل. إنه يتحدّث طوال الوقت عن امتلاكه أفكاراً جديدة لتطوير القسم، ويطرحها بتلك النبرة المحتقِرة لذوي الدماء القديمة، والتي تؤكد كم هو خليق بكل من سبقه أن يموت. بل إنه في كل تصرفاته يبدو كمن يقول: انظروا إلي، أنا لا أكترث إلّا بما هو عمليّ ومستقبليّ. ولعله يأمل في أن يصبح الرئيس يوماً ما، وإن لم يقل هذا صراحة، فهو يواظب على الحضور بالبدلة الكاملة، الجاكيت الرسمي وربطة العنق وكل شيء، وحين يطري أحد تأنّقه فإنه يردد مقولة: «على المرء أن يلبس بحسب الوظيفة التي يطمح لها، لا بحسب الوظيفة التي يشغلها الآن».

لم تكن فلسفته هذه إلا لتسحر الآخرين، إذ سرعان ما يجدون أنه يفوقهم طموحاً وقدرة على التقدم، فيفسحون له الطريق ويحاولون كسبه في صفهم. ولم يستغرقه هذا الاندماج سوى أسبوعين في القسم، في حين أن ما يفوق العامين في القسم نفسه لم تتقدم بي خطوة

واحدة في علاقتي بأي موظف. الموظفان اللذان يجلسان أمامنا صارا يتلفّتان للخلف ويتحادثان مع ربطة العنق بجواري، فيسألونه عن هذا الشيء أو ذاك ليحسم لهما أي قضية بآرائه المتحذلقة واعتقاداته الواثقة. يحدث هذا كل يوم في الساعة التاسعة، أثناء فترة الإفطار، لأن من شأن الحديث في أوقات أخرى أن يثير ملاحظات الإدارة. أثناءها، يأخذ أحدهما بالتلفت نحوي ليمنحني فرصة الاندماج، وهو يتناول اللقمة تلو الأخرى ويحيط بفمه شيء من البياض من أثر الطعام. هذا كفيل بأن يفقدني شهيتي بقية اليوم.

لقد لاحظت أنه بمجرد رحيل الشيخ صار من السهل استهدافي كشريك في المحادثة، وهذا هو العَرَض الأول لغيابه. كان وجوده سابقاً حاجزاً يحول بينهم وبين الأريحية التي نمّوها تجاهي الآن، وافترضوا تقبّلي لها لمجرّد تقاربنا في السن. ولمَ يمكن ألّا يرغب أحد بمشاركتهم الحديث؟ هناك دائماً مباريات مثيرة أُجريت في الليلة الماضية، وإذا لم تتابعها، بإمكانك أن تتحدّث عن الأولمبياد القادم. ثم هناك السيارات، والجوّالات، والعقارات، وسوق الأسهم، ومختلف الجدالات الدينية والسياسية والاجتماعية التي يفيض بها تويتر. وإذا لم يكن في أي من هذا ما يثير اهتمامك، لا بد أنك تملك أفكاراً عن مهمات العمل، والتطوّرات في الأقسام، والانخفاض في الرواتب، والصراعات بين المديرين، وتنبؤاتك بمستقبل الشركة، وتطلّعاتك للارتقاء في سلم المناصب، فهذه مواضيع لا تتطلب من المرء أن يكون منجذباً انجذاباً خاصّاً إليها، بل هو ملزم بالاهتمام بها بديهياً. أما إن كنت ستصمت عن المشاركة في هذا أيضاً، فلا بد أنها فظاظة صريحة من قبلك، ولعلّ ثمة حولك ما يستدعي الريبة، ربما شيء من الجاسوسية أو الاستعداد للوشاية.

كان المتأنّق الجديد إلى جانبي بالذات ينظر إلى عدم تفاعلي معهم في تلك الأحاديث بقدر مفرط من الحذر. إنه يتحسّس لا مبالاتي تجاه شخصيته ومعرفته وأفكاره اللامعة، فيثير فيه هذا نوعاً من المقت المتبادل. خلال يومين من عودتي بدأ يدلي بتعليقات ظريفة حولي، بحذَق خبيث يجعل وقاحته تبدو متودّدة قدر الإمكان. فيقول مثلاً إن الصامتين هم دائماً من يخفون خلف سكوتهم أخبث السرائر، ويبقى ينظر نحوي متبسماً كمن ينتظر مني أن أدلي له باعتراف. ونظراً لافتقاري لسرعة البديهة والقدرة على ارتجال رد ملائم، كنت أواجهه دائماً بالسهو والتجاهل. ومن دون أن أقصد، فإن هذا كان ينجح في استفزازه أكثر وتعزيز ارتيابه ورغبته في الكشف عن خباياي، فإذا به يراقب أتفه إيماءاتي ويدلي تجاهها بالمزيد من التعليقات.

كان هذا هو العَرَض الثاني لغياب الشيخ؛ لقد شعرت بنفسي مكشوفاً من دونه بلا ظل. ها قد انتهى عهد السرّية والخصوصية، ولم تعد الكتابة ممكنة هنا إلا خلال أوقات قليلة يغادر فيها هذا المتحذلق إلى اجتماع أو خراء ما. وحين يعود للمكتب، وأسارع لإخفاء ما كنت أكتبه على شاشتي، فإنه يسألني إن كنت أكتب تقرير وشاية ما للإدارة، بنبرة توحي بأنه ضبطني متلبّساً. أما الآخران فيلتفتان لينهرانه ضاحكَين، من دون أن يخالفاه تماماً، ويأخذان يحدّقان نحوي بودّية تحاول أن تشركني في المزاح، بينما تختلط في أفواههم المشرّعة أصوات المضغ والحديث. لا ينتهي الأمر حتى يتمكّن مني الغثيان.

أحياناً، ألتفت إلى جانبي لأتأكد إن كان قد لاحظ الإنهاك البادي عليَّ، فأجده ينظر نحوي نظرات متكبّرة متحدّية، نظرات مفادها أن صحته استحقاق، وليس هبة من هبات الحياة؛ إنه صلبٌ معافى نتيجة

كل الخيارات التي اتخذها طيلة حياته والتي أثبتت حتى هذه اللحظة كونها ملائمة له.

ما زال المستشفى يحاول الاتصال بي هذه الأيام، ليطلعني على نتائج الفحوصات كما هو متوقَّع. لكن الحمى كانت قد زالت تماماً، ولم يتبق منها سوى هذا الشعور بالضعف وفقدان الشهية، وهو طبيعي جداً نتيجةً نومي المتناقص، وسوء تغذيتي، ونفسيّتي المتقلبة في هذه الأسابيع الأخيرة. كل ما أحتاجه هو فترة نقاهة وعناية لأستعيد ضبط جسدي. أما إذا وسوس المرء عند كل عارض فسينتهي به الحال وقد أمرض نفسه بتلك الفكرة وحدها. يكفي أن مواقع التواصل الاجتماعي هذه الأيام، والمجموعات الإلكترونية في مختلف تطبيقات الهاتف، تزخر بعدد هائل من الأمراض والعلل التي تضخّها يومياً لمشتركيها لتوعيتهم، ولا تقلّ نسبة المصابين بأحد هذه الأمراض عن 15 في المئة من سكان العالم؛ وهكذا لا يعدم المرء أن يجد نفسه مصاباً بشيء أو بآخر إذا فكر بالأمر إحصائياً. وأذكر مؤخراً أني وجدت في الأخبار تقريراً طبياً عن مرض اسمه متلازمة التعب المزمن، وهو أحد تلك الأمراض التي تشعر بأنك مصاب بها بمجرد أن تسمع بها لأول مرة. كانت الأعراض مألوفة بما يكفي: صداع، خمول، صعوبات في النوم، آلام في المفاصل والعضلات، وهو مرتبط عادة بضغوطات العمل. وقد أوصى التقرير بالتخلص من تلك الضغوطات بالمشي حول مبنى العمل، أو التحرك أمام نافذة مفتوحة. حلول شعرية لكن ليست عملية بما يكفي هنا؛ فالبرج قد صمم بحيث يصبح المشي حوله أشبه بمحاولة تجاوز سيارة قمامة في شارع ضيق، والنوافذ لا تفتح أبداً لأن أحداً ما قد ينتحر بسبب هذا التصميم. لا يوجد علاج نهائي عموماً،

يقول التقرير، عليك أن تتعايش مع حقيقة أنك متعب بشكل مزمن، لكن من الجيد أن تجد اسماً رنّاناً تحيل له هذا الخلل في نظامك.

من المهم أن يتبع المرء قاعدة عملية محفزة: لأن هذا لا يحدث لهم، فإنه لا يحدث لي. لأن الجميع لا ينامون بالقدر الكافي ومع هذا يعيشون يومهم، لأن الجميع يدخنون ويعيشون أعواماً طويلة، لأن الجميع يصابون بالصداع والإرهاق ويواصلون نشاطاتهم، فما أعاني منه ليس أكثر جدية. وحين أفقد الشهية فإني أفكر في ذاك الكاتب المعدم في رواية «الجوع»، أو الأطفال في أفريقيا وهم ينجون من المجاعات، أو السجناء وهم يسلخون سنيناً طويلة بطعام رديء ومع هذا يخرجون بصحة معقولة، وربما تمتد بهم الحياة حتى الشيخوخة، فكيف لا أبقى سليماً بالمقارنة إذا اكتفيت باليسير من الطعام؟

كما أني لطالما كنت ضليعاً في تشخيص نفسي، وتلك مهارة طورتها تدريجياً حتى صرت أعزف عن زيارة الأطباء. وأتصوّر أني كنت لأصبح طبيباً بارعاً لو قادتني الأقدار لتلك المهنة. أذكر في طفولتي حين كان بالغ ما يسألني: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ كنت دائماً أجيب: طبيباً. كنت أقولها فوراً ومن دون تفكير؛ ليس حماسة مني، بل لمجرد أني أدركت أن هذا الاختيار يقع في نفوس الكبار موقعاً حسناً، فيستنتجون أنك ولد مهذب مطيع ولا يندفعون في تحقيقات أو اختبارات إضافية لحسن سلوكك. أما في الواقع فلم تكن لدي أي ميول نحو هذه المهنة، بل على العكس كان لدي نفور مسبق من متطلباتها؛ من رائحة المستشفيات وغرز الإبر، وفكرة لمس أجساد الغرباء، المرضى منهم خصوصاً، وجس بطونهم ووضع السماعات على صدورهم العارية وإيلاج آلات قياس الحرارة في آباطهم وتحت ألسنتهم.

كان ثمة منفّر آخر من هذه المهنة، يتلخّص في أن المرء يجب أن يقضي سنوات دراسة أكثر من غيره ليصبح طبيباً. وأنا بقدر أي شخص آخر كنت أمقت الدراسة وأرغب بالتخلص منها بأسرع وقت ممكن، ولهذا السبب كنت طالباً متفوقاً. كنت أنظر بفضول وانبهار للطلاب البليدين الذين يعيدون العام الدراسي تلو الآخر بلا اكتراث أو تأنيب ضمير، ولعل بعضهم يعتريه شعور بالفخر والإنجاز لأنه سلخ في مرحلة دراسية ما أكثر من أي شخص آخر. كان لبعضهم لحى وأشناب تضاهي تلك التي يملكها مدرّسونا لفرط ما عمَّروا في المدرسة، وكانت بنياتهم الجسدية ضخمة مكتملة النمو بحيث يربكك مجرد وجودهم خلفك في آخر الفصل. كنت أجلس عادةً في الصف الثاني من الفصل؛ ولم يكن يمنعني من الصف الأول في المقدمة سوى ارتباكي المعتاد حين أجد نفسي في الواجهة. وكنت أملك لهؤلاء في الصف الأخير الكثير من الأسئلة، حتى إني كثيراً ما فكرت بأن أتجه نحوهم وسط شغبهم ولغطهم لمواجهتهم بها، وربما كنت لأفعلها لولا خشيتي من ميلهم الدائم للتنمّر والتندر من كل شيء، خصوصاً من أمثالي من المنضبطين؛ ولعل من شأن أحدهم أن يمسك بالعصا ويضربني ساخراً، أو يصفعني على قفاي ويرشقني بالطباشير كما يفعل أي مدرّس. ومع ذلك ظللت أتابعهم، بخوف وفضول وربما بانبهار، وفي ذهني كنت أدوّر تلك الأسئلة: كيف؟ لماذا يفعلونها؟ ألا يفهمون؟ سنة كاملة من عمر المرء تضيع في تكرار لا طائل منه، سنة طويلة يمكن محوها بقليل من الجدّ والمذاكرة؛ ألا تحبطهم سنة إضافية أخرى بين أسوار هذه المدرسة؟

كانت السنة بالنسبة لي رقماً كبيراً، عمراً كاملاً، كما هي بالنسبة لأي شخص في صباه. لذا حافظت على اجتهادي في مختلف المراحل

المدرسية، وتخرجت متشبثاً بذلك الهدف: البدء بالعمل والانصراف بعد ساعات الدوام لما يحلو لي فعله. كان البدء بالحياة الوظيفية يعني في ذهني التخلّص من الاختبارات والفروض والواجبات المدرسية ومختلف ضروب تعدّي المدرسين على أوقاتك الخاصة. أي عبء آخر لن يكون سيئاً بالمقارنة؛ فطالما كنت تضمن أنك ستُترك وشأنك لتفعل ما تريد بمجرد أن تعود إلى البيت، فإن كل شيء أثناء ساعات الدوام سيكون قابلاً للاحتمال. كان هذا وحده دافعاً مغرياً للاستمرار في التفوق الدراسي حتى الحصول على وظيفة آمنة مجزية. نعم، كانت فكرة الوظيفة تعني بالنسبة إليّ بدء الانطلاق في درب الحرّية، قبل أن أبدأ بالعمل فعليّاً.

الآن أدرك أن العمل يعني أن تُمضي النصف الأفضل من اليوم في سعي دؤوب لتضخيم جيوب ملّاك الشركة، وتعزيز فرص مديرك في الارتقاء في منصبه، والإذعان للأنظمة والقوانين الأغرب مما تجده في أتفه رواية دستوبيا. في نهاية النهار، تخرج من المكتب منهكاً منطفئاً خاملاً؛ مفتقراً للعزيمة ومستهلكاً الذهن والجسد. وإذا ما راودك شيء من السخط تجاه هذا الوضع، بعد يوم عمل طويل وشاق، يكفي أن ترى في طريق عودتك إلى البيت عمالاً محتشدين في حافلة، وكل منهم لا يملك الطاقة ليحمل رأسه فوق عنقه، وأعناقهم لا تزال محمرّة من لهيب الشمس التي لفحتهم طيلة النهار. تظل رؤوسهم تترنّح وسط الشبابيك المفتوحة للحافلة المنهَكة بدورها، والتي تتوزّع في الشوارع بأعداد كافية لتذكيرك أنك في حال أفضل ويجب أن تشكر الله.

هكذا تمضي أيامك في مسايرة نظام العمل أثناء ساعات الدوام، والسعي لإعادة التوازن لنظام نومك بعد عودتك إلى البيت؛ فإذا

بالأسابيع كلها متشابهة، وتركض ركض السحاب، وعينك معلّقة على الراتب آخر الشهر، والزيادات الطفيفة كل نصف عام، والأمل بالتغيير عند تبدل الرؤساء والأقسام. يمضي العام كالذي يليه والذي يليه والذي يليه، مجرّد مرحلة طويلة بنهاية مؤجلة، والوقت متأخر أكثر من اللازم لأن تعود وتبدأ من جديد. وإذا بك توجّه جهدك للخطط البعيدة، وتؤقلم صبرك تحت مختلف الذرائع، لعلك تفرغ من هذا يوماً وتفعل ما تشاء. يُفاجِئ المرء نفسه بقدرته على الصبر، بقدرته على أن يقضي سنيناً طويلة، بل عقوداً كاملة، في الوضع المؤقت نفسه، في الوضعية اللامريحة إياها؛ فقط ليكتشف، في نهاية الأمر، أنه لا يفرغ من هذا الوضع سوى ليقضي نحبه. وما سوى هذا بوسع المرء أن يفعل؟

الأسبوع 10:

حين وصلت المكتب هذا الصباح، وجدت رسالة من المستشفى تطلب حضوري، وفيها أنهم حجزوا لي موعداً قبل الظهر. هذا يعني طبعاً إمكانية أن أتغيّب عن العمل لبقية اليوم، فنظام المواعيد في المستشفى مرتبط بالنظام الإلكتروني للشركة؛ أي إن بوسعي الاستئذان من دون أن ينطوي هذا من جهتي على أي نوع من التسيّب. ومع هذا، أخذ الديك يحك لغده أمامي، كناية عن عدم رضاه، ملمّحاً إلى أن من سلوكيات الجندي المجهول تجاهل مواعيده الصحية متى تعارضت مع أوقات العمل؛ خصوصاً وقد غبت أسبوعين بسبب مرضي مطلع هذا الشهر. لم يملك في النهاية إلا أن يوافق، بعد أن ارتسم على وجهه تعبير متشكّك يوحي بأنه سيحيط بأمري، وأن حِيَلي مهما كانت لن تنطلي عليه.

كانت عادات الإدارة القاسية تجاه الاستئذان تتوافق مع عادتي في التأجيل حين أصاب باعتلال ما. خصوصاً أن بوليصة التأمين تقتضي أن أعالج فقط في المستشفى الذي حدّدته الشركة، والمكتظ

دائماً بكافة صنوف المرضى، بحيث يندر أن يوفَّق المرء في الحصول على موعد خلال أسبوع أو ربما شهر من مرضه. وفوق هذا، سمعت أن بعض الأطباء يرفض أن يمنحك عذراً طبياً حين تعاوده، ويكتفي بتسليمك ورقة إثبات بزيارتك له، وهي لا تعتبر بحد ذاتها إذناً رسمياً في نظر الإدارة. أما غرف الطوارئ فليست أشد رحمة، إذ يمتد الانتظار فيها لأوقات قد تطول بحيث تشعر بمرور الساعات أنك أشد اعتلالاً مما كنت قبلها؛ ومن يدري، فلعل ذلك مردّه إلى كونك تلتقط أمراضاً أخرى من بقية المنتظرين أثناء وجودك معهم في الغرفة.

في غرفة الانتظار، هذا الصباح، كان العديد من الأشخاص الهرمين، والمرهقين، والمكان يعبق برائحة العطن والزناخة، كأن من شأن الاستحمام أن يزيدهم مرضاً. كانوا يجلسون متلاصقين جنباً إلى جنب؛ أحدهم بقدم مكسورة، والبعض بثياب نومهم، والعديد منهم بكمّامة على الوجه. على الممر المكشوف من الغرفة كانت تنتصب لوحة كبيرة تنبّه لأعراض الكورونا، وتتوزّع بجانبها منشورات توعوية للوقاية وتجنّب العدوى. انتشار الفايروس أصبح محدوداً، إلا أن الخوف منه ما زال يحوم كنسر في المكان. بمجرد أن يسعل أحدهم تتّجه كافة الأنظار إليه؛ حتى الرجل ذا الساق المكسورة بدا أشد خشية من الفايروس مما على ساقه.

كنت أجلس بينهم، ببنطلون العمل النظيف والقميص الرسمي، وحذاء عتيق لكن غير تالف، ولعله ذو مظهر كلاسيكي. حين تضعه هكذا إلى جوار أحذية المرضى في هذه الغرفة لا يبدو سيئاً للغاية. نهضت ورحت أتمشى في الممر، كأنما أترك مقعدي لمريض يحتاجه حقاً. كنت في مزاج مرح نتيجة وجودي خارج المكتب في مثل هذه الساعة، وقد ذكّرني هذا بأيام الاختبارات التي يسمح لنا

فيها بالانصراف مبكراً من المدرسة. وقفت إلى جوار الباب المغلق للعنبر، ورحت أتطلّع في كل عابر يقبل أو يحاول الخروج، وبعد برهة أخذت أفتح الباب لكل من يحتاج عوناً، أكان رجلاً على مقعد متحرك، أم امرأة حاملاً، أم رجلاً يحمل طفله النائم بين ذراعيه. ثم رحت أتخيل نفسي بواباً يعمل هكذا منذ سنين طوال، وقد وجدتها مهمة سائغة تبعث على السرور، ورحت أتدرّب على الدور في سِرّي وأبتسم: «تفضل أيها السيد، تفضلي أيتها السيدة، بهدوء أيها الأطفال، لا تتراكضوا بسرعة، يا للأشقياء الصغار هاها، سيدتي، دعيني أحمل عنك هذه الأغراض، ما هذا؟ بخشيش؟! لا لا، لا يصح، الناس للناس وأنا فقط أقوم بواجبي! أوه حسناً، فقط من أجل إرضائك هاهاها، تفضلوا، تفضلوا جميعاً». نعم، ألا إنه خليق بي أن أكون بواباً عجوزاً جيداً!

كان بعض المنتظرين يحدّق بارتياب، ولعل أحدهم خمَّن من مظهري ومزاجي العابث أني أتواجد في المستشفى لمجرد التسلية. وحين نادتني الممرضة، رغم أنهم كانوا ينتظرون قبلي، شعرتُ بنظراتهم الحاسدة تتابعني، ولعلهم ظنوا أن أسبقيتي عليهم تمت بتجاوز متعمَّد من جهتي. حتى الممرضة نفسها لم يبدُ على وجهها السرور حين كنت أنا من أجاب.

تبعتها إلى غرفة جانبية صغيرة لتحدّث معلوماتي. أخذت وزني وطولي كما يجب أن تفعل، ومن جانب فمها أصدرت صوتاً يفيد أن تناسب الأرقام لم يعجبها. نفخت شريط قياس الضغط على ذراعي النحيل وهي تغمغم متنهدة بلغتها الأم، وأثناء هذا كانت ترفع نظرتها وتثبّتها على وجهي رغم قرب المسافة بيننا. سألتها من أي دولة هي، لألطّف الأجواء. ذكرت دولة من غرب أفريقيا، غانا أظن أو غينيا،

وراحت تتنهّد بعمق وهي ترمقني، كأني أذكّرها بمأساة تجري هناك. سألتها إن كانت تعرف شيئاً عن سبب الموعد، فقالت إنه متعلّق بفحص الدم الذي أجريته حين حضرتُ سابقاً إلى الطوارئ. وماذا كانت نتيجة الفحص؟ قالت إنها رأتها في ملفّي لكن ليس من حقّها إخباري بشيء. لكن ما أسوأ ما يمكن أن ينتج عن فحص الدم على كل حال؟ طلبت مني العودة للانتظار حتى تستدعيني مجدداً.

عدت إلى مقعدي وجلست أفكر. كانت فوبيا الكورونا هنا تعزز من شعوري أن حالتي، مهما كانت، لم تكن جادة بما يكفي بالمقارنة. لكن ماذا لو كنت أحتضن فايروساً آخر، فايروساً أشد فتكاً، فايروساً في الدم؟ لطالما كان ذاك هاجساً يراودني، ربما بتأثير من مواعظ الزنا التي سمعتها كثيراً في صغري. كنت أرتعب من تلك القصص المكررة عن شخص يذهب لفحص أو لتبرع دم عادي فيكتشف أنه مصاب بالإيدز. وأذكر جيداً ارتباكي حين تبرعت بالدم أثناء مرض والدي؛ كانت المرة الأولى والأخيرة التي فعلتها. أخذت أتتبّع حركات الممرضة الغرب أفريقية، وأتقصّى في نظراتها أي إشارة للارتياب، وأتخيّل أن الطبيب سيأتي في أي لحظة ويقول إن نتيجة الفحص جاءت موجبة، حتى إني تخيلت كل ردود أفعالي المحتملة: الإنكار أولاً، الضحك، ثم الغضب، أن أضرب الطاولة وأصرخ في الطبيب: «كيف تجرؤ؟!»، ثم أخبره أني لم أنكح امرأة في حياتي، ولا رجلاً، ولا قرداً أيضاً. لا بد أن ثمة خطأ، لم أفعل أشياء كثيرة بعد. ثم أعود إلى رشدي وأصطنع شيئاً من الهدوء وأسأله من دون انفعال: كم تبقّى لي؟ وحين يقول سنة أو سنتين، أنهار في بكاء مرير.

كنت أسلّي نفسي وأخوّفها بهذه البلاهات القديمة، منتظراً من الممرضة أن تستدعيني مجدداً، ثم خرج الطبيب بنفسه ونادى على

اسمي. من مكاني كان يمكنني أن ألمحه واقفاً، بجسده الكروي الممتلئ، أمام غرفته عند الممر، ماسكاً مقبض الباب المفتوح، وقدمه مثبتة أسفل الباب كي لا ينغلق. كان يقف ساكناً هادئاً، ومع هذا رحت أتخيّل أنه بمجرد أن ندخل ويفحصني سيأخذ يحرك يديه بعصبية ويصرخ: «لو أن كل رجل يتردّد على عيادة لأنه يشك بإصابته بالإيدز لامتلأت العيادات بهم وانشغلنا عن الحالات المهمة!». لو خيّرت لحظتها بين أن أكون مريضاً أو سليماً لربما اخترت المرض، فقط لأتجنب حرج المثول أمامه من دون سبب مهم.

في طريقي إليه، استدعى عامل الشاي. ثم سألني فيما نقف عند الباب إذا كنت أرغب بواحد. هززت رأسي موافقاً، فطلب اثنين. دخلنا الغرفة وخرجت الممرضة. ظلّت واقفة عند الممر، ونظرتها المأساوية تتابعني بترقّب، فيما أخذ الباب ينغلق من نفسه.

التفّ الطبيب حول طاولته وجلس على كرسيه ذي الظهر المنخفض، والذي راحت عجلاته تدور وتصرّ تحت ثقله. أشار إليَّ بالجلوس وهو يدفع بكرسيه نحو جهته من الطاولة، حتى صارت حافتها تضغط على بطنه الممتلئ. شعرت بأنه بالمزيد من الضغط على تلك الحافة يمكن لجسده أن ينفجر كبالون. كانت يداه مكتنزتين، وكان يجمعهما أمامه شابكاً أصابعهما بوقار فوق سطح مكتبه. في الجهة الأخرى كان ثمة مقعدان متقابلان، جلست على أحدهما، وظل الآخر فارغاً، ورحت أجمع قدميَّ إلى جهتي كأن شخصاً لا مرئياً يشغل المقعد المقابل. سألني كيف الحال؟ فرفعت كتفيّ من دون أن أجيب. وبمجرد أن بدأ بالحديث، شردتُ بذهني مباشرة، وقد منحني انشغاله بالتمهيد فرصة للاسترخاء وطرد توجّساتي القديمة ورغبتي في الهرب.

حين دخل في صلب الموضوع، حاولت أن أتلبّس ملامح جادة، لعلي أصغي باهتمام لما يقول. هززت رأسي لعبارات متفرقة من حديثه من دون أن أتمكن من الربط بينها جيداً: النتائج كما توقّعها، نسبة الدم أقل بكثير من المستوى الطبيعي، نحتاج فحوصات إضافية للتأكد، خزعة من نخاع العظم، في العادة تكون مؤلمة، لكن هناك مستشفى في العاصمة، يعرف بنفسه طبيباً هناك، سيحجز لي موعداً بعد أسبوع، حتى ذلك الحين لا بد من عمليات نقل دم منتظمة، 3 أكياس على الأقل.

ظل يتحدّث من دون انقطاع، محللاً وشارحاً، متفادياً منحي فرصة للإتيان برد فعل. وأثناء هذا، كانت يداه تتحركان باستمرار، متواكبتين مع الطابع العملي لحديثه، وقد اعتراهما شيء من التوتر الناتج عن رغبته في ألّا يفزعني رغم اضطراره أن ينقل لي ما في الأمر من أهمية. لم يكن ثمة أثر للتصنّع في حركاته، أو الشعور بأنها محسوبة نظراً لمواجهته عدداً لا يُحصى من المرضى من قبل. وقد بعث هذا في داخلي نوعاً من الفضول والحيرة. سيكون من المألوف أكثر لو بدا ساهماً ضجِراً، لفرط اعتياده على مثل هذه المواقف.

دخل عامل الشاي بعد أن طرق الباب. وضع الكوبين الورقيين على الطاولة، ثم خرج من دون أن نشكره. بضع لحظات صامتة مرّت، فيما راح ينغلق الباب على مهله. أخبرني بعدها أن عليَّ التفكير بجدية في العلاج الكيميائي، بنفس النبرة التي يمكن أن يخبرني بها أحدهم أنه حان الوقت لشراء حذاء جديد.

كنت هادئاً، والطبيب هادئ، والغرفة هادئة، ودرجة الحرارة فيها مناسبة، وكان ثمة بخار يتصاعد من أكواب الشاي الورقية أمامنا.

حملت الكوب إلى حجري وأطرقت إليه بسكون. عبر الشق السفلي للباب، كانت تصلني من الممر أصوات خافتة؛ نداءات لمرضى، وممرضات يتحركن بخفة في أزواج أحذية بيض، تلتصق خطواتها في البلاط. ومن منطقة أبعد قليلاً، أخذ يتردَّد بكاء صاخب لرضيع، حُقن بإبرة على الأرجح. حين عاد الطبيب يتحدث، كنت لا أزال ممسكاً بالكوب وقد ازداد سخونة بين يديّ. استغرقت في التمعن في الشاي باهتمام، كما لو كان صوت الطبيب يصدر من هناك.

أكمل قائلاً إن الخزعة ستؤكد الإصابة بالمرض، ونوعه الفرعي، والمرحلة التي وصل إليها، لذا يجب إجراؤها في أقرب فرصة. وحين سكتْ، انتبهتُ أن الوقت صار ملائماً لأن آتي برد فعل. بحثت عن شيء لائق أقوله. تناولت رشفة من الكوب لأكسب المزيد من الوقت، وأعدته إلى حجري بحذر. كل ما استطعت التفكير به هو أن الشاي يحتاج ملعقة إضافية من السكر. أخيراً، أخبرته أني سأجري الفحوصات في العاصمة وأعدت الكوب إلى الطاولة، كأن هذا فيه حل المشكلة. هز رأسه مؤيداً وأخبرني أنه سيبقى على اتصال. دخلت الممرضة فوراً، وكأنها أدركت من نبرة صوته فقط أن موعدي انتهى.

حين خرجتُ، كان بقية المرضى لا يزالون ينتظرون في مقاعدهم. ومن خلفي خرجتْ الممرضة نفسها بملف آخر وراحت تنادي اسم أحدهم. تذكرتُ أني تركت كوب الشاي في مكانه على الطاولة، لكن كان ليبدو سخيفاً، بعد ما تلقيت من نبأ، أن أعود لأحمل الكوب معتذراً وأخرج مرة أخرى. مع هذا، لم أشعر في داخلي بما يناقض هذه التصرفات، حتى إني أمسكت الباب لشخصين أثناء خروجي من العنبر. في جزء مني كنت أشعر بنفسي معافىً لأني لست مصاباً بالإيدز.

عدت إلى البيت وقضيت يومي بكل اعتيادية. قرأت، تصفحت الأخبار، شاهدت فيلماً وثائقياً على التلفاز، واشتريت المزيد من الكتب عبر متجر إلكتروني، كمن يثق أنه سيقرأ كل ما لم يتسنَ له قراءته بعد. ربما كان يجب أن أقضي هذه الأيام في وضع خطة احترازية ما، ومراجعة أفكاري، وتحديد أولوياتي وكيفية تصرفي في حال تَأكّد ما يُخشى وقوعه. أقول «ما يُخشى» كأني لست أنا من يخشاه؛ لم أحدد بعد. المزيد من التأجيل، المزيد من الإهمال، المزيد من اللامبالاة التي يوفّرها الشكّ طالما ما زالت ممكنة.

الفصل الثاني

الأسبوع 11:

أخبرت أهلي أنني ذاهبٌ في رحلة عمل، أخذت قسطاً من إجازتي السنوية الطويلة، وحجزت مقعداً في القطار. كان الطبيب قد نصحني ألا أقود بنفسي إذا كنت ذاهباً لوحدي. لا أحد يعرف في أي حال تعود إذا تأكّد الخبر، قال. لم أكن مقتنعاً بأي مما قاله، لكنه مجرد إجراء احترازي على كل حال. من الأفضل إقصاء التوجّسات عاجلاً، وقبل أن تتضخّم، لأعاود حياتي المعتادة في أسرع مدة ممكنة. في يوم الرحلة، توجّهت إلى المحطة باكراً، ربما أبكر من اللازم، كأي شخص يستقل شيئاً للمرة الأولى. جلست قرب النافذة، أخرجت رواية «الجبل السحري»، وشرعت في القراءة.

كان الهدوء سائداً داخل المقصورة، ثم دخلوا بخفة ملفتة، كمن يستقل القطار مرة كل أسبوع. يمكن تخمين هذا من عفويتهم في التعامل مع أماكن التخزين، والطريقة التي جلسوا بها مباشرة، كلٌ في مقعده، في ترتيب بدا أنهم تدربوا عليه مرات عدّة. كان ثمة خمسة مقاعد مخصصة لهم، وكنت في السادس. المراهق جلس بجانبي،

والفتاة الأكبر منه ببضع سنين كانت في مواجهتي، وإلى جانبها الخادمة؛ نتشارك أربعتنا طاولة كبيرة. وفي الجانب الآخر من الممر تجلس الطفلة، وأمامها المرأة المنقّبة موازية لي، وبينهما طاولة أصغر.

كنت أتابعهم منتظراً إشارة ما تجاهي، أو لفتة توحي بأن وجودي يعكّر صفواً ما في أريحيتهم. الابنة المواجهة لي راحت تمسح النافذة، قبل أن تستقر في موضعها، مؤكدة أن هذا هو سبب اختيارها للمقعد. وما إن جلست حتى أخذت تتطلّع إلى الخارج ببهجة، رغم أننا لم نكن قد غادرنا المحطة بعد. ثم سرعان ما راحت تنادي أمها برزانة، وتحدّث الخادمة بحنان، وتلاعب أختها الصغيرة بأصوات طفولية مدلّلة، ثم تضحك بخفّة وتغطّي فمها، وتلقي تعابير وجه جديدة، وحركات يد إضافية من الواضح أنها لم تكن جزءاً منها قبل أن تصعد القطار. أما أخوها فكانت تكشّر في وجهه، وتسدي له نصائح تهذيبية، توحي بأنها ضليعة في الإيتيكيت، كأن تخبره ألا يزعج الآخرين بصوت هاتفه المرتفع. وهو كان يرد عليها بالسخرية وأكل الخراء من دون أن يرفع رأسه، وفوق الأشعة المشعة للهاتف يلتمع شاربه الآخذ بالنمو. وكانت تجيبه بأنه قليل أدب وتروح تشكوه إلى الأم. أما هذه الأخيرة، فكانت منشغلة عن كل هذا، وقد ظلّت تتحدث على الهاتف طوال فترة دخولها، كأنها تدخل طائرة يُمنع فيها استخدام الشبكة بعد الإقلاع. وكان صوتها من خلف النقاب يوحي بأنه مجرد نبرة انتقالية، انفعال موقت سيعود بعدها إلى حالته الأصلية، لكنها ظلت طوال المكالمة تتحدّث بنبرتها تلك من دون أن ينتقل صوتها لمرحلة أخرى. وقياساً على علامات الالتزام الديني في مظهرها، خمَّنتُ أنها، بمجرد انتهائها من المكالمة، كانت ستستدعي ابنتها الكبرى من أمامي لتبدّل مكانها، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. فهي ما إن أنهت المكالمة

حتى أمسكت هاتفها وأخذت تكتب بحماسة، وعيناها تبتسمان لما تكتبه بشكل لا يليق بسنها، فيما راحت الطفلة أمامها تناديها أيضاً مطالبة إياها بالهاتف لكي تلعب به، وهي تصيح وتركل. الخادمة وحدها كانت الأكثر سكوناً بينهم، على الرغم من توتّرها الملحوظ، والذي يوحي بأنها ليست جزءاً قديماً من العائلة. كانت توجّه نظرتها المتوتّرة نحوي بين حين وحين، ولعلها الوحيدة التي ميّزت أني كنت عنصراً دخيلاً في ذاك التجمّع. أما البقية فلم يبدر منهم أي تحفظ لأن يشاركهم رجل غريب صفّهم ذاك، بل بدوا بطريقة ما مبتهجين لكسرهم عادة التحفظ تلك. استنتجت أنهم يسمحون لأنفسهم بحريةٍ إضافية في ظل غياب الأب، بل يمكن القول إن الخفّة التي دخلوا بها كانت تستمدّ حيويتها من ذاك الغياب بالتحديد.

كان آخر من دخل المقصورة رجل أجنبي عجوز، يتضح من جلبابه أنه من جنسية أفريقية، وكان عليلاً بشكل لا تخطئه العين، وكانت زوجته ترافقه وتمسك بذراعه، ويتضح من ألوان إيشاربها أنها أفريقية أيضاً، وكانت عجوزاً مثله لكنها أكثر نشاطاً منه، ولعلها تكتسب قوتها من حاجته لخدمتها، أو حاجتها لأن تخدمه. وكان متاعهما عجوزاً أيضاً، حتى إن الحقائب بدت كأنها تدب محنية الظهر بدلاً من أن تمشي على عجل. وقد جلسوا في الصف التالي، إلى الجهة اليسرى، حيث يمكن أن أراهما؛ هو مستقبِلاً جهتي وهي في المقعد المقابل. كانت الطفلة في صفنا تلتفت وتبتسم له، لكن من دون أن يتغيّر أي شيء في تعبيره المنهك؛ لم يكن حتى في حال تسمح بأن تراوده فكرة الابتسام.

ما إن انطلق القطار، حتى كان الجميع في صفي قد استرخوا تماماً، ما عدا الخادمة التي زادت نظرتها توتراً؛ وكأنه بمجرد انطلاق

القطار تضاءَل أملها بالعودة إلى بلادها. أما الأم فأعطت هاتفها لابنتها الصغرى ثم أخرجت علبة تحوي بعض الساندويتشات، لم تكن تنوي توزيعها على أبنائها بعد، فقط لتؤكد لمضيفي القطار أن أحداً لن يأكل من طعامهم الرديء. سرعان ما لاحظتُ فضول الابنة الكبرى المواجهة نحوي، حيث كانت ترمق الكتاب بين يديّ بنظرة جانبية، وحين ضبطتُ نظرتها راحت تلتفت بسرعة وتتطلّع من النافذة، ثم أخذت تهذّب أخاها، محاولةً استعادة رزانتها، قبل أن تعود لتلتفت نحوي في خجل. كانت أصغر من أن أرتبك لحضورها، وأكبر من أن أستلطف محاولتها لخلق تقاطع ما. رفعتُ الكتاب حاجزاً بين أعيننا وعدت مجدداً للقراءة.

لم أدرك كم مضى من الوقت حتى شعرت بالإعياء؛ لم يكن واضحاً إن كان هذا ناتجاً عن الاستغراق في الكتاب، أو من حركة القطار، أو من الهواء المخنوق الذي لم يتغيّر في الداخل، لكنه كان يؤثّر في مكان ما عميق في جوفي. على الشاشة المشتركة للمقصورة كان يُعرض فيلم وثائقي عن أسماك القرش. صوّبت بصري نحو الشاشة، محاولاً الاستغراق في الزرقة العميقة للبحر؛ وفجأة أخذت ضربات قلبي في التسارع. شعرت بأني حالما أنهض، أو أفتح فمي للنطق فإن شيئاً ما كارثياً سيحدث. فتحت الكتاب لأقرأ مجدّداً، لكني شعرت بالغثيان يزداد حدّة حالما وضعت عيني على السطر. أغمضت عينيَّ محاولاً السيطرة على جوفي في مكانه، ثم أخذت الأم بتوزيع الساندويتشات. كدت أتوسّلها ألّا تفعل هذا الآن، لكنني خرست. تناولوها في حبور. الخادمة وحدها كانت تتطلّع نحو الساندويتش بغرابة، فتلتفت الابنة نحوها وتشجعها أن تأكل، وتخبرها عن محتويات الساندويتش، والخادمة لا تعرف ما يكفي من اللغة لتفهم، فتأخذ البنت تضحك

خجلاً من عدم فهم الخادمة، وتغطي فمها، ثم تلتفت نحو أخيها وتأمره بغلظة أن يمسح بقايا الأكل من على جانب فمه، ثم تختلس نظرة نحوي. مددت نظرتي نحو العجوز الأفريقي في الصف التالي، وقد سكب القهوة على صدره، وزوجته تمسح صدره بمنديل مجعّد؛ كما لو تفرك قلبه. بدا أنه يخبرها أن تتوقّف، لكن لم يبدُ أنها تسمعه. وأشعرني كل هذا بضيق شديد، كأن قلبه يؤلمني، أو أن قلبي هو ما يُدعَك.

كنت أزفر بأنفاس مسموعة، محاولاً طرد هذا الألم الغريب من صدري، مستجمعاً قواي الذهنية في فكرة أن أعود إلى حالتي الطبيعية. وفجأة شق القطار طريقه خلال جبل، وامتلأت النافذة بكاملها بطبقاته الصخرية الحادّة، وارتفع صوت الهواء المضغوط بين الجبل والقطار كصرخة طويلة.

نهضت مسرعاً وبحثت عن الحمّام. كانت قدماي ترتعشان وشعرت بأني على وشك الإغماء في كل خطوة. حالما أغلقت مزلاج الباب حاولت الاستفراغ، لكني كنت اكثر اختناقاً من أن أفعل. غسلت وجهي أمام المرآة، ومكثت أحدّق في تعبيري المبلّل. كنت أشعر بكل حركة حولي. الإضاءة الصفراء للمرآة كانت تبعث طنيناً مغثياً، فوق الطنين المخنوق لعجلات القطار. رجوت من القطار أن يتوقّف لأي سبب إعجازي، أو يخفّف سرعته، كأن هذا سيقنع خفقان قلبي بالهدوء. لم يتغيّر شيء، وبدأ أحدهم بطرق الباب. بمجرّد أن خرجت، أدركت أن تلك غلطة فادحة. لا تزال أمامي ساعتان متبقيتان على الوصول. يجب أن أجلس طوال هذه المدة، شجّعت نفسي، كأن تجاوزي لهذا الهيجان يترتب على أن أواصل الجلوس.

عدت إلى المقصورة، وكان المكان على درجة من الفوضى، مكتظاً ورطباً وفاسداً برائحة الطعام والأنفاس والأجساد المتعرقة لطول الجلوس. رفعوا رؤوسهم مجدّداً، متفاجئين برغبتي في أن أجلس بينهم، كأنهم نسوا أن أحداً كان يجلس هناك منذ البداية. كان بيني وبين مقعدي جسد المراهق الغريب الآخذ بالتحول والنمو عبر الدقائق، والذي يغزو شيئاً فشيئاً مساحات أكبر من الحياة. تخطّيته من دون أن أنتظره ليفسح لي؛ والأخت تطلّعت نحوي مذهولة، بنظرة تستنكر هذه الفظاظة. وما إن جلست حتى عاد نبضي للتسارع، أو الخفقان بقوة أكبر، لا أعرف. وعدت أمسك بالكتاب، أفتحه وأغلقه، ومن جسدي ينضح عرق بارد. والأم كانت تكتب في هاتفها، بعجلة وعصبية، والطفلة تبكي أمامها، وهي تكتب وتكتب، وتلك تبكي، وتركل، وتصرخ، والمراهق يرفع الصوت في هاتفه ويخفضه، والخادمة تحدّق بقلق، وهي متّجهة لشيء لا تفهمه، والبنت تكلّمها وتضحك، وتلاطفها وتقول إنها مسكينة وتضحك، والخادمة لا تفهم، لكنها تشعر بأنها مسكينة، والعجوز تمدّ حبة نحو زوجها، ويدها ترتجف، ويده ترتجف، والحبة ترتجف، وهو يلتقم الحبة كأنها ليست دواء، كأن البقعة الصفراء في صدره تؤلمه، ولم يعد ثمة دواء؛ وحدّق نحو زوجته ليقول شيئاً، وأدرك أنها لن تسمعه، فأغمض عينيه بإنهاك.

واصلتُ الجلوس مغمض العينين، ثم محاولاً التحديق في نقطة ما، ثم مغمض العينين مجدداً، ثم حدّقت من النافذة. الجو في الخارج كان مغبراً، وكأنه عكر بشيء أتوجّسه. وهناك، وسط الصحراء المغبرّة القاحلة، سارت مجموعة من الجمال، بتؤدة وتثاقل، على نحو لا إصرار فيه. أسندت رأسي إلى النافذة وزفرت بعمق، حتى رطبتْ

أنفاسي الزجاج. ولوهلة فكّرت كم هو مريع، كم هو مريع، كم هو مريع أنه على المرء أن يوجد.

لم أعرف إن كنت قد غفوت أم غبت في إغماءة قصيرة. حين أُعلن الوصول كان جوفي قد استقر، لكن جسدي كان خاملاً، وكان تيارٌ من هواءٍ حارّ يدور في المكان. رصيف الإسمنت الممتد إلى جانب القطار كان يبعث على السكون. تعمّدت التأخر في النزول. وحدهما العجوز وزوجه كانا يتخلّفان في المقصورة. كانت تنهضه ممسكة بذراعه، وعلى وجهها تعبير صابر متماسك. وهو أبدى امتعاضه من أسلوبها في إنهاضه، كأنها سبب هرمه، وعلى وجهه ذات التعبير الذي يستمد صبره من تعبيرها هي. معاً هبطا من المقصورة، وخلفهما مضيف القطار يساعدهما في إنزال الحقائب. الحقائب بدورها بدت كما لو تحاول التماسك، لكن بجهد كبير، بحيث يمكن في أي لحظة أن تتفكّك وتتبعثر محتوياتها. أصلحت العجوز إيشاربها الخفيف على رأسها وكتفيها، ثم سألت المضيف إن كان يمكن له أن يدبّر لهما سائق أجرة. أشار إليها أن تدخل المحطة وتسأل. تعبير ضائع ارتسم على وجهها، كما لو كانت في حضرة عصرٍ لا تفهمه؛ وسرعان ما ظهر على وجه زوجها التعبير ذاته. أمسكت بذراعه ومضيا معاً نحو البوابة، بتعبيرين توأمين، لم يكن واضحاً أي منهما يمنحه للآخر. أما الحقيبتان فأخذتا تدبّان خلفهما؛ ابنان حائران يلحقان بأبويهما في صمت.

سبقتهما وتقدمت إلى بوابة المحطة. جسدي استعاد هدوءه، إنما في داخلي ظلّت تتآكلني رغبة في العودة من حيث جئت. ورغم أني رحت أتقدّم إلى الأمام، إلا أن هذا كان ناتجاً عن ضعف وتوق للفراغ من كل هذا أكثر من كونه ناتجاً عن شجاعة. أمام البوابة، كان ثمة رجل ينتظر، مغلقاً المدخل بجسده العريض، وعلى وجهه تعبير

صارم، وشارب كثيف يشبه ملامح السنين القادمة للمراهق. لمجرد مرآه تدرك أنك صرت في العاصمة. كانت حواسي مشوّشة لكني لم أملك إزاء ذلك شك؛ هذا الرجل هو العاصمة. وكانت العائلة تتوجّه نحوه بتثاقل، كتلة واحدة منهكة، كأن أحداً منهم لم يستمتع بالرحلة.

***

التزمت غرفتي في الفندق لأتجنّب أي مضاعفات للخزعة، إذ يفترض أن تصدر النتائج نهاية الأسبوع. لم أشعر برغبة في الخروج على كل حال. كنت قد اخترت رواية توماس مان التي تمتد لألف صفحة ظاناً أني سأنشغل بالقراءة طوال أيام الانتظار، وها أنا لا أكاد أتجاوز ثلثها. التهيت بكمبيوتري المحمول؛ كتبت كل ما أذكره عن الرحلة، عالجت ما كتبت مرة تلو الأخرى من دون أن ألمس حقيقة ما شعرت به هناك. بطريقتي المعتادة في تشخيص نفسي، أخذت أبحث في الانترنت. اكتشفت أن تلك الأعراض التي باغتتني في المقصورة متوافقة مع نوبة الهلع.

غيّرت موضوع البحث إلى سبب تواجدي هنا. قارنت بين ما رجّحه الطبيب وبين ما يقال في المواقع الطبية وصفحات الاستشارات. ما إن كان سؤال يعيد لي الأمل، حتى يجعل الآخر أملي تافهاً. كانت ثمة علل أخرى تتشابه في مظاهرها، وكنت لا شعورياً أتحيّز لها، حتى لو كانت أشد ندرة مما يُشتبه به. بل كنت مستعداً لأن أتبنى أعراضاً إضافية، مهما كانت مزعجة، طالما كان هذا يبقي على حيوية الشك؛ أي شيء آخر غير هذا الكابوس. لكني كلما قرأت أكثر كلما أسقط في يدي، ووددت لو أن يداً حانية تمتدّ لتغيّر قائمة الأعراض التي أخذت تتكرّر أمامي، مستبعدة أكثر وأكثر كل احتمال آخر. شعرت فوراً بالندم

لأني أقدمت على البحث بنفسي، عوضاً عن انتظار النتائج. حتى إني تمنيت لو أصاب بطريقة ما بفقدان للذاكرة، فأنسى سبب وجودي هنا وأعود وأكمل حياتي من حيث توقّفت.

لطالما لاحظت بعضاً من تلك الأعراض في جسدي، خلال الشهور الأخيرة، من دون أن أتوصّل من مجموعها إلى أي استنتاج. لقد كان جسدي دائماً كثير الشكوى، شديد الحساسية إزاء أي اختلال؛ ولو كان قد أخبرني أني مصاب بشيء خطير، لضاع تنبيهه هذا وسط شكاواه العديدة. لم يكن ثمة طريقة للتخمين؛ إلا إذا أخذ المرء بجدية كل احتمال نادر أو خطر مستبعد، وربما انتهى عندها إلى الوسوسة والجنون.

لكن أكثر ما يمنعك من إدراك الأمر منذ بدايته هو تنصّله من كل مظهر واضح صريح، خصوصاً هذا النوع السائل الذي يتكاثر خفيةً داخل الدم. أليست هذه هي طبيعة الأشياء التي تقود المرء إلى حتفه؟ كلما كان الألم أشد خفاءً في بدايته، كلما كان من المرجَّح أن يكون أحد تلك الأشياء التي تنمو لتفتك بك. كم من الأشياء عليك الا-حتراز منها بناء على هذه القاعدة؟ كلا، لا يمكن أن يحدث هذا الشيء لي، بكل هامشيتي ونزعتي للتواري عن الأنظار، سيكون ذلك مفارقة ساخرة أكثر من اللازم لو حدث.

جلست في الغرفة متخبّطاً بين هذه الهواجس والأفكار؛ أتقلّب باطراد بين أقصى درجات اليأس وأقصى درجات البهجة. كنت في لحظة أفكر بجد إن كانت هذه هي النهاية، فيأخذ قلبي بالركض، وأقطع الغرفة طولاً وعرضاً، وأدخل الحمام وأكاد أتقيأ من فرط الهلع. وحين أعود إلى سرير أستعيد قصص كل المرضى الذين شخصوا

بعلل خطيرة وحين استشاروا مستشفى آخر تبيّن أن الأمر أبسط بكثير. وعندها تذكّرت كل توجّساتي القديمة التي اتضح لاحقاً أنها مسائل تافهة، وجلست غارقاً في الضحك من مبالغتي في الانفعال. ثم فجأة، أخذت قطرة دم سريعة تنحدر من أنفي، وتستدير حول شاربَيَّ، ثم تسقط للأسفل.

تحسّست البلل بأصابع مرتعشة؛ وحين وقعت عيني على الحمرة القانية، ارتعش جسدي بأكمله. كانت حالة الفزع القصيرة تلك هي اللحظة الحاسمة، اللحظة التي لا عودة بعدها إلى الأمان. لم يعد مجرد رعاف، أدركت؛ لم يعد مجرد هاجس عابر يمكن طرده من ذهني لمجرّد غموض مصدره. كنت مشوَّشاً جزعاً، لكن لم يعد فيّ طاقة للشك بعد الآن. كل غثيان، كل نزيف، كل صداع، كل كدمة جديدة، كلّ عَرَض بسيط، مهما كان، سيكتسب منذ الآن طابعاً أشد تهديداً في ضوء المعطيات الأخيرة، وسيرتبط مباشرة بأصله الخبيث. لم تعد مسألة اشتباه ذهني فقط، بل معرفة قلبية مثبتة بأن هذا حقاً هو ما يقع.

الأمر مثل خلية من البق تنمو تحتك في السرير؛ لا تفصلك عنها سوى طبقة واحدة، وأنت تنام كل ليلة فوقها من دون أن تدرك هذا القرف الشره الذي يتضاجع تحتك. ربما ترى آثار قرصات بسيطة على جسدك ولا تلقي بالاً، لأنه ليس ثمة ألم بعد؛ ربما بعض التعب، ليس شيئاً لا يمكن احتماله. ثم تتكاثر النقاط الحمر على جلدك وتصبح مثيرة للشكوك والريبة. ويوماً ما تقرّر أن ترفع المرتبة، احتياطاً فقط، ولحظتها يبدأ الوجع؛ لحظة رؤيتك لتلك الخلية السوداء البشعة الهائلة وهي تترجرج بآلاف الحشرات، وبيوضها التي أخذت تفقس مئات المرات فقط أثناء تحديقك فيها. يبدأ الألم لحظة اكتشافك أن

هذه الكائنات الدقيقة الشرهة كانت تتغذى عليك وتنمو مرتوية من دمك، وأنها أسست داخلك ما لا يمكن لك بعد الآن مكافحته، لأنك حتى لو عالجته ستبقى تشعر بالضعف؛ لأنك ستبقى موضعاً محتملاً للغزو وإعادة الغزو؛ لأنك حتى لو نجوت لأبعد نقطة ممكنة، لن تتمكّن من رتق الفزع الذي انشق في داخلك لحظة الاكتشاف.

الأسبوع 12:

فور أن استلمت النتائج وضعتها في حقيبتي وتوجهت إلى المطار. رغم أن الطقس ما زال مضطرباً نتيجة الانتقال بين الفصول، إلا أني لم أكن مستعداً لتكرار تجربة القطار. لقد قررت أن أعزل نفسي عن كل ما يعيد إليها تلك الهشاشة التي شعرت بها في الأيام الماضية. تزوّدت للرحلة بشرب السوائل طيلة اليوم، لينشط جريان الدم في أوردتي وأعوّض ما خسرته منه. وحالما أقلعت الطائرة، شعرت بحاجة ملحّة للتبوّل.

ما إن نهضت من مقعدي حتى أسرعت المضيفة نحوي وهي تردد أن عليَّ الانتظار حتى اكتمال الإقلاع. كان صوتها مرتفعاً بطريقة تحاول أن تنبه بها الجميع لعدم تكرار فعلتي. جلست مقتنعاً بأن الأمر لن يستمر طويلاً. وحالما تردد صوت كابتن الطائرة معلناً اكتمال الإقلاع، نهضت فوراً من دون أن أصغي للمتبقي من الإعلان، فإذا بالمضيفة تسرع مجدداً نحوي وهي تردد أن إشارة أحزمة المقاعد ما زالت مضاءة بسبب الطقس السيئ والمنخفضات الجوّية، وعلى

الجميع التزام مقاعدهم حتى إعلان آخر. تلفّت بقية الركاب نحوي، فأدركتُ أن امتلاء مثانتي أصبح منذ الآن هَمّاً جماعياً سيشغل الجميع.

كنت أجلس في المقعد الأوسط بين رجلين، الرجل الى يساري بجانب النافذة كان ذو تعبير ساخر، يوحي باستعداده للتندر في سرّه من أي شيء يعترض طريقه. بين حين وحين، كان ينطلق فجأة بالضحك على مسمع الجميع وهو يحدّق في شاشة الترفيه. ورغم أنه بدا مستغرقاً في عرض الستاند آب الكوميدي الذي يشاهده، إلا أنه كان يلتفت في كل مرة أقوم فيها من المقعد، كما لو أنه يحسب مرات احتياجي للحمام. أما الرجل إلى يساري بجانب الممر فكان يفتح حزامه في كل مرة أنهض فيها، متهيئاً لأن يغادر مقعده ليسمح لي بالمرور. كان بديناً إلى حد يفيض على المقعد قليلاً، مما يجعل عملية فتح الحزام والنهوض ثم العودة للجلوس تكلّفه مشقّة أكبر مما يستدعيه الأمر، ومع هذا كان على فمه في كل مرة ابتسامة مصطنعة توحي بتعاونه وتفهّمه لهكذا حاجات.

تردَّد في المذياع إعلانٌ يفيد بتخطي المنخفضات الجوية، لكني لم أستعجل القيام. هكذا أتظاهر بإمكانية استغنائي عن إفراغ مثانتي الآن، ولعل هذا يوحي للآخرين بأني نسيت الأمر، وبأني لم أكن بتلك الحاجة الطارئة للتبوّل منذ البداية. أتساءل متى تنتهي هذه الرقابة التي أمارسها على ذاتي عبر أعين الآخرين؛ لماذا دائماً هذا الخزي الذي لا ينقطع؟

مرت دقائق ثم نهضت من مكاني كمن ينهض للمرة الأولى منذ بدء الرحلة. كنت واثقاً أنه ليس ثمة ما سيمنعني هذه المرة، فإشارة أحزمة المقاعد مطفأة والطيارة تنطلق بسلاسة. توجّهت عبر الممر من

مقعدي إلى الحمام في المؤخرة، لكني حين وصلت كانت الإشارة على باب الحمام تفيد بأنه مشغول. والأسوأ من هذا، ظهر فجأة رجل من المساحة الضيقة بين الحمام وحجرة التخزين، ليفيد أنه كان ينتظر قبلي. متجنّباً نظرات الآخرين، عدت باتجاه مقعدي، وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة توحي بالحظ السيئ، وأخذت أرفع كتفي بطريقة هازئة من نفسي، لأجعل موقفي يظهر مَرِحاً وعفوياً قدر الإمكان لكل من يتابع الأمر.

وقبل أن أصل، وجدت أن المضيفة قد بدأت بالعبور بعربة الطعام التي تشغل الممر. وكانت قد تجاوزت مقعدي وأخذت توزّع الطعام للصفوف التي تليه، بحيث لا يمكنني العودة من دون تجاوزها. كانت تمنحني ظهرها وكان المضيف الذي يقف على الجهة الأخرى من العربة مشغولاً بسؤال المسافرين الذين استلموا وجبة طعامهم عن اختيارهم من القهوة أو المرطبات، ولم يبدُ أني لفتّ انتباه أحد منهما. فتحت فمي لأقول لو سمحت، وأعتقد بأني رفعت صوتي لا إرادياً بدرجة أعلى مما يستدعيه الموقف، محاولاً أن أجعله مسموعاً من أول مرة. المضيفة أجفلت ثم أخذت تتلفّت بامتعاض، لتفيد أن الممر ضيق ولا يكفي لعبوري. أما المضيف فطلب مني بصوت هادئ لكنه آمر، كمن ليس بيده حل آخر، أن أرجع وأنتظر بموازاة جناح الطائرة، فهناك فقط تتوفّر المساحة الكافية لأن تتجاوزني العربة. ورغم أنه كان من الممكن عملياً إعادة العربة للخلف، إلا أن نبرة المضيف ونظرته الخبيرة في إيتيكيت الطائرات أوحت بأن ذلك لم يكن خياراً.

عدت إلى المساحة الفارغة بجوار الجناح ووقفت منتظراً، فيما أخذ أولئك الذين لم يستلموا طعامهم بعد في الصفوف المجاورة يحرقونني بنظرات فضولية. في أحد المقاعد الأمامية، كان ثمة طفل

يقف ويلتفت نحوي بعينين كبيرتين قلقتين، ونظرته المكروبة لا تخفي أن ما يحدث لي يجسد أسوأ مخاوفه.

استعدت في ذهني موقفاً حصل لي منذ زمن طويل، ربما في الصف الرابع الابتدائي، وكان ذلك في حصة الرياضيات كما أذكر جيداً. كنت أنسخ عن السبورة مع بقية الطلاب في الفصل. وكنا صامتين تماماً ولا نتحدث إلا همساً، لأن المدرّس المعروف بعصبيته كان لا يتوانى عن حذف الطباشير نحو الجهة التي تتناهى لسمعه منها أي نأمة. وحين يتكرّر الصوت من الجهة ذاتها يطلب من صاحبه أن يتقدّم ليقف أمامه بجانب السبورة على مرأى من الجميع، ويأمره أن يمد يديه فيما يرفع هو عصاه إلى مستوى كتفه؛ العصا الخشب الغليطة ذاتها التي يستخدمها لرسم المثلثات الحادّة. يقف الطالب ضئيلاً منكمشاً، ويداه المرتجفتان مفتوحتان أمامه في تردد، وبمجرد أن يحسّ بحركة المدرس سرعان ما يسحب يديه، فتصدر العصا صوتاً مرعباً إثر اختراقها للهواء. عندها يصرخ به المدرّس وقد زاده هذا عصبية ورغبة في العقاب، ويعيد رفع العصا إلى مستوى يتجاوز حتى الحافة العليا للسبورة، وفور أن يمد الطالب راحتيه مجدداً، يهوي عليهما بضربة أسرع من الأولى وأعنف اختراقاً للهواء، يعقبها صدى ضربة تنكسر على يد الطالب الذي يتقلّص فوراً في مكانه.

كانت عيناي ترتعشان لا شعورياً بمجرّد أن تهبط العصا، ورأسي يسقط بين كتفيّ كسحلفاة، وكأن الضربة وقعت عليّ، ثم أتابع في رعب وذهول كبيرين الطالب الذي يعود ضاماً يديه المحمرّتين اللتين ازدادتا ارتعاشاً، والدموع الحارّة تتساقط من عينيه، وهو يئز أزيزاً صامتاً خشية أن يرفع صوته بالبكاء فيُضرب مجدداً.

لم يحدث يوماً أن اختبرت ذلك الشعور بنفسي، ولم يكن هذا لأني أخشى الضرب، بقدر ما كنت أخشى حتى أن يرفع المدرّس صوته نحوي بالتوبيخ على مسمع من بقية الطلاب. ظللت دائماً شديد التأدب والالتزام، أنسخ كل كلمة ورسمة تُخَطّ على السبورة. وذات يوم أخذت أرسم شيئاً بالفرجار، وكنا قد بدأنا لتوّنا استخدام علبة الهندسة في تلك المرحلة، وأفلت مني الفرجار بالخطأ وانغرز طرفه الحاد في إصبعي، فهسست بألم كاتماً صوتي عن الارتفاع. لم ينتبه أحد سوى صبي ذي وجه قلق على الدوام كان يجلس إلى جواري، ويحدّق دائماً بنظرة مكروبة توحي بأن في كل شيء خطورة لم يُحسَب حسابها.

كان يمحّص بتلك النظرة إصبعي الذي مسحته بمنديل، وهمس لي أن عليَّ أن أذهب لأغسله بالماء البارد. لم أجرؤ على مناقشته كي لا أخاطر بأن تصل أصواتنا للمدرس. كان مجرد جرح صغير تافه توقف نزيفه، وكنت أعلم أن الألم سيزول قريباً، لكن نظرته القلقة وجدية نبرته وأثر الهمس كانت توحي بأن ثمة فرصة أكبر أن يعنّفني المدرّس إن لم أنهض للاستئذان.

استجمعت شجاعتي لأقف أمام المدرّس وأستأذنه أن يسمح لي بالخروج لغسل يدي لأني جرحتها بالفرجار. أوضحت الأمر له هكذا بالتفصيل حتى لا يشك بأني أستأذن من دون مبرر حقيقي. وحين طلب مني أن أريه إياها، مددت راحتي وأشرت للوخزة التي لم تعد تكاد تُرى بعد أن توقف النزيف، أشرت بيدي الأخرى التي كنت أحمل فيها المنديل، لتؤكد بقعة الدم الصغيرة عليه صحة ادعائي. ولم يكن منه سوى أن رمقني بنظرة احتقار، ثم راح يحاكي صوتي ويعيد كلامي كله، مكرراً بنبرة عالية متميّعة ساخرة كلمة «فرجار»، مرققاً

حرف الراء المكرّر في منتصفها وآخرها لأقصى درجة ممكنة، حتى إن الفصل انفجر كلّه بالضحك.

وقفت حائراً في مكاني، مغتاظاً من تقليده المفتقر للصدق ومرتعباً في الوقت نفسه من أي رد فعل إضافي منه. وهو انتشلني من حيرتي بأن أمرني أن أعود إلى مقعدي قبل أن يعاجلني بضربة من عصاه على يدي تعلّمني معنى الألم؛ واهتاجت أصوات الطلاب بالضحك وكأنهم يرجونه أن يفعل ذلك. أما الصبي القلق إلى جواري فكان يشاركهم، بضحكة متصنّعة عالية لا تمحو القلق عن وجهه بل تزيده، وكأنما يحاول جاهداً إقصاء نفسه عني بأكبر سخرية ممكنة.

كنت لا أزال أقف بجانب جناح الطائرة، وأنا أتذكر كل هذا، وقد أخذ جسدي يتعرّق وشعرت بأني أوشك على الانفجار. كل شيء حولي كان يثير سخطي ويعزّز فقداني للشهية: الشراهة الصريحة على الملامح، وطاولات الطعام التي أبقوها مفتوحة أمامهم، والنشاط الذي يدبّ فيهم إثر اقتراب العربة؛ أحدهم يمرر لسانه على شفتيه، والآخر يعدّل جلسته ويفك حزامه ليتسع بطنه للأكل. لم يكن لدي شك أنهم تركوا أنفسهم يتضوّرون لساعات حتى تكون شهيتهم مهيأة لهذه الوجبة المجانية. كانت رائحة الطعام قد انتشرت في المكان، وأخذ توزيع الوجبات يسير ببطئ أكبر من المعتاد. الكل سمع المضيف وهو يكرر أن الوجبات المتوفرة هي إما الدجاج أو الخضار، ومع هذا كان على أحدهم في الصف التالي أن يسأل عن توفّر اللحم، ليجيبه المضيف بالنفي، وهكذا. حين تجاوزتني العربة أخيراً وعدت إلى صفّي، كان الرجل البدين لا يزال يأكل، وطاولته مفتوحة على بطنه وقد وزّع عليها صنوف الطعام بشهية كبيرة. وحين قاطعته برغبتي في الجلوس، نفخ ببعض التأفف وهو يحمل صينيته

وينهض. كان عدد المنتظرين قد زاد أمام الحمّام بعد تناولهم للطعام، وشعرت بالغضب من نفسي لأني لم أكتفي بالانتظار هناك وتركت لحرَجي من طول الوقوف أن يعيدني مجدداً للمقعد.

بعد تلك الحادثة في المدرسة، تكالب عليَّ بقية الطلاب في الفصل بالسخرية، وراحوا يقلّدون كل شيء أقوله بنبرة متميعة ثم يضحكون معاً ويهتفون: فرجار، فرجار، براء مرققة؛ فقد ثبت رسمياً، بمباركة من مدرّس الرياضيات، أني أحتاج إلى أن يُسخر مني. كنت أغضب ويتصاعد الدم إلى وجهي؛ وذات يوم بدأت بالرعاف، فما كان مني إلا أن تركت الدم ينزف أمامهم ويتقاطر على ملابسي. فزعوا جميعاً وهرب بعضهم كي لا يُعاقب، وراح أحدهم يعلم المدير والمدرّسين.

هذا لا شيء، قلت؛ إنه يحدث لي على الدوام، كل ما عليكم فعله هو أن تضغطوا بإصبعين من الخارج ليُغلَق العرق من الداخل؛ وأمسكت أعلى أنفي لأريهم كيف. كنت أتحدّث بصوت مكتوم، والدم يتقاطر على أصابعي القابضة لأنفي وينحدر على ذراعيَّ من دون أن يهتز لي طرف، وهم يتابعونني مذهولين بكل تلك الحمرة القانية وقد اتخذت لوناً أشد قتامة على ملابسي.

قلما سخر أحدهم من ليونتي بعدها، فقد كان هدوئي وتماسكي أمام كل ذاك الدم المتساقط من أنفي هو إثبات لقدرتي على الصبر على ما لا يطيقونه. لكني بطريقة ما، وفي كل شيء أفعله، واصلت تجنّب ارتكاب ما يجعلني أبدو مدللاً أو موضع سخرية أمام الآخرين. كنت نادراً ما أستأذن للخروج إلى الحمام؛ وإذا فعلت للضرورة القصوى فقط، أشعر بالأنظار كلها موجّهة نحوي. وذات يوم أخذ أنفي يرعف فجأة أثناء حصة في الفصل، وكل ما فعلته هو أن أمسكت به من الأعلى

لأوقف تدفق الدم وجلست ثابتاً في مكاني، وحين انتبه المدرس ذُعر ووبخني وصرخ بي أن أذهب لأغسله وأستأذن للعودة إلى البيت. وأعتقد بأني، إن لم يفعل هذا أو لم ينتبه أصلاً، كنت لأبقى حتى نهاية الحصة ممسكاً بأنفي بالوضعية نفسها، فقط لأتجنّب أن أضطر لاستئذانه للخروج. من المذهل أحياناً تصوّر كمية العناء الذي أتجشّمه كي لا أقع في موقف محرج، ثم أنتهي بإحراج نفسي بقدر أشد.

شعرت بأن امتلاء مثانتي بلغ قدراً لم يعد بالإمكان مداراته، فنهضت عازماً على دخول الحمام مهما كلف الأمر. الرجل الساخر إلى يميني التفت فوراً ليحافظ على حسابه للمرات التي نهضت فيها. أما البدين إلى يساري، فقد صار جلياً أنه يستثقل الحركة بعد أن امتلأ بطنه بالطعام. فتح حزام مقعده، واكتفى بإزاحة قدميه إلى الممر من دون أن ينهض، وقد بدت المساحة ضيقة لكنها يمكن أن تسمح لي بالعبور من دون إزعاج اذا ما اعتذرت عن دهسي لقدمه.

الحمام في المؤخرة ما زال مكتظاً، لكن عبْر الستارة نصف المغلقة في بداية الممر، لمحتُ إشارةً تفيد بأن هناك حماماً شاغراً في مقدمة الطائرة. تجاوزتُ الستارة فوراً بحركة مستعجلة، خشية أن يسبقني أحد إلى هناك؛ وفقط حين أوشكت على الوصول اعترضني جسد المضيفة الطويل وهي تقول إن هذا الحمام مخصّص لركاب الدرجة الأولى.

توقفت مكاني وتلفّتُّ بحيرة. وانتبهت حينها أن المقاعد التي كانت تمتد هناك في صفين كانت أكبر فعلاً، وسحنات الركاب الذين يشغلونها بدت كنوع السحنات التي تسافر في الدرجة الأولى، وكانت رؤوسهم مسنودة قليلاً إلى الوراء في مقاعدهم المريحة التي يمكن

إعادتها بحرية من دون أن يزعجوا الراكب خلفهم. أعدتُ نظري إلى المضيفة بسرعة، وقد لاحظتُ الآن أنها أجمل وأطول من الأخرى، ولها وجه ذو طابع غربي، وربما تم اختيارها لهذا السبب بالذات لتكون مضيفة الدرجة الأولى. وحين فتحتُ فمي لأقنعها أن الحمام الآخر مشغول، وقبل أن أبين لها مدى اضطراري للدخول، قاطعتني قائلة إنها تفهم هذا، لكن قوانين شركة الطيران تمنع على الركاب من الدرجة السياحية استخدام هذا الحمام وليس ثمة ما يمكن عمله بشأن هذا. كانت تتحدّث بنبرة جامدة متعجلة كأنها تلقي إعلاناً عن إشارة أحزمة المقاعد، وقد حزرت من إصرارها وسرعتها في إلقاء الجمل أنها اعتادت محاججة المسافرين بهذا وليس ثمة ما سيقنعها بالعدول عن رأيها. كان الجالسون حولي يتابعون الموقف بفضول وارتياح وسط قمرتهم الهادئة، وكأني أتيت خصيصاً لتسليتهم بهذا التقاطع بعد العَشاء.

اكتسبتُ من مثانتي الممتلئة الشجاعة الكافية لأن أخبرها أني أفهم ما تقول، لكن الأمر لن يحدث ضرراً لأن أحداً لا يستخدم الحمام حالياً. ومرة أخرى سارعت المضيفة تقول إنها تتفهم هذا، لكن كان عليَّ أن أحجز في الدرجة الأولى إذا رغبت باستخدام هذا الحمام؛ وأشارت برأسها نحو المسافرين الذين دفعوا مبلغاً إضافياً لهذه الدرجة، كأنهم دفعوا تحديداً لأجل أن يكون هذا الحمام شاغراً لهم متى أرادوا، حتى لو أن أحداً منهم لم يكن ينوي استخدامه. ولم يبدُ أنهم يعترضون على هذه النقطة، بل اكتفوا بالتحديق ومتابعة تطورات الموقف بنظرات جامدة، وبعضهم اكتسى وجهه تعبير يفيد بأني أخذت وقتي في النقاش وعليَّ أن أنهي الموقف حالاً وأعود لأتبول على نفسي في الخلف لأن نقاشي هذا يفسد راحتهم.

لوهلة فكرت أن هذا ما سأفعله حقاً، ولعلي كنت قد بدأت أستدير، ثم خرجت الكلمات من فمي من دون تفكير:

- «لكني مصاب بالسرطان». وساد صمت لوهلة.

كان من الممكن في اللحظة التالية أن يتساءل أحدهم ببساطة عن علاقة الأمر بدخولي للحمام في الدرجة الأولى، وعندها ما كنت لأملك رداً، ولكان من شأني أن أعود أدراجي خائباً؛ لكن شيئاً من هذا لم يحدث. المضيفة ارتسم على وجهها تعبير مضطرب متوتر، إذ لم يكن في كتالوج الاستخدام المخصص لردود أفعالها على المسافرين ما تدحض به هذه الحجة. وسرعان ما تردّدت بعض الحوقلات من الكراسي المجاورة، لتقطع عليها كل محاولة للرد؛ ومدت امرأة رزينة صوتها بنبرة مشفقة: «أي نوع؟». وأجبت بسرعة: «ابيضاض الدم النقوي الحاد، من نوع ابيضاض الوحيدات»، فتعالت الحوقلات. لا أظنهم كانوا يملكون معرفة مسبقة بهذا النوع، لكن الاسم وحده كان كافياً لإشعارهم بخطورة الأمر. «إنه نوع من اللوكيميا»، أضفت مؤكداً، فربما كان أحد منهم لم يستشعر بعد جدية الأمر. كنت حتى مستعداً لاستخراج التقرير الطبي من حقيبتي إذا اضطررت، لكن إجابتي المفصّلة لم تترك لأحد الجرأة على الشك في مصداقيتي. المضيفة أخذت تتراجع بارتباك مفسحة لي الطريق، فيما رحت أتقدم في الممر برزانة وبطء، كما يجدر بمريض مثلي أن يفعل؛ ومن خلفي ظلت تتردد دعواتهم الخافتة بالشفاء، وبضع همهمات متأثرة. كان للأمر مفعول السحر؛ ولعلي لو أخرجت عضوي وتبولت أمامهم، وسط ممر درجتهم الأولى التافهة، لكان ذلك شيئاً يمكن لهم قبوله من شخص في مثل حالتي.

في الحمام تبوّلت طويلاً، بروّية وسكينة، واستغرقتُ في تدفقه الشفاف وأزيزه القوي الرجراج وهو يتقطع شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً؛ كانت أجمل مرة فعلتها في حياتي. غسلت يديّ بالصابون؛ ثم غسلت وجهي جيداً، ولو كان ثمة دش لما وجدت مانعاً من أن أستحم أيضاً، فقط لأنغمس في رفاهية أن أقضي هنا ما شئت من وقت من دون اعتراض من أحد.

حين خرجت، كانت تعابيرهم المحزونة تتابعني وكأنها تلوم نفسها على تأجيلهم دخولي للحمام. تجاوزتهم وأنا أشعر بالخفة تنتشي في أطرافي وفي مثانتي. وقد خطر لي أثناء خروجي من مقصورتهم أن أعود إليهم وأقول إن الأمر مجرد مزحة وأني لست مصاباً بشيء، وأخذت أتخيّل ردود أفعالهم وأضحك في سرّي لتلك الفكرة. عدت إلى مقعدي، ومن دون أن أمحو الابتسامة عن وجهي، طلبت من البدين أن ينهض ليفسح لي، بنبرة صارمة توحي بأني لن أرضى بأقل من هذا، ثم جلست ممتلئاً بالثقة تجاه تصرفي.

كنت مدهوشاً، غير مصدّق تقريباً لغرابة ما جرى. وأخذت أشعر بنفسي منتعشاً وفي حال رائعة، حتى لو سألني أحدهم ما سر بهجتك، لأجبت: لقد تأكدت إصابتي بالسرطان! وسرعان ما أثارت ضحكتي المكتومة استنكار الرجل الساخر إلى يميني، فحدّق نحوي باستياء، وكأنه من غير اللائق أن يضحك المرء وحده. يا للأبله، لقد أصابني تعبير وجهه بالسرطان. أعتقد بأني سأستخدم هذه العبارة بشكل أكبر في المستقبل. كلما واجهت غباء حاداً، بإمكاني أن أتجه لصاحبه وأقول انظر! لقد أصبتني بالسرطان. وسأكون محقّاً بها في كل مرة. سأقولها كلما تجاوز أحد الطابور الذي أقف فيه، أو تجشأ أحدهم بجانبي، أو حين يحك أحدهم عضوه على الملأ. وسأكون محقّاً بها

كلما ركضت خلف معاملة حكومية، أو أوقفني شرطي المرور، أو تأخر طلبي في المطعم. سأكون محقّاً بها أيضاً كلما شاهدت فيلماً سيئاً، لكن فقط إذا كان سيئاً إلى حد يصيبني بالسرطان. وإذا طلبت مني أمي أن أقلّها إلى السوق، سأرد: «أماه، أنت تصيبينني بالسرطان»، والسوق يصيبني بالسرطان أيضاً، وكذلك الإضاءة الساطعة. سأعلنها أخيراً لرئيسي: «حذاؤك السكتشرز أصابني بالسرطان». وإذا رفضتني فتاة سأقول: «لكن كيف؟ أنا مصاب بالسرطان!». وإذا واصلت الرفض فوقاحتها هذه وحدها تصيبني بالسرطان، وسأتأكد أن أعلمها بذلك.

كان قلبي يضرب حتى الهبوط، ربما من المرض، وربما من فرط الحماسة، لا فرق. في ذهني ظل يتردّد ذاك المصطلح: ابيضاض الدم النقوي الحاد. حتى إني أخرجت تقرير النتائج من الحقيبة أسفل مقعدي وأخذت أتمعّن فيه بفخر، مستغرقاً في حقيقة أني مصاب بشيء جاد. وإثر هذا شعرت برغبة جامحة في أن أقابل ذاك الطبيب من مراهقتي ليفحصني، ثم أمرغ النتيجة في وجهه وأنا أقول: «هل يبدو لك هذا خطيراً بما يكفي؟».

لقد شعرت بأني صلب حقاً، بإمكاني أن أواجه الناس جميعاً، بإمكان أي أحد أن يبارزني في محاورة وكنت لأخرسه، بإمكان أي مسألة أن تعترضني وسأكون على أهبة الاستعداد. كنت عازماً على أن أهزم شيئاً، ولم يكن ذاك الشيء هو المرض. بإمكان المرض أن ينال مني، وسأكون سعيداً بهذا، طالما ظلّ يمنحني المكنة على أن أنال من أي شيء آخر.

***

دخلت على الطبيب فور عودتي، واستقبلني خير استقبال. وكان مكتنزاً، بديناً، صحيح الجسم كما كان، بل أشد اكتنازاً. وكان بطنه يلتصق بالطاولة كما تركته، ونتائج الفحص مفتوحة أمامه، ويداه فوقها مشرعتان، ربما كناية عن الاحتضان، أو كأنه يقول: لم يعد في وسعنا تلافي ما حصل. كان سلوكه معتذراً، بالنيابة عن الطب وكل الأطباء، كأن الأمراض من صنعهم، أو من اختراعهم بالأحرى. وشعرت بأن في إمكاني أن أتمادى فأتهمه أني مرضت لأنه شخّصني وليس العكس، ولقبِل هو تلك الرعونة مني وأمعن في الاعتذار. ولم لا؟ إذا كان المرء سيعاني مشاقّ المرض فيجب ألّا يُعدَم مزاياه. كان المقعد المقابل لي فارغاً، ورحت أمد قدمي تجاهه مسترخياً، وشعرت بأني لو رفعتهما، واضعاً إحداهما فوق الأخرى على المقعد، لما بدا ذلك من جهتي مخالفاً للأصول.

قام بتحويلي لطبيب آخر مختص بالأورام، فهو لم يكن سوى طبيب عام. وكان الآخر، على العكس، نحيلاً طويلاً، يرتدي معطفاً لا يغطي معصميه. ولإخفاء هذا، كان يضع يديه في الجيبين، ثم يخرجهما دونما سبب واضح، فيبدو مثل ساحر يمكن أن يُخرِجَ في أي لحظة أرنباً، أو مناديل ملونة، أو إنساناً سليماً كاملاً، لكنّ يديه في كل مرة ظلتا تخرجان فارغتين.

كان أصلع جادّاً، حادّ الملامح، وكأن جدّيته تنبع من جدية تخصّصه: أمراض الدم. وهو سرعان ما يتخذ هيئة عملية نشطة، كرجل أعمال اعتاد إجراء الصفقات العاجلة، ويأخذ يتحدّث في جمل طويلة متّصلة، بحيث يتركك في حيرة تجاه أي جزء تحتاج أن تستفسر عنه، ثم يقول إنه يفضّل بدء العلاج فوراً، لأن الحالة لم تكن مبكرة، فيعدّ هذا تبريراً كافياً لعجلته في الحديث. وخلال حديثه كان يذكر

فجأة مزيجاً من أدوية كيماوية، من دون أي تمهّل، أو فواصل، نُطق واحد منها كفيل بأن يجعلك أجنبياً على الفور، ولعلهم اختاروا هذه المصطلحات فقط ليوحوا بأنهم يعرفون عن الأمر أكثر مما تعرف، إذ إنها سرعان ما تغمرك بشعور بالجهل، فتقتنع بأن تترك الرأي للطبيب.

الكيماوي هو الحل الوحيد، قال، فدعنا لا نضيّع الوقت في مناقشة الخيارات الأخرى. قد نضطر للإشعاعي في حالة انتقال السرطان الأولي لأعضاء أخرى، ولهذا سيجرون فحصاً للتأكّد. هناك أيضاً فحص القلب للتأكد من قدرته على تحمل الكيماوي، وفحوصات أسبوعية لحساب تعداد الدم، وفحوصات الأشعة المقطعية لأجل لا أدري ماذا.

فجأة، فقدت قدرتي على المتابعة وطلبت منه القيام بما يجده مناسباً. شعرت بأنه يملك خطة واضحة، وقد أرضاه قبولي هذا، فانتقل لما هو ضروري.

قدّم لي أوراقاً وطلب مني التوقيع عليها. بعضها تضم قائمة طويلة من مخاطر ومضاعفات العلاج التي يتعيّن عليّ قبولها. إلى جانب الآثار الجانبية المعروفة؛ فالمخاطر بعيدة المدى تشمل اختلالات في وظائف الكبد، الفشل الكلوي، اضطرابات قلبية، العجز الجنسي، العقم، أليس هذا مشجعاً؟ ضعف الذاكرة، ضعف الإدراك، ضعف السمع والبصر، لكن النصيب الأكبر من الكعكة كان لصالح هذه النقطة: احتمالية الإصابة بنوع آخر من السرطان، غالباً سرطانات دم أخرى، نتيجة التأثير السمّي للمواد الكيميائية.

إذاً فالطريقة التي يعمل بها الأمر هي أن يتم تسميمك على أمل أن يقتل هذا السم الخلايا السرطانية قبل أن يقتلك. وفي حال شفاك

هذا «العلاج» من سرطانك الحالي، فهناك احتمال أن يتسبّب، بسبب نجاعته السمّية الشافية تلك، بإصابتك من جديد بالسرطان. ممتاز، وقّعت من دون أن أكمل القراءة. وأخذ هو يسلمني ورقة تلو الأخرى، إحداها تتيح له التصرف بحسب ما يراه في حالات الطوارئ التي لا يسعني فيها اتخاذ القرار، وأخرى تخلي مسؤوليته عن هذا القرار؛ أوراق وردية ثم صفراء ثم زرقاء، كلما وقّعت على إحداها يمد لي أخرى، متعلّقة بهذا الفحص أو ذاك، أو بعمليات طوارئ محتملة؛ وكان يخبرني عن محتواها فأوقّعها مباشرة لأفرغ منها سريعاً، وكأني بهذا أفرغ من الفحص أو من العملية نفسه.

على كل حال، كان أهم إجراء بالنسبة إليّ هو المتعلّق بتوثيق تأمين الشركة الصحّي الذي سيتكفل بكافة مراحل العلاج؛ وقد راودني شعور بالظفر لأني سأرغم الشركة على تبديد أموالها بعلاجي، وظلت هذه الفكرة تؤنسني أثناء توقيعي على كل تلك الأوراق. خذوا هذه العملية أيها الملاعين، وهذه الأدوية، وادفعوا أجر هذه الغرفة في المستشفى، ووافقوا على تكاليف كل هذه الفحصوصات، هيا ادفعوا لموظفكم الذي يستحق.

حين انتهت الأوراق كان لا يزال أمامنا بعض الإجراءات الإدارية، وعلينا أن نمر على مكتب رئيس الأطباء ليمهرها بتوقيعه. إنه من المدهش أن تجد البيروقراطية طريقها لهذه المؤسسة أيضاً. ولعل المرء لا يتحرّر أبداً أينما ذهب، فحتى موتك لا يتم إلا بأوراق موقَّع عليها تثبت وفاتك.

عدنا إلى مكتب الطبيب وسألني في النهاية بعض الأسئلة عن تاريخي الطبي، وتاريخ العائلة، وإن كان أحد من أقاربي أصيب بنفس المرض.

ذكرت له جدتي، وشعرت بالغرابة لأن إصابتي لم تذكّرني بها حتى هذه اللحظة. لا أذكر الكثير من تفاصيل صراعها مع المرض، وربما لم ألحظ بنفسي ما يدل عليه؛ كل ما علمته عن ظروف وفاتها كنت قد سمعته لاحقاً عن طريق الآخرين. قالوا مثلاً إنها ساعة احتضارها كانت تحاول أن تنهض لتعد لجدي دواءه، كما اعتادت أن تفعل كل يوم؛ لا يزال هذا لسبب ما أكثر ما يستعيده ذهني من بين كل التفاصيل.

أثناء العزاء تردّدت تلك الكلمة كثيراً: السرطان؛ إذ بمجرد وفاتها صاروا قادرين أخيراً على الحديث عن مرضها بأريحية. ربما كانت تلك المرة الأولى التي أسمع بها بهذه الكلمة في ذلك السياق. ولم تكن وقتها تحمل في ذاتها تهديداً عظيماً، أي بحسب قانون تناسق الألفاظ مع دلالاتها. ربما لو كان اسمه الثعبان، أو الشيطان، لكان من شأنه أن يبثّ الرعب في قلبي؛ أو لو قيل لي إنه يشبه الركل في الخصيتين، أو الإسهال الحاد، لكانت آلامه شيئاً يمكن لي تصوره والتوجّس منه. لكن خُيّل لي من اسمه وحده أنه شيء تافه يمكن التخلص منه بسهولة، ومن دون آلام طويلة مضنية، كما يتخلّص المرء من مخالب سرطان علق بإصبعه، وربما لم يقضِ على جدتي سوى لأنها كانت مهزولة كبيرة في السن.

كنت أجلس أثناء العزاء متابعاً أحاديث الكبار عنها. فإذا ما لاحظني أحد البالغين، جاء ليربّت على رأسي ويخبرني أن أدعو لها بالرحمة، وكأنما كان انقطاعي عن بقية الأطفال ناتجاً عن استغراقي في الحزن. والحق أني لطالما كنت منعزلاً عن أقراني، وأجد صعوبة بالغة في التأقلم معهم، وإذا ما حادثني أحدهم أو حاول أن يشركني في اللعب فإني نادراً ما أستجيب، وسرعان ما أنسحب من المجموعة موحياً بأن ثمة ما يشغلني عنهم.

ولم أكن حينها أشعر بالحرج لانعزالي ذاته، بل ربما لأنه لم يكن خلفه ما يبرره. كنت أنكفئ إلى ذاتي وأستغرق في المزيد من الكتمان؛ هذا كل ما كنت أفعله للفت انتباههم، لكن لم يكن في هذا بحدّ ذاته ما يلفت. والغالب أني لم أكن أرغب من أحد أن يتقرّب مني أصلاً؛ إنما فقط أن يُثار اهتمامهم نحوي من مسافة بعيدة.

حين ماتت جدّتي، وتلقيتُ كل ذالك العطف من الغرباء، أدركت بطريقتي الطفولية أن هذا ما كان ينقصني: أثر المصيبة؛ حدثٌ خارجي يثير اهتمام الآخرين، من دون أي تدخّل مباشر لي فيه، بحيث يكسبني حقّاً طبيعياً لأن أكون صموتاً ونائياً بهذا القدر.

أذكر أني كنت وقتها في المرحلة الابتدائية السادسة، أو بالأدق في إجازة الصيف قبل أن أنتقل لتلك المرحلة، لأني لم أكن أطيق صبراً كي تبدأ الدراسة وأبلغ الآخرين. وفي أول أيام المدرسة، وفيما كان الطلاب يلتمّون حول طاولات بعضهم البعض، ويتحدّثون عن رحلات عطلهم، وعادت تتقافز في الفصل إثارة الالتقاء مجدداً بعد انقطاع، ألقيت الخبر عليهم بكل بلادة، كأن لي في كل إجازة جدةً تموت. كان ذلك مستوى التباهي الذي يمكن أن يخبرنا به طفل ثريّ أنه قضى الإجازة في أوروبا، فيثير الدهشة ببروده أكثر مما لو أظهر تحمساً وانفعالاً.

أحدث هذا الأثرَ المرجو تماماً، فقد تجمّع بعضهم حولي وسألوا في فضول: «بالسرطان»، أجبت ورفعت كتفيّ، كما لو كان أبسط شيء يحدث في عائلتنا؛ حتى إني ذكرت لهم كيف كانت تحاول النزول من السرير لحظة وفاتها لتعدّ لجدّي دواءه، بطريقة توحي بأن موتها لم

يكن حدثاً استثنائياً حتى بالنسبة إليها هي. هكذا كنت أمنح الانطباع باعتيادية الموت في محيطي، وأبيّن أني ورثت رابطة الدم تلك التي تشيع فيها الكوارث. كانت فكرة كهذه تمنحني الحق، من بين الجميع، لأن أبدو باستمرار كمن يمر بما يصعب الإفصاح عنه.

أخذت أستعيد تلك القصص وأنا خارج من المستشفى، منتشياً وفي حوزتي خبر جديد، كما لو أُبلغت للتو بأني حامل.

فكّرت أن أبلغهم هكذا، بابتسامة ساخرة، وربما ضحكة مكبوتة تفلت رغماً عني قبل بدء الحديث، كأنّي سأحكي نكتة. ثم تفضلوا: سرطان! بل يجب أن أقول «كانسر»، فهذا أشد رعباً وأغرب وقعاً وأدعى للارتباك. ولن يملك أحد من المتفذلكين أن يقول لماذا تستخدم الإنجليزية؟ يجب أن تفخر بلغتك! قل لديّ سرطان، لا تقل: «آي هاف كانسر». سيكون هذا فريداً من نوعه لو حدث، حتى أني سأسمح لصاحبه أن ينجو بفعلته. لكن أحداً منهم لن يفعل، جميعهم سيلتزمون باللباقة، والشفقة، والاحترام، والخجل لأنهم لم يصابوا معي، وستنصهر وجوههم في محاولة تلبّس رد الفعل المناسب، وسيقول كل واحدٍ منهم في نفسه حمداً لله أن القدر اختاره هو، لا أنا. وأنا سأتبسّم لكل هذا، بتحكّم كامل في تعابيري؛ ولعلّي أشفق عليهم لأنهم ما زالوا في مرحلة الحذر من تسخين الأشياء في الميكروويف. لكن يجب ألا يُفهم أنها ابتسامة قوة، كتلك التي يحملها المرضى الشجعان، أولئك الذين ترتسم على وجوههم تعابير بلهاء متفائلة توحي بالصبر والمقاومة. لا، يجب ألا تكون أحد أولئك المخنَّثين الذين يشكّلون مصدر إلهام للآخرين؛ يجب أن تكون ابتسامة تقول: حان موعدي معك، أيها العالم اللعين.

لم أكن من دون خوف بالتأكيد، الخوف دائماً هناك، لكنه يتراجع الآن تحت أمواج من الاستثارة؛ ذات الاستثارة التي شعرت بها حين ماتت جدتي: شيء ما يحصل لي الآن، بين الجميع، ولا يملك أحد منافستي فيه. نعم، يا للبهجة التي يمنحها التأكد!

الأسبوع 13:

أمي تجلس بجانبي وتتأكد من إبلاغي للجميع: هل اتصلت بأعمامك؟ يجب أن تهاتفهم لتخبرهم بشكل شخصي، - كأني أهنئهم بالعيد -، عمك الكبير على الأقل، هل ستجلس أنت الشاب وتنتظر من كبار السن أن يهاتفوك؟ تتناول الهاتف، تضعه على أذنها، وتنقّل أصابعها على الأرقام من دون أن تتوقّف عن توجيه حديثها نحوي: إنهم أعمامك، ومن واجبهم أن يساندوك في هذه الأوقات، وإن كنا لا نسمع من أحدهم كلمة طيبة، ولو كان أبوك هنا لما تجرّأ أحد منهم على هذه القطيعة، بل إن موته هو ما بعثهم على مثل هذا الصنيع الشنيع، فعقّوا بوالدهم وأعرضوا عنا وحتى عن بعضهم البعض فتفرقت بهم السبل، لكن تعساً لنا إن صرنا مثلهم، أوَيَظن الناس أنّا سنمضي في الأمر كمن لا يملك عائلة؟ كلا، ألو، السلام عليكم، كيف حالك، ما أخبارك، ما أحوالك، كيف الأولاد؟ والأحفاد؟ الجميع بخير، خذ ابني، ابني معي يريد أن يخبرك شيئاً، تفضل...

- أهلاً عمي، كيف حالك؟ فقط أردت أن أخبرك أني مصاب ببعض

السرطان، آه وصلتك الأخبار، عفواً، لن أطيل عليك، دعواتك، مع السلامة.

- أرأيت؟ الأمر لا يأخذ وقتاً، هيا، هاتف البقية.

تتناول الهاتف وتطلب رقماً آخر .

- عمتي، ما أخبارك؟ كيف صحتك؟ آه، سلامات، لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، أجر وعافية، أنا بخير، مجرد لوكيميا لا شيء جاد. نعم، هذه حال الدنيا، - لا أعتقد أنها فهمت -، آمين، وكيف زوج عمتي العزيز؟ آه، المسكين، دعواتي له بالشفاء، لكما معاً، صحيح لنا الثلاثة، نعم وجميع مرضى المسلمين، آمين، لا لن أحدّثه، لا دعيه يستريح، لا لن أزعجه، لا فقط أبلغيه السلا... أهلاً، سلامات، نعم، آمين، والجميع، نعم، نعم، أوه ابنكم بخير؟ ممتاز، على الأقل أحدنا بخير، لا شيء، قلت أبلغوه السلام، فليحفظه الله لكم، آمين ويحفظك، ويحفظ عمتي، نعم وأمي وإخوتي، طبعاً وجميع المسلمين، لن أطيل عليكم، أهلاً مجدّداً عمتي، آمين، آمين، لن أطيل علي... آمين، عمتي، آمين، مع الس... باي.

- أرأيت؟ لم يأخذ وقتاً. مَن التالي؟

لم يكن الأمر كما تصوّرته طبعاً. ثمة دائماً ذاك الشعور الثقيل بأنك تؤذي أحدهم حين تبلغه. «عذراً لأنك مضطر لأن تعرف هذا»، أقول حين يعجز أحدهم عن إبداء رد فعل، أو «أجل هذا مريع، فلنتحلّى بالصبر»، حين يبالغ في إبداء التأثر. الكل سيتصرّف بحسب ما يظن أنك تحتاجه، وأنت عليك أن تراعي محاولاتهم طبعاً وتمنحهم شعوراً جيداً إزاد جهدهم. هكذا تجد نفسك مضطراً لتأدية واجباتك

تجاه الآخرين في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى. لكن كل هذه مجرد توافه موقتة قابلة للاحتمال مقارنة بما يجري داخل البيت.

واجبي معها كان الأصعب من بين الجميع، أمي أعني. كل ما تصوّرته عن أن المرض عزلة هادئة كان يتهدّم على يديها. حين أبلغتها بالخبر أول الأمر أُغمي عليها؛ سقطت فجأة كما يحدث في مسلسل رديء، وحملناها إلى المستشفى. شكّل هذا مفارقة مسلية في البداية، أن أصاب أنا ونذهب بها هي للمستشفى، لكن بعد أيام لم يعد بتلك الطرافة. تكرّرت تلك الانهيارات واتخذت تنويعات مختلفة تحافظ على عنصر المفاجأة. كانت تبكي في البيت، وفي السيارة، وفي المستشفى، وفي بيوت الآخرين، وذات مرة بكت في السوق، حين ابتاعت عشبة أخبرها البائع أنها تقاوم السرطان، فكان جوابي أنها ترّهات، وراحت تندب وتصيح: ماذا سنفعل الآن؟ كأن المصائب تكالبت فجأة علينا. يشعر المرء معها بأنه يسير وسط حقل من الألغام؛ كل شيء قابل لأن يكون موضع انفجار.

لكن سرعان ما بدأت عاطفتها المتوقّدة تندمج بطاقتها العملية في مزيج رهيب، واندفعت في فورة من النشاط الذي لم ألحظه فيها إلّا عند مرض والدي، ذاك الشعور بالمسؤولية الذي يجعلها تهتاج في كل اتجاه. راحت تتصل بالأقرباء في كل المدن، والمعارف الذين قد يساعدوننا في هذا الشيء أو ذاك، وتستشير الأطباء والعيادات والبرامج التلفازية، وكانت نصائحهم تتساوى في أهميتها مع توجيهات جاراتها والمعرّفات الشبحية في منتديات الانترنت المنقرضة. كل معلومة جديدة تُضاف فوراً لخطتها، كيفما اتفق، وتصنع شبكة أخرى من العلاجات التي يفترض بي اتباعها. الأمر أشبه بأن يكون لك مدير أعمال يتّخذ القرارات عنك رغم أنك من يؤدي ويتحمل تبعاتها.

كانت مقتنعة تماماً بأنه شأن جماعي. «يجب ألّا تكون أنانياً»، تردّ حين أتعلّل بطرقي الخاصة في مواجهة الأمر، كما لو كان المرض إرثاً أرفض مشاركتهم إياه. مسألة المال بالتحديد شكّلت لها هاجساً؛ تكاليف المستشفى الباهظة في نظرها سترمي بنا في الشارع. حين أتحجج بتأميني الصحي وما ادّخرته من بقايا رواتبي، كانت تهش بيدها كأن مدخراتي كلها سفاسف لن تغني عن شيء. أغضب وأردّد أيماناً مغلظة أن أحداً غيري لن يدفع قرشاً واحداً في العلاج. وهي سرعان ما تدخل في حالة هستيرية وتستعين بأخي، وتتّصل بأختي، وتشكو إليهما على مسمع مني، فيزيدني هذا إصراراً وتشبثاً بعنادي، ونتجادل ونتجادل حتى تُفاجِئنا بانهيار جديد. الآخرون كانوا يحاولون تهدئة الطرفين. يحادثونها سراً فيقولون إنه مريض، ولا بد من بعض المراعاة. يحادثونني سراً فيقولون إنها أمك، ولا بد من بعض المراعاة. وهكذا ينتهي الأمر بي أن أراعي.

في جزء مني كنت أشعر بالذنب، إذ يتبادر إلى ذهني أني بحالتي هذه كنت أعيد لها ذكريات مرض والدي الأخير. أراها أحياناً تحدّق نحوي صامتة، بتعبير يقول: لماذا تفعل هذا؟ وهي تذرف الدموع الغزيرة، التي كنت مخطئاً حين توقّعت جفاف معينها.

في الليلة التي توفي فيها، دخلت الغرفة عليها في ساعة متأخرة. كانت تذرف دموعها على مخدّته وتنشج بهدوء. وكان السرير يبدو واسعاً بشكل أكبر من المعتاد بالنسبة إلى جسدها المتحيز للطرف الأيسر، والذي كان قبل أيام طرف والدي من السرير. وحين انتبهت لدخولي رفعت رأسها بسرعة ومدّت نظرتها باتجاه الباب، ولعلها أمِلت بطريقة ما أن يكون والدي هو مَنْ دخل. كنت حينها في الثامنة عشرة، وقد بلغت مؤخراً مستوى طوله. وهي أخذت تحدّق، صامتة

لبرهة، بعينين دامعتين تلتمعان في الظلام. وحين ميّزتْ أنني أنا من دخل، دفنت رأسها مجدداً في المخدة، وعادت تنشج. سألتها كيف هي ولم تجب، فقط واصلت النحيب، بصوت أعلى، كما لو لتخبرني أن سؤالي غبيّ، وأنني لست أبي.

فكرت بالاستلقاء إلى جانبها في الفراش، وظللت واقفاً لفترة متردداً وأنا أراجع فكرة إن كان هذا سيواسيها. استلقيت على الطرف الأيمن من السرير من دون أن أقول شيئاً. لكني استلقيت بتنهيدة عالية، توضح بأني سأبقى معها هذه الليلة فقط. وهي توقفت بعد لحظة عن النشيج، ولم تنبس بشيء؛ فقط مدت لي نصفي من الغطاء، مانحة ظهرها لي، ولم تتحرّك بعدها. تدثّرت بالغطاء حتى عنقي، ولم آتي بحركة. ظللت أحدق في رأسها من الخلف، فيما كانت رائحة شعرها تصلني من مخدتها السابقة حيث وضعت رأسي، ودموعها تجف على مخدة والدي وهي تستغرق في النوم. كنت أقاوم رغبتي أن أقترب لأشم رائحة شعرها من رأسها مباشرة، لكن المسافة بيننا كانت واسعة، ولم يكن تواصلنا الجسدي أريحياً منذ عشرة أعوام على الأقل. ثمة جفاء ما لا بد أن يحدث في فترة ما في الصبا بين المرء وأمه، وهو يحدث بأكثر الصور تحفظاً من دون أن يدرك أحدهم لمَ، أو أي الطرفين تسبب في البدء به.

في طفولتي كنت أصاحبها في الكثير مما تفعله، لكن من دون أن أقف في طريقها؛ فقط أتحرّك في الوهج الدافئ الذي ينبجس حولها، وهي تكنس الأرض أو تطبخ أو تنشر الغسيل. كنت أفضل أن أبقى جانباً، أتابعها متجنباً إشغالها، معجباً كل الإعجاب بمهارتها في كل ما تقوم به. وهي كانت تلحظ إعجابي وتأنس به، وتستمد منه المزيد من الوهج والنشاط، وبين حين وحين تبتسم من دون أن توجّه نظرتها

نحوي، فقد كانت تعرف أن من شأن الملاحظة المفرطة لي أن تنفّرني. لم تكن تحادثني عندها إلا لتطلب مني شيئاً، كأن أساعدها في حمل الغسيل، رغم أنه لا يعجزها حمله كلّه، كأنما تكافئني على وجودي حولها بتلك المهمّات الصغيرة.

أكثر صورها رسوخاً في ذاكرتي، من تلك الأيام، كانت وهي تنثر الدقيق فوق طاولة المطبخ، بيديها العاريتين الحنطيتين الملطختين بمسحوقه الأبيض حتى منتصف الذراع، وقد أخذت ذرّاته تتطاير كغبار ناعم، سابحة في غلالة من خيط نور مشمس كان يهبط حادّاً عبر الشبابيك العلوية. كانت تمزج الزبدة والسكر في وعاء، وتخلطه جيداً إلى مزيج أصفر، ثم تضيف الدقيق وتخلط أكثر، ثم تكسر بيضة وتسقطها داخله، ويرتفع خنصرها وحده بحركة رقيقة في اتجاه معاكس لبقية أصابعها، منفصلاً عنها كإيماءة للبعيد. كانت تخفق المزيج وعلى جبينها تلتمع قطرات من العرق التصق بها جزء من ناصية شعرها على صدغها، أما شعرها من الخلف فكان معقوصاً بفوضوية بحيث انسدلت منه خصل كان يفترض أن تلتف حول أذنها، وراحت تتدلّى إلى مناطق أدنى في جانب عنقها؛ عنقها الذي كان يكشف تحت خيط النور نفسه عن لطخة بيضاء قصيرة بحجم الإصبع، من أثر الدقيق، إثر محاولتها أن تعيد خصلة شاردة إلى الخلف.

كانت تلك حلواي المفضّلة، وقبل أن تصنعها كانت تعلمني لأؤنسها بمراقبتي لها، فأجلس فوق نضد المطبخ، ثابتاً، متابعاً لكل خطواتها، من دون حتى أن أؤرجح ساقيّ المتشوّقتين. لا تستعيد ذاكرتي الآن أي حضور لأخي وأختي في هذه المشاهد، ولعلهما كانا يلعبان ويتراكضان في مكان ما في خلفية المكان. العالم الذي تقاطَعْنا فيه كان يستند إلى قواعد حميمة غير منطوقة، لم يكن لأي أحد آخر

أن يكون جزءاً منها. كلانا استشعر هذا وحافظ عليه بوفاق متبادل، وسمح له بالتدفّق فيه بكل فطرية. كان أشبه بالسرّ الذي بدا أنه لن يتوقف أبداً عن الازدهار.

كان المزيج في الوعاء ينتهي في كل مرة إلى عجينة ليّنة متماسكة، وهي كانت تأخذ منه قطعاً صغيرة، تشكّلها بأصابع خفيفة دقيقة، واحدة تلو الأخرى، وتصنع منها كرات ملساء ناعمة، ثم ترصها في الصينية التي ستدفعها لاحقاً إلى الفرن. وفي اليوم الذي تكون فيه الصينية أكبر من المعتاد أفهم أنه سيزورنا بعض الضيوف. وذات نهار كانت الصينية جديدة وكبيرة، وهي أمرتنا جميعاً، من دون تمييز، أن نبقى في غرفنا حين يأتون. فهمتُ أنهن صديقات دراسة لم تجتمع بهن منذ وقت طويل، ربما لم تجتمع بهن أبداً منذ زواجها.

في المساء، تناهت إلى سمعي أصواتهن في الأسفل. حاولت تذكير نفسي بأمرها لبرهة، ثم توصلتُ بطريقة ما إلى أنه كان يخص أخي وأختي من دوني. هكذا خرجت من غرفتي واختبأتُ أعلى درج الصالة وأخذت أراقبهن. من تلك الزاوية، كان يصعب تمييز موقعها بين بقية الأجساد. ثم تتبّعت الصوت الذي كان يمنحني ظهره، والذي بدا رغم ألفته مختلفاً عن المعتاد. كنت وقتها في الثامنة من عمري تقريباً، وشعرت بأني لم أرها من قبل بين نساء أخريات.

كانت تضحك من دون سبب، وتتحدّث كثيراً، وتحرّك يديها في كل اتجاه، وتقاطع الأخريات وتلومهن أنهن لم يأكلن ما يكفي من الحلوى، وتؤكد أنها صنعتها بنفسها اليوم وأنها لذيذة، وتلتقم قطعة منها وتصدر أصواتاً متنهدة غاوية ريثما تذوب في فمها، ثم تضحك بمجون، والجميع يتضاحكن، ويتحدّثن معاً ويصرخن ويأكلن في

الوقت نفسه. كانت هي قائدة الجلسة، وصوتها هو الأعلى بينهن، ولم يعجبني هذا لأني لم أتخيلها يوماً قائدة، ولم تعجبني رؤيتها هكذا صاخبة منفعلة هائجة، فاقدة للهدوء والرزانة، وكأن تلك الهالة الصامتة المشتركة بيننا لم تكن تعني لها شيئاً، حتى إن تسريحة شعرها كانت غريبة كباروكة، مشابهة في تصنّعها لتسريحات الأخريات. بدت سعيدة، لا أشك الآن في هذا، لكن لم يكن في سعادتها تلك أي شيء يخصّني، وكأنها سعيدة بالذات لأنها نسيت أمري، وراودتني رغبة إفساد هذه السعادة التي قررتُ لحظتها أنها زائفة.

رحت أناديها، ولم تلتفت نحوي وسط الصخب، ولعلها سمعت وأحجمت، وزاد هذا من عزمي وقناعتي بحاجتها للإنقاذ. نزلت الدرج ورحت أنادي بصوت أعلى، ولم ترد. كنت قانعاً أني بفرض حضوري فإني إنما أعيدها لرشدها، وأوضح لصديقاتها أنهن لن يشغلنها طويلاً، أو يفسدن طباعها بسطوة مرحهن. وفي المرة الثالثة اقتربتُ وصرختُ بها، فأغلقت هي ضحكتها والتفتت، وقد عبست سحنتها تماماً قبل أن تحط نظرتها عليّ، تماماً في اللحظة التي أدركت فيها أن هذا الصوت الصغير الناشز الحاد الذي يصرخ بإلحاح «أمي!» كان يناديها هي. راحت ترمقني بصمت، وخرست الأصوات من حولها، والتفتن جميعاً. كنت أتصور أنني بمجرد أن أحقّق انتباهاً كهذا أكون قد انتصرت، حتى إني لم أستعد لما يجب أن أقوله بعد ظفري بهكذا رد فعل.

رفعتْ صوتها عالياً بنبرتها الموبخة «ماذا تريد؟!»، وقد قرأتْ بنظرة واحدة كل نياتي، وفطنتْ من سحنتي المتطلّبة أني لم أكن راغباً بشيء سوى هذه المقاطعة. أدركتُ أن عليَّ أن أبدو على الفور مقنعاً، تعيساً، متأزماً بما يكفي لأبرر تعكيري لبهجة الجلسة، وتَلبَّس وجهي

بسحنة الكذب التي تميّزها هي حين أختلق أعذاراً لنفسي. وقبل أن أنطق بكلمة قاطعَتني بصيغة حازمة غير مستعدة للتكرار: «انصرف إلى غرفتك». لكني قررت عدم تصديق أمرها، مجدداً. بدأتُ أخطو نحوها، على أمل أن تلتمع في ذهني كذبة مأساوية قبل أن أصل. وهي لم تمهلني خطوة حتى أتبعتْ أمرها بصرخة مدوية: «الآن!»، فتوقفتُ مكاني مفزوعاً. ومن دون أن تتأكّد حتى من إطاعتي لها، التفتتْ بكامل جسدها نحوهن، بحركة توحي بأن شأني قد فرغ منه، وعادت تخاطبهن، والقهقهات عادت تتعالى من حولها محرّضة إياها على المرح، حتى إن بعضهن رحن يرمقنني من حيث لا أزال أقف بأفواه متضاحكة، فميّزتُ أنها تتحدّث عني، وقد أخذتْ تندب حظها بسخرية، وتصفق نحرها العاري بضربات سريعة متلاحقة صاخبة، وكأنها تقول هذا ما جنيته على نفسي، هذا الكيان الطفيلي الذي يحوم حولي، انظرن، هذا ما يجب أن أتعامل معه يومياً، هذا الذي يقف وضيعاً بلا خطة؛ ثم التفتتْ مرة أخرى ووجدتني لا أزال واقفاً مصدوماً متبلهاً، وحطّت كفها على فخذها، بضربة عنيفة صاخبة، والصوت فرقع في أذني وانتفضتُ، كأنما سقطتْ كفها على وجهي. وهي عادت تحادثهن وتطوح بيديها وتلقي حركات لم تكن جزءاً من طبيعتها قبل أن يحضرن، وترفع عقيرة شكايتها بتشجيع من صراخهن الذي يحاول مقاطعتها مشاركاً في الشكوى، ورحن يضحكن فيما انتقلن معها إلى شكاوى أخرى.

تركتهنّ إلى غرفتي وصفقت الباب خلفي بقوة، لأردّ على ضربة فخذها تلك، وكنت آمل أن تسمعني وتغضب. وقد أمضيت الليلة بعصبية في السرير، وتوصلت خلالها لقرار حاسم، إذ عقدت العزم على ألا أجيبها إذا خاطبتني في المرة القادمة، بل ولن أحدّثها مرة

أخرى حتى نهاية حياتي. وشعرت بأن من شأن هذا القرار أن يرد لي الاعتبار ويجعلها تخسر وتندم وتقاسي مختلف الدروس المؤرقة، حتى إني أردت أن أصل إلى نهاية حياتي بأقصى سرعة ممكنة، مع التزامي بمقاطعتها حتى آخر لحظة، كي يتحقق بجدية هذا القرار، بل وتشوّقت أن تفتح الباب لتحادثني في هذه اللحظة حتى أبدأ بتنفيذه في الحال. لم يكن يعتريني أي شك أني بمجرد أن أبدأ في تنفيذه سأواظب عليه من دون أي تراجع، لكني غفوت فيما كنت أنتظر دخولها عليّ.

خلال الأيام القليلة اللاحقة، لم تبدِ هي أي ندم. وبفضل صمتي المُعتاد، ربما لم تلاحظ أني صرت أصمت أكثر قليلاً. ثم عدت أخاطبها بتحفّظ متى ما دعت الحاجة، وشيئاً فشيئاً صارت الحاجة هي الدافع الرئيسي للحديث بيننا. ورغم أن عدد الكلمات بيننا لم يكن يختلف كثيراً عمَّ كان عليه سابقاً، إلا أن ما اختلف في الحقيقة هو نوعية الصمت نفسه. بات يفتقد لتلك الهالة الحميمة المشتركة بيننا، ولم يعد في محله إلا مخالفة الأوامر من جهتي، ورد الفعل المنفعل من جهتها. واستمر التوتّر حتى راح يفقدني الرغبة بالتواجد حولها حين لا يكون هناك داعٍ للحديث. كان من الواضح أن قطيعة ما لا بد أن تحدث، وقد بدأت منذها بالحدوث. ولم يعد لأي شيء، حتى لو كان بحجم هذا المرض، أن يردم تلك المسافة، أو يوقفها عن الاتساع.

الأسبوع 14:

«اسمعني جيداً»، اقتحمتْ الغرفة بعصبية، كأنها تتوقّع مني معارضة: «يجب ألا تستغل الأمر لتتهمني بعدم التفهم وتجاوز الخصوصيات وكل هذا الهراء الذي تعلمته من الكتب، فأنا لا أضغط عليك بخصوص أي شخص آخر، لكن حين يتعلّق الأمر بجدّك فالأمر مختلف، لا يمكنك أن تبلغه بالهاتف كالآخرين، إنه بمكانة والدك، بل هو والد والدك، وبرك به من برك بأبيك، يجب أن تذهب...».

حسناً، سأزوره اليوم، قلت. كانت تقف عند الباب منتظرة المعارضة التي توقّعَتها، وحين لم أضف شيئاً تركت الباب مشرعاً وغادرت.

وماذا كنت سأعارض، باستثناء الباب المفتوح طبعاً؟ كانت الفكرة تراودني قبل أن تخبرني بها. بقدر ما كنت أرغب أن أتجنّب إبلاغه بنفسي إلا أن تأجيل الأمر لم يعد ممكناً؛ كلما طالت المدة كلما صارت المهمة أصعب. إنه يملك تلك القدرة الخارقة على أن يتذكّر مدة هجران كل حفيد، ولا يعني هذا أنه كان ليرضى لو زرته

كل أسبوع؛ فكل ما تطمح إليه معه هو أن تبقي سخطه في أخفض مستوياته، رغم أن من شأن سخطه أن يرتفع لأقصى حالاته من دون سبب واضح بمجرد دخولك عليه في مجلسه.

حين كنا صغاراً، أنا وأبناء عمومتي، كنا نسميه سرّاً «أبو الهول». لا أذكر مصدر التسمية لكن أذكر أننا كلما دخلنا عليه كنا نجده جالساً متصنّماً، ويداه مبسوطتان كمخلبين حيوانيين على ذراعي مقعده ذي اللون الرمليّ. وكان إلقاء التحية عليه أشد الأفعال صعوبة، إذ يكفي بنظرة واحدة منه أن يخبرك أنك فعلت ذاك بطريقة خاطئة، وعندها ستكون محظوظاً لأنه اكتفى بذلك، وسيكون عليك في المناسبة القادمة أن تبدي حرصاً إضافياً لتجنب خطأ تجهله. أما إذا أخذ يوبخك، فعندها سيخرس المجلس كله توقيراً له، وكأنما حل عليك غضب السماء، وسيعرض عنك والدك والجميع، وقد حلّ عليهم الغضب جميعاً بسببك. وستكتشف لاحقاً أن السبب كان هو أنك دخلت بالحذاء، مثلاً، أو تعثرت بالسجادة في مشيك نحوه، أو لم تطبق شفتيك كما يجب حين قبلته وتركت شيئاً من الرطوبة على يده أو رأسه. أيٌّ من هذا كان ليكون كافياً ليحلّ سخطه على جيلك بأكمله، وتربية والديك، والحلّاق الذي منحك قصة الشعر تلك، وإذا به يلعنك بأشد الأشياء عشوائية، للمدة التي تحلو له، من دون أن يجرؤ أحد على مجرد الظن أنه تمادى قليلاً.

لم يكن هذا الشعور مقتصراً علينا كأطفال. كان الكبار أيضاً يحيّونه بتواضع عظيم، تواضع لم أفهمه، وكأن كل فرد منهم يدين له بمعروف خفي. وكانوا ينتظرونه عند الأبواب حتى يخرج، ويتقدّمون نحوه، وهم آخذين في تقبيل رأسه ويده، ويذكّرونه بأسمائهم. وكانوا يقومون بواجبهم ذاك برضى وقبول لكل ما يُتوقع منه من فظاظات،

كأن يهش عليهم أن يبتعدوا بحركة ضجِرة من كفّه، ومع هذا ظلّوا يصرون على تعريض أنفسهم لهذا، لأن موقفهم سيكون أسوأ لو لم يثبتوا زيارتهم له. حتى لو أنه صرخ بأحدهم فجأة، إذا ألحّ في السلام أكثر من اللازم، أو في وقت غير ملائم، وحتى لو كان ذاك أشدهم مهابة وترفّعاً، لوجدته يتقوقع متراجعاً، وهو يضحك صَغاراً، كأنما ليخبر الجميع كم يحب هذا الجد ويحترمه، وكم من حقّه أن يصرخ به.

لقد كان واحداً من نوعه، ولو لم يكن جدي لما كان ذاك لينزع عنه حق التصرف هكذا، بالطريقة التي يملك بها استحقاقاً فطرياً للاحترام والرهبة. وكان في ذلك الاستحقاق أكثر من مجرد بلوغه سنّاً معينة؛ لكنني لم أعرف أبداً كيف اكتسبه تحديداً، وفي أي مرحلة من حياته تشكّل بتلك الصورة. لطالما شعرت أنه كان جَداً منذ ولد. وربما كالأنبياء، كان قد عرف بوحيٍ ما، ودونما أي بهجة أو فخر، أنه سيكبر ليصبح هذا الجد، وقَبِلَ هذا الدور كقدَرٍ محتوم.

كنت أتذكر كل هذا وأنا أدخل الحي العتيق الذي تتوسطه عمارته؛ الكعبة التي نَمَت حولها بقية البيوت. إنها عتيقة إلى حد يستحيل أن تتخيّل مبنى آخر نشأ هنا قبلها. كأنه جاء إلى هذه الأرض الفراغ وقال هنا سأبني بيتاً، ثم بنى بجانبها مسجداً وبقالة وبضع عمائر أخرى شرع بتأجير شققها على العوائل المتوافدة على الحي شيئاً فشيئاً، وهكذا تراكم الناس في هذه الحارة وتراكمت بقدومهم ثروته. ورغم كل محاولات أبنائه وأحفاده عبر السنين لإقناعه بالانتقال إلى حيٍ أرقى، واستثمار تجارته في أوجه أخرى، بعد أن عتق هذا الحي وقَدِم ولم يعد يقطنه إلا العمالة، ظل هو مصراً على البقاء فيه حتى النهاية، من دون حتى أن يجدّد شقته. كان يتحدّث عن العمارة وكأنها استحقت

منزلة ابن سادس له، كما يتحدّث بدوي حقيقي عن جمله الذي يشكل مصدر رزقه وطعامه وشرابه ويعز عليه أكثر من أبنائه. وحتى بعد أن كسدت تجارته وبارت صحته وصار ملازماً لمقعده، وفقد قسطاً من وجاهته، لم يكن كل هذا ليزيده إلا غلظة وجفاءً. أبناؤه تفرقوا في أحياء أرقى، وبقي هو عنيداً وحيداً رغم زياراتهم، بل إن كل زيارة من أحدهم كانت تمثّل عنده فرصة للانتقام، ليخبرهم أنهم لا يصلحون لشيء، وأنهم وأجيالهم اللاحقة عبء على هذه الأرض. لقد توقّف الزمن به عند جيله ولم يعد في القادم إلا رخاوة آيلة للدمار.

كنت أطرق الباب وأنا أدرك أن هذا هو نوع الديناصورات الذي ينتظرني في الداخل، ويجب عليّ أن أبلغه شيئاً خاصّاً بي، لا يفيده أبداً، مجرد خبر تافه عن حفيد تافه يظن هو أنه يستحق الموت على كل حال. أكاد أتصوره يقول: «شاب في مثل سنك ويصاب بالسرطان، ألا تخجل من نفسك؟».

ما إن طرقت المقبض الحديد الصدئ للباب حتى فُتح فجأة. عادت لذهني فوراً تلك المشاهد المرعبة في أفلام الرسوم المتحركة، حين يطرق أحدهم باب قصر مسكون فينفرج من ذاته. لكن من هذه الفرجة أطلت نحوي نظرة مرتابة، ارتياب من لم يعتد على الزوار، ولعل ما زاد ريبتها هو أنها كانت تتوقعني بطريقة ما، ولعلها كانت تقف خلف الباب طيلة اليوم. إنها الخادمة والممرّضة والطباخة معاً، كل هذه الأشياء مدعوكة في وجه كالح عجوز، وجه يبدو أنه يتلقّى ألف شتيمة في اليوم. كانت تفتح الباب، بحركة بطيئة، ووجهها ثابت يحدّق بي كشبح آسيوي منهك. حياتها الضائعة كانت قد قضتها في هذا المنزل عاماً تلو عام، ولعلّها بمرور الزمن نسيت ما جاءت من أجله، بل بات واضحاً أنه لم يعد لديها ما تملكه في موطنها الأصلي. وقد أدركتُ

أنها ميّزتني رغم قدم عهدي بها، فتنحّتْ عن الباب لأدخل، من دون أي كلمة، ثم اختفت فجأة، بالطريقة الشبحية التي تلائم حياتها، وهذا البيت، وظهورها المفاجئ خلف الباب.

أكاد أخطو خطوة للداخل، ثم أتذكر أن أخلع حذائي. أتنفّس الصعداء لأني تنبّهت لهذا قبل فوات الأوان. يمر بي شريط كل المرات التي صرخ بها نحوي لأني دخلت بالحذاء، كأنما كنا نفسد الكرة الأرضية، لا بساط شقته المقرف. أتجه إلى غرفته حافياً، بخطوات مكتومة الوقع، فيما أستشعر البساط القديم بباطن قدمي. تبدو الشقة أصغر مما أذكر منذ آخر زيارة، لكن لها الرائحة نفسها التي هي مزيج من البخور والغبار والخشب العتيق وعطور أخرى غامضة. في كل ركن من هذه الشقة ثمة ما وُبّخت عليه، بسبب أو من دون سبب، كأن وجودي فيها وحده سبب.

الإضاءة معتمة في الممر المؤدي إلى الغرفة، وثمة نور يتسلل من شق الباب المفتوح. أطل من الشق فأراه: «أبو الهول»، جالساً على مقعده العتيق نفسه، ثابتاً بلا حراك. من الصعب تحديد ما إذا كان مستيقظاً، ومع هذا تنتابني رعدة. لا جواب يأتي حين أطرق الباب. أدخل بحذر، كما لو كان ثَمَّة طريقة خاطئة للدخول؛ يصرّ الباب ليؤكّد توجّسي.

عيناه مفتوحتان، لكنه لا يرفع رأسه نحوي. أعتقد بأن أمي هاتفته وأخبرته بقدومي. أقبّل رأسه مرتين ثم يده مرّة. هل نسيت أن أقبّل شيئاً؟ أجلس أمامه على طرف السرير. يرمقني كأني نسيت أن أقبّل شيئاً؛ ربما لم يكن يجب أن أجلس فوق السرير. لا يهم.

- «كيف حالك؟». لا يرد. الوجه الصنميّ نفسه، مع فارق التقدّم

في السن، والعين أشد زجاجية من المعتاد. لم يكن يضع نظارتيه، وربما لم يرني بعد. لطالما أرعبتني عيناه العاريتان حين لا يخفيهما خلف نظارتيه السميكتين.

- «ليعطك الله الصحة والعافية». لماذا قلت ذلك؟ لا أدري. حسناً، فلندخل في الموضوع:

- «أحمل أخباراً سيئة».

- «وماذا أتوقع منكم غير الأخبار السيئة؟».

رائع، على الأقل تأكدت أنه يسمع. يجب أن أصمت لثوانٍ ليشعر بأني تقبّلت توبيخه. أعدّ في رأسي للثلاثة ثم:

-«لقد اكتشفوا إصابتي بالسرطان». من هم؟ لا أدري، لكن يجب أن أتجنّب أن أقول أنني أنا من اكتشف، حتى لا يصبح الأمر غلطتي مجدداً.

- «أعرف، وصلتني الأخبار». ممتاز، يعرف، ماذا الآن؟ واحد، اثنان، ثلاثة:

- «إنه في مرحلة متقدّمة، قالوا إنه من الصعب أن يكتشف المرء مبكراً هذا النوع. مشيئة الله». لا يرد. أسرد عليه بعض التفاصيل الإضافية، أبقيها عملية ومطمئنة وبعيدة عما يستدعي اللوم.

- «الأسبوع المقبل أباشر العلاج، أنهيت كل الفحوصات المطلوبة، والآن أبدأ دورة من الكيماوي لمدة ٦ أشهر، كل شهر جلسة». يبقى صامتاً. أواصل الشرح لأبدو كمن يملك سيطرة على وضعه:

- «الجلسة هي 3 أيام متتالية من الأدوية كل شهر، وما بينها فترة نقاهة ليستعيد الجسد قوّته حتى موعد الجلسة التالية، وإذا لم يجدِ هذا نفعاً أباشر دورة ثانية».

وطول مدة حديثي كنت أنتظر النظرة التي تقول: «وماذا عن أمك وإخوتك، ماذا عن حاجاتهم ومسؤولياتهم، ألم يكن يكفيهم موت والدك، ألا تخجل من نفسك، شاب وفي مثل سنك؟». لكنه لم يُحر أي نظرة، ظل ساكتاً كالصنم. «فليعطنا الله الصحة والعافية»، لا أدري لمَ أستمر في قول هذا. نبقى صامتين. دقيقتان وسأغادر متحججاً بحاجته إلى الراحة. الصراصير التي تطفح من بالوعة حمامه مرحَّب بها هنا أكثر مني.

أقلب عينيَّ في محتويات الغرفة البالية، والتي بطريقتها الخاصة بدت أشد كهولة منه. أول ما يلفت نظري هي الخزنة الحديد قرب النافذة، إنها من ذاك النوع العتيق الذي لا يمكن لقنبلة ذرية أن تفتحه، وهي محمية فوق هذا بستائر خضراء شبحية مصنوعة من نسيج طحلبي مريع، ولعل السبب الوحيد المنطقي لاختياره هذا النسيج هو تنفير اللصوص. يا للعجوز الدنيء المرتاب. حتى إن الخزنة تقع مباشرة إلى جانب السرير، لأن مؤامرة ما تحاك ضده ويجب أن يكون متنبّهاً لها أثناء نومه.

سريره الواسع لا يزال يحمل آثار جسد آخر على الجانب الثاني من الفراش، كأن شبح جدتي ظل يرقد إلى جانبه كل ليلة. ثمة كومودينة بجانب السرير، لا تبدو في مظهرها وحجمها وثقلها أقل قوة من الخزنة الحديد، وفوقها مشمّع أبيض مطرَّز من النوع الذي يستحيل نزعه لشدة ما التصق والتصق وظل يلتصق عبر السنين. جهاز الراديو لا يزال يعمل بمعجزة ما، لعله يعود للحرب العالمية الأولى أو قبلها بقرن، وكان يذيع أخباراً من إذاعة مشوّشة لا بد أنها انقرضت منذ سنين، وبقي شبح المذيع يتردّد تائهاً في الموجات. وكان المذياع ملتصقاً كذلك على الكومودينة التي ارتصت أيضاً فوقها مراهم

وأكواب وعدد لا نهائي من علب الأدوية، ربما ظل يتناولها بعد انتهاء صلاحيتها من دون أن يتأثر جسده الجاف كجذع شجرة معمرة.

بجانب الكومودينة هناك مساحة فارغة يغطي أرضها بساط أخضر، بنفس درجة الستائر، ولا يقل سخاءً عنها في احتضان الطحالب والبقع. أما الجداران المتبقيان فكان يملأهما دولاب هائل عريض متقشّر الطلاء، حزرتُ أنه يشكل الأساس الذي يسمح لهذه الغرفة المتهالكة أن تظل واقفة على قوائمها. بإزالة هذا الدولاب ربما تنهار الجدران بعضها فوق بعض ناثرة غبارها الهائل في كل أرجاء الحي، بل ربما ينهار الحي بأكمله كما تسقط قطع الدومينو واحدة فوق الأخرى إثر انهيار قطعة واحدة؛ الخزنة الحديد فقط ستبقى وحدها متماسكة فوق كل الركام، شاهدة على أنه هنا كان ثمة حارة.

كل شيء هنا يتمحور حول هذا الدولاب الذي يقبع أمامي كشبح حكيم. كنا نجتمع عنده في كل عيد ومناسبة، أنا وأبناء عمومتي، لتخرج لنا جدتي منه علبة الخياطة المعدنية العتيقة التي تضع فيها مختلف صنوف الحلوى؛ دائماً من هذا الدولاب الذي كان يحمل سابقاً رائحة العيد. كنا نتسلل أحياناً أثناء غيابهما ونساعد بعضنا البعض لتسلّق الرف العلوي لنسرق الحلوى، ويا لخيبتنا حين نفتح العلبة ونكتشف أنها لا تضم سوى أدوات خياطة، فنعيدها متسائلين عن مخبأ الحلوى الجديد. وحين تعود جدتي كنا نطلب منها بكل براءة بعض الحلوى، كأننا لم نفعل شيئاً سوى انتظارها لنستأذنها؛ فإذا بها تفتح الدولاب وتمد قامتها المتقلّصة وتسحب العلبة نفسها من الرف نفسه وتفتحها تحت أنظارنا، فنرى - ويا للغرابة - أكياس الحلوى اللماعة تتألق وسط العلبة. لم نملك تفسيراً لهذا سوى أن الدولاب بطريقته الشبحية الغامضة كان يبدل الحلوى أثناء غياب

جدتي بالإبر والبكرات والأزرار والخيوط؛ وفقط حين تمتد أصابعها القصيرة المكرمشة، يعود محتوى العلبة فجأة إلى طبيعته السحرية؛ فقط بالحركة الرحيمة لتلك اليد المتغضّنة التي تبدو كأن أحداً أبقاها منقوعة في الماء ساعات طويلة.

فجأة تراود لسمعي صوت بجانبي، كما لو يستجيب للذكرى نفسها. وحين التفتّ ناحيته كانت كتفاه تهتزان، ومن عينيه الضيقتين تنحدر الدموع، لكنها لا تسقط لفرط ما في أجفانه من تغضنات، فقط تتوزّع في الخطوط العميقة لجفنيه السفليين وتبقى عالقة هناك. بقيت صامتاً، بينما هو يبكي ويختضّ كمرجل قهوة يفور، ويتضرّع مغمغماً بأدعية لا يعلمها إلا الله. لم أفهم منها سوى أنه كان يدعو الله أن يلطف، أن يلطف بنا، أن يلطف بأبي في قبره، أن يلطف بجدتي، وأن يلطف به.

وبعد لحظات توقّف وثاب لتصنّمه، وعاد وجهه فجأة كأنما لم يذرف دمعة للتو. نهضت واستأذنته بالمغادرة، ولم يعِرني هو في المقابل أي انتباه. من باب العادة فقط، قبّلت رأسه وخرجت. وبمجرد أن أغلقت الباب لم أقاوم استثارتي. قلت: يا للهول! أبو الهول يملك قلباً، من كان ليظن؟ ألا إن هذا أشد اثارة من إدراك الرحالة المستشرقين أن ثمة بقية للتمثال تحت الرمال، رغم أن الوجه يبرز مرئياً منذ قرون، ثم حين حفروا تحته اكتشفوا - ويا للغرابة - أنه لم يكن أقل من جسد أسد.

الأسبوع 15:

أعدت قراءة «الشيخ والبحر» لأتقوّى على هذا اليوم، ونهضت نشيطاً عند الفجر كما يفعل صيّاد متجه لصيد جيد. استحممت وتناولت وجبة خفيفة وارتديت ملابسي على مهل. في السيارة كانت تصدح أغنية كوين «آي وانت تو بريك فري»، من الأسطوانة التي أعددتها لأغاني الفرقة المفضلة عندي. حين بدأت الملحمة البوهيمية، رفعت الصوت إلى أقصاه: «أماه، لقد قتلت رجلاً. وضعت مسدساً في رأسه، سحبت الزناد، وهو الآن ميت». ورحت أجاري بصوت ناشز الطبقة العالية لفريدي ميركوري: «أماه، لا أقصد أن أثير دموعك، إذا لم أعد غداً في مثل هذا الوقت».

وصلت إلى المستشفى مبكراً، وركنت سيارتي في مواجهة المدخل. كان المبنى ينتصب أفقياً أمامي، وكأن ثمة فيه ما يمنحني امتيازاً لأنني مريض. رحت أصعد بخفة درجاته الخارجية، وهي درجات متوازنة ومتقاربة وتبعث على الرشاقة، بحيث يرغب المرء بمجرد صعوده أن ينزل مرة أخرى ويعاود الصعود، لكن الباب ينفتح

في وجهك بروعة وطواعية ويشفطك إلى الداخل، فتسلّم نفسك لتيار الهواء في حبور وتمضي عبر الأروقة. ورغم أنك قد ترغب أن تسأل الاستقبال عن هذا الشيء أو ذاك إلا أنك تتجوّل كيفما اتفق بلا هدف سوى أن تكمل السير عبر البلاطات المتماسكة للمبنى القوي العتيق؛ هذا العمران الرائع محكم البناء، إلا أني أحبه ككلب وأرغب بالتربيت على رأسه.

كنت قد أجريت في هذا المشفى ما يكفي من الفحوصات في الأيام الماضية، ونقلت من بنوكه إلى جسدي ما يكفي من الدماء، بحيث نمّى كل منا تجاه الآخر نوعاً من الألفة. وكان الطبيب الجاد النحيل المختص بحالتي قد حجز لي موعداً في قسم الأورام، وهو قسمٌ مستقلٌّ يقع في المستشفى نفسه ويفصله فقط ممر طويل يعزله أكبر مسافة ممكنة عن بقية الأقسام. وحين اهتديت إلى الممر وجدته بهيجاً سائغاً، وخليق به أن يقود المرء إلى حيث يريد أن يصل. وكان مكشوفاً من جهة زجاجية على ساحة مفتوحة للعب، ومن جهته الأخرى كان الجدار أملس مشرقاً، والشمس تنطرح على امتداد أرضيته في مربعات كبيرة كسجاد مشمس فوق الرخام. قلت: أوه يا له من ممر شيّق طويل، ومشيت وحدي فيه. ثم رفعت صوتي خلاله، وقلت يا أيها الممر، ها أنا أعبرك للمرة الأولى، ولسوف أعبرك مجدّداً عدداً لا أعلمه من المرات، لكنني أود أن أقول، نيابة عن كل المرّات المقبلة، ولعلي أكون أشد إنهاكاً وقتها من أن أخبرك، أود أن أقول الآن إني أحبك، وإنك ممر شيّق بهيّ، والإضاءة فيك رائعة، وأرضك دافئة إذا نعّم المرء فيها الخطو، وسائغة إذا أنعم النظر. ألا إن كل من رآك أحبك، يا ممر، وكل من عبرك فكر: ما ألطفه ممراً، ما أحسنه من ممر! والعامل الذي بناك أحبك، والمهندس الذي صممك، والمعماري

الذي قبلهم رسمك، وقال ها هنا سيكون الممر، أحد جوانبه جدار وجانبه الثاني نهار. والمرضى أحبوك، يا ممر، وأخذوا نفساً عميقاً كلما عبروك، من دون أن يعرفوا أنك السبب. والأطباء تمهّلوا فيك على غير عادتهم، وكانت لهم فيك راحة، من دون أن يشرحوا السبب. وكذلك الممرضات، والطاقم الطبي، والزوار، وعمال النظافة، كم كان يسعدهم تلميعك مرات عدة في النهار، لتشرق الشمس في رخامك. ألا إنه خليق بالمرء أن يصبح عامل نظافة حين يرى ممراً مثلك.

ومضيت حتى انتهى بي الممر إلى ردهة واسعة، كما هو جدير بممر جيد مثله أن يفعل. أخطرت الاستقبال هناك بوصولي، وجلست في مقاعد الانتظار. ظللت أنتظر كمن يملك كل الوقت، حتى إنني أخذت أتطلع في من يجلس حولي، متحدّياً. ولم يكن أحد منهم يملك ما أملك من وقت، ثم مددت قدميَّ مباهياً بتلك المعرفة.

نادتني الممرضة وقامت بواجباتها؛ أجرت فحوصات للتأكد من أن نسبة دمي مناسبة للبدء في العلاج، وطلبت مني الانتظار مجدّداً. وكانت بهية الطلعة، لها وجه دائري مشرق كأنه رغيف، وخدّان مضرجان بالدماء يدلّان على العافية. ثم عادت وقالت إن كل شيء على ما يرام ونسبة دمي ممتازة، وصرت فخوراً لأول مرة بنسبة دمي. وبدأت الجلسة على خير حال. كانت معنوياتي مرتفعة، وكانت الممرضة حذرة ومتفهّمة، وقد شرحتْ لي كل ما ستفعله، وكيف ستجري الحقن في الوريد عبر «كانيولا» تغرسها في ظاهر الكف. وترجمتُ تلك الكلمة فورياً، فوجدت معناها «قُنَيَّة»، وشعرت برغبة استخدامها في الكتابة، حتى إنني أخذت أردّدها بصوت مسموع كي لا أنساها لاحقاً.

وكما قالت بالفعل، أخذ السائل يقطر ببطء، متّخذاً دربه إلى القُنَيَّة عبر أنبوب نحيل، والأنبوب يمتد من كيس ممتلئ بالمادة الكيميائية الشفافة، والكيس معلقٌ بخطّافٍ معقوف كشصّ صنارة، والخطّاف يشكّل الجزء العلوي من قضيب معدني طويل، والقضيب يقف على عجلات تساعدك على اقتياده معك أينما ذهبت، وفي وسطه يتربّع جهاز المحاليل الذي ما فتئ يقدّم معلومات وأرقاماً وأصواتاً رصينة، ووظيفته أن ينظّم معدل القطرات التي تسقط إلى وريدك في الدقيقة. ألا إنه اختراع رائع حصيف.

كان المقعد محجوباً عن الممر بستارة قماش تنسحب، وتفصل المقاعد عن بعضها البعض ستائر أيضاً، والمقعد الجلدي الواسع كان مريحاً وينحني للخلف، فتشعر بأن ما يتدفق في وريدك إنما هو بنج مخدّر. فكرت أني على خير ما يرام، وما هذا السائل إلا خدعة؛ مجرد تيار من البرودة يسري في العروق. وأخذت أنتظر وأنظر إلى يدي وأخاطبها بصوت مسموع: «كيف حالك الآن أيتها اليد؟ أم إن أوان معرفة ذلك لم يحِنْ بعد؟»، كما يفعل الشيخ في رواية همينغواي. ويدي ظلّت تنظر وتشرب السائل بصمت ولا تجيب، وهي من هذا النوع الصامت من الأعضاء الذي يصعب التنبؤ بما يفكّر به؛ هذه اليد القديمة الجيّدة. وقد أكدت الممرضة أنها يد ممتازة ويمكن الاعتماد عليها، وذلك حين لم تجد صعوبة في تبيّن الوريد، ثم ربّتتْ عليها بعد أن غرزت الحقنة، وغادرتْ عبر الستارة.

خرجت من وراء الستارة بدوري بعد مدّة. لم أكن متأكداً بعد من أريحيتي في الحركة، وفي أي الاتجاهات يُسمح لي أن أتجول، فوقفت بجوار باب العنبر، وألقيت نظرة شاملة على المكان، وأخذت أتطلع لأعرف كيف يتصرف الناس. لم يكن ثمة الكثير من المرضى،

فقد كان منتصف أسبوع على كل حال، وبدا العنبر خالياً والممرضات مسترخيات. رحت أتابعهن وهن يتحرّكن بتمهّل، ويدخلن عبر الستائر المغلقة أو يفتحنها خارجات، وبعضهن رحن يبتسمن في وجهي مشجعات إياي على التجوال في الجوار. فكّرت أن الأمر لن يطول بي قبل أن ألفت الأنظار، فقد كنت جديداً هنا رغم كل شيء، ولعل الممرضات يبدأن بالارتياب لوقوفي هكذا طويلاً قرب الباب. رحت أمشي ببطء وخطوات قصيرة، وأنا ممسك عن قرب بالقضيب الذي يكاد يبلغ طولي، ولا بدّ أني بدوت مثل عجوز أجرى عملية قسطرة للبول.

وجدت غرفاً ورحت أسلّي نفسي بفتح أبوابها. كانت هناك غرفة مخصّصة للملاءات البيض، وكانت اللوحة خارج الغرفة تقول: غرفة البياضات النظيفة. ألا إن الملاءات تحظى هنا بكثير من الإعجاب؛ فعلاوة على أنها تملك غرفها الخاصّة فهم يسمونها بياضات. استحسنت هذا ثم أكملت سيري، ووجدت باباً آخر يقول: غرفة الاستراحة. وحين فتحته كان في الداخل ممرضات جالسات وتتحرك أفواههن بالطعام والكلام، وقلت: لا بد أنها استراحتهن.

التفتن نحوي وتوقفت أفواههن عن المضغ والنطق. أغلقتُ الباب فوراً فيما أسرعت إحداهن تهتف: «هل تحتاج مساعدة؟» كأنها ترمي شيئاً من فج الباب قبل أن ينغلق. ومن الخارج قلت: «لا، شكراً»، وأسرعت أبتعد دافعاً بالقضيب. وجدت نفسي مجدداً وسط الممرضات اللاتي لم يكن وقت استراحتهن، وإذا بممرضتي ذات الوجه الرغيفي تخرج من غرفة البياضات، وفوق ذراعيها ملاءة بيضاء نظيفة، مطوية بكثير من العناية والاحترام. تابعتُها إلى ممر جديد، وهي تتجه بالملاءة نحو أحد الأسرّة. وحين دخلتْ على المريض والتفتت

لتسحب الستارة وتغلقها عليهما، كان على وجهها تلك الابتسامة الدافئة المشعّة، كأنها ستقدم له إكسير السعادة.

ابتسمت مستحسناً كل ما أرى وأنا أواصل المشي، وقد صرت أقتاد القضيب بكياسة، كمن يقود واحداً منها منذ سنين. في الممرات، كان ثمة مرضى قد تركوا الستائر مفتوحة، وبعضهم أغلق ستائره، وبعضهم يستلقي على أسرّة، وبعضهم يمشي مثلي بالقضيب. وكان ثمة فتاة تجلس خافضة رأسها إلى حجرها، وحين عبرتُ بها أبطأت خطوتي مخففاً برصانة من سرعة العجلات. وعجباً عجباً فقد كانت تقرأ. ووجدت نفسي أصيح بها من دون مقدمات: «ماذا تقرأين»، أو شيء أخرق كهذا. وهي رفعت رأسها وحدّقت بي، ثم اكتفت بأن رفعت الكتاب وهو لا يزال في حجرها، كمن لا يقوى على نطقه أو رفعه كاملاً، فتبيّنت العنوان ونطقتُه بصوت مسموع: «سوزان سونتاغ: إلنس آز إي ميتافور». واستنتجتُ أنها من نوع الأشخاص الذين يهتمون بقراءة أشياء جدّية نافعة، أو ذات ارتباطات مباشرة بالواقع، أو أشياء باللغة الإنجليزية. وهي ابتسمتْ للهجتي الإنجليزية المريعة واستوتْ في مقعدها، وقد أخذ النشاط يدبّ في أطرافها؛ نشاط من الواضح أنه لم يكن لينبعث إلا للحديث عن الكتب:

- «كتبتْه سونتاغ بعد إصابتها بالسرطان. هل قرأته؟».

هززت رأسي نافياً.

- «جدير بالاطلاع. اقرأه ولن تندم».

هززت رأسي موافقاً.

- «هل تقرأ شيئاً إذاً هذه الأيام؟».

- «الشيخ والبحر».

- «وعن ماذا يتحدث؟».

- «عن الشيخ والبحر!».

- «ماذا عنهما؟».

- «في البدء اصطاد الشيخ سمكة، ثم صار يحترمها، ثم أحبها، ثم أحسّ بأنها أخته، ثم تمنى لو أنها عاشت ومات».

- «رواية؟».

- «نعم، لهمينغواي».

- «لا أحب الروايات. قرأت مرّة لموراكامي بعد أن سمعت عن رواياته الأكثر مبيعاً، ولا أنوي تكرار التجربة».

- «أتفهّم تماماً، ولو أني لم أقرأ من الأدب سوى موراكامي لفضّلت أيضاً أن أغير توجّهي للقراءة عن الأمراض المميتة أو علم النباتات».

وقد وقع هذا في نفسها موقعاً حسناً، فأبدت تقبّلاً أكبر لقراءة همينغواي.

- «هل أحضرت الرواية معك؟».

- «لم أحضر شيئاً معي».

- «لا بد أن تحضر شيئاً، إن كنت ترغب في أن يمر الوقت سريعاً».

واصلنا تبادل الحديث، وكان كله تبادلاً حسناً، وأنا كنت واقفاً أتشرّب سائلي، وهي جالسة تتشرّب سائلها، وأنا أمسك قضيبي وهي لا تمسك قضيبها، كمن صار ناضجاً بخصوص امتلاكه لقضيب. كان واضحاً من مظهري أنها جلستي الأولى، وكان واضحاً من مظهرها أنها تمرّست في الأمر. وقد عرّجنا بالحديث إلى المستشفى وحالاتنا

السرطانية وتفاصيل العلاج، حتى كادت جلستها تنتهي، فعرضت عليها أن أرسل لها نسخة من الرواية إلى بريدها الإلكتروني، وهي أحجمت قائلة إن تلك حيلة مني للتواصل معها، وحين لاحظتْ جدّيتي وارتباكي واندفاعي في التبرير سرعان ما ابتسمتْ ومدت لسانها، ففطنتُ أنها كانت تعبث. ورغم الظرافة التي قصدت بها تلك الحركة، إلا أن ابتسامتها المنهكة وانطفاء ملامحها، بل وحتى لون لسانها، كانت بعيدة عن مقاصدها إلى حد ينفطر له القلب. راحت تكتب لي بريدها في ورقة فارغة اقتطعتْها من آخر الكتاب، وأثناء ذلك رحت أتطلع إليها ملياً، بطريقتي المريبة دائماً في تحليلهن بصرياً حين ينشغلن عن ردع نظرتي.

كان رأسها حليقاً، وربما ينقصها ثدي، ما عدا ذلك فهي تبدو بمظهر حسن نسبياً، فقد كانت هادئة الملامح، رائقة التعبير، رقيقة الإيماءات، وهذا أفضل ما يمكن قوله عن فتاة بعد دورتين من العلاج. كانت تملك أيضاً نوعاً ظريفاً من الاضطراب في الكلام، نتيجة انتشار سرطانها إلى الدماغ؛ وقد ذكرتْ أنها تملك في رأسها ورماً بحجم بيضة، واستحسنتُ منها هذه الاستعارة. بمجرد أن تنهي جلستها الثانية عشرة ستجري استئصالاً لتلك البيضة. أما لو اختارت عدم إجرائها، فيمكن لتطورات الورم أن تؤدي للعمى أو إلى شلل شبه تام. وحتى مع نجاح العملية، سيظل هناك احتمال تأثّر قدراتها الذهنية مستقبلاً؛ وكان يمكن من نبرة صوتها فقط أن تخمّن عدم توافق ذلك مع خططها. ومع هذا كان صوتها آسراً مخدّراً، ولعلها في أشد لحظاتها مرضاً كانت تفتح فمها بالحديث لتهدئ نفسها، فتستظرف كلامها وتستعيد ثقتها وتشعر بالتحسّن؛ ولعله يكفي أن تملك صوتاً كهذا لتشعر أنك عشت حياة رائعة كاملة.

حين ودّعتها كان وجهها يترك في داخلي وخزة كصبّارة في القلب، وفكرت أني أحبها منذ الآن. لكن ما إن عدت إلى مقعدي أخيراً حتى صرت أكثر عقلانية بخصوص مشاعري. تابعتها من مكاني وهي تخرج عبر الممر، مع أختها الكبرى التي أمسكت بها من ذراعها، وفي يدها الأخرى المتحررة كانت تحمل عكازاً، من ذلك النوع الذي يستند إليه المرفق، وقد بدا واضحاً من طريقة رفضها لمساعدة أختها أنها لا تتفق مع خططها. أغلقت ستارتي وأغمضت عيني لأخلد للسكون.

من الستارة المجاورة لي، قاطعني أنين خافت لا يمكن تحديد عمره، أو جنسه، أو حتى إذا ما كان صوتاً بشرياً. وددت لو أستطيع أن أطلّ عليه فأطلب منه، بحق الإله، أن يتألم بصوت أخفض قليلاً.

لا أدري كم مضى من الوقت. أيقظتني الممرضة وهي تقول إن الأمر انتهى. رفعت رأسي لأجد الكيس الشفاف وقد فرغ؛ السائل بأكمله يتوزع الآن داخلي. لم يكن يختلف في شفافيته ودرجة سيولته عن الماء، لكن الشعور بسمّيته كان ينبع من حركات الممرضة. كانت قد وضعت مئزراً بلاستيكياً فوق لباسها، ونظارة وقاية طبية على عينيها، وقفازاً مطاطياً شعرت بملمسه البنفسجي الجاف على ذراعي وهي تسحب الإبرة. ثم أخذتْ الإبرة مع القنية والأنبوب والكيس الشفاف وألقتها كلها في حاوية وأغلقتها جيداً. كانت الحاوية صفراء وعليها رمز تحذيري يشير للمحتويات الكيماوية ويشبه هيئة مخلوق فضائي، وكأن مجرد ترك إحداها مفتوحة يمكن في حد ذاته أن يسرطنك. وتساءلتُ لحظتها عمّا سيحدِثه السائل من أثر في جسدي إذا كان يستلزم منها كل هذا الحذر كي لا تلامسها ذرة واحدة من بقاياه من الخارج.

خرجتُ من المستشفى والسماء مشمسة، ودرجة الحرارة تبلغ الخمسين، وكأن الظهيرة الحارقة إنما تنبعث من جوفي. أعراض العلاج لم تبدأ بعد، ليس قبل 12 ساعة على الأقل. غداً دواء آخر، وبعد غد يتكرر الأمر، ثلاثة أيام متتالية من كل شهر، ستة أشهر على أقل تقدير، ثم تتكرر الدورة إن لم يحدث الشفاء. في نهاية هذا اليوم سأكون قد انتقلت من عالم الأصحاء إلى عالم المعتلّين، وفي ظرف شهر فقط من علمي للمرة الأولى بالمرض. إذا كان هذا الانتقال يبدو سريع الوتيرة أكثر من اللازم حين أكتبه هنا، فلأنه يحدث هكذا أيضاً في الواقع.

الأسبوع 18:

كنت أتصوّر أني سأملك أشياء أكثر لكتابتها، وها أنا أكاد أتم الشهر في انقطاع تام. الأيام مضت برتابة، متشابهة وقصيرة. الإعياء زائر يومي، لكني أعتاد حضوره. في بعض الأيام أسوء أكثر، لكني توقّعت الأسوأ. أحياناً، أكون مسترخياً وفي حال مستقرة، وأشعر بأن المرض رحيم لأنه يسمح بهذه الحالات المتفرقة من الرخاء بعد التعب.

في الأسبوع الأول لم أكد أغادر السرير. شيء ما كان يتّقد داخلي ويتركني في حالة جفاف. شربت الكثير من الماء، خصوصاً خلال الأيام الثلاثة للجلسة، ولعل هذا كل ما تناولته خلالها أو استطعت الحفاظ عليه في جوفي. بحلول نهاية الأسبوع كانت هناك تقرّحات الفم وصعوبات التنفس. جلدي تهيّج قليلاً، وثمة ضمور طفيف في العضلات. أحياناً تؤلمني عظامي، كما لو أطلت الجلوس على مقعد خشب؛ باستثناء أن الألم يبقى فترة أطول، وينتشر في كامل الجسد.

أمضيت وقتي في القراءة قدر المستطاع؛ أو بحسب ما يسمح الصداع. حين تستعصي القراءة تماماً، أغفو قليلاً، وحين أستيقظ يكون

بإمكاني المحاولة من جديد. حاولت متابعة رواية توماس مان الطويلة التي بدأتها في القطار، لكنني لم أنجح في التقدم سوى بضع صفحات. ليس ثمة صعوبة في السرد، إنما الثقل يكمن في ذهني. صرت أفضّل أن أقرأ ثلاثة أو أربعة كتب في الوقت نفسه، متنقّلاً من أحدها إلى الآخر بحسب المزاج؛ هكذا أحافظ على انتباهي فترة أطول.

أحياناً أكتفي بالاستلقاء حتى يعاودني النعاس. أبقي المكيّف على درجات مرتفعة من الحرارة، لأني أبرد سريعاً، لكن من دون أن أطفئه أبداً، لأني أحب الطريقة التي يعبر بها الهواء جسدي. كما أن صوته يبعث على الاسترخاء، والصمت التام يوقع في النفس أفكاراً غريبة. إذا نمت، كثيراً ما تراودني الكوابيس. أدرك أنها تنشأ بتأثير من الأدوية لكن هذا لا يقلّل من أثرها السيئ شيئاً.

سابقاً، كان من النادر أن أحلم، وكان هذا يشعرني بالنقص. وقد حدث مرة في صباي أن قصصت لأخي حلماً، فقال إن هذا حلمه هو، وأنه حكاه لي بنفسه قبل عدة شهور، رغم أني كنت متأكداً أني رأيته بنفسي، ولعلي غرت منه فسرقت تجربته. وكثيراً ما استحضرت في ذهني قصة تارتيني، الذي عزف له الشيطان في كابوسه مقطوعة موسيقية، وحالما استيقظ كتبها فصارت تحفته. كنت أرجو أن أصاب بإلهام مماثل، وأن تنتمي كتاباتي إلى أحلام كهذه، إلى عوالم سريالية غنية بالرؤى والخيالات. أما الآن، فكل ما أحاول فعله بعد استيقاظي هو أن أنساها في أقصر مدة ممكنة. أنصرف فوراً إلى الانشغال بالسكون، بالاستقرار، بالحركات الرتيبة الجافّة، جاهداً كي أمحو من نفسي كل الاستثارات المزعجة الناتجة عن تلك الكوابيس. عندها، لا يتفاعل جسدي إلا مع انشغالاته اللحظية: الآن يجب أن أتدثّر، الآن يجب أن أزيح الغطاء، الآن يجب أن أنقلب على هذا الجانب، الآن

يجب أن أرخي الآخر. لا يتنبّه إلّا للتأثيرات الحيوية المجرّدة، التي يشعر بها حيوان أنه جائع أو يرغب في المضاجعة، لكن من دون تلك الرغبتين.

يحدث أن تأتي أمي وتسألني إذا كنت أرغب في شيء. أجيب بعد تكرار السؤال، لأنها لن ترحل من دون ذلك. ومع هذا تفتح الباب على آخره وتدخل. الهواء يخرج من الغرفة ودرجة الحرارة تتغير. تضع طبقاً من الطعام وتقول إني يجب أن آكل. تحمل الطبق السابق الذي لم يكد يُلمس، وتأخذ بترتيب الأشياء من حولي. «كيف تتوقّع أن تشفى وأنت محاط بالقذارة؟!». كأني أتعمّد منع شفائي بيدي، أو أطيل مرضي نكالاً بها. أعذرها لأن اللوم طريقتها في أن تقول أنها ترغب في المساعدة. هذا لم يمنعني من التجادل معها في أوقات سابقة، لكن يحدث أن أكون أشد إرهاقاً من أن أرفع مرفقي.

صمتي يشجّعها لكي تشعر بأنها أمي، وتمارس صلاحيات أكبر.

- «أرح المكيف قليلاً، لا بد أنه لم يتوقف عن العمل منذ أيام».

وقبل أن أستجمع القوة لأعترض، تكون قد أطفأته. بمجرد أن يتوقّف هديره، أفقد خطاً إضافياً من خطوط دفاعي. تلقي نظرة أخيرة، يدها تتكئ على مقبض الباب، ثم تخرج من دون أن تغلقه. صدى المقبض المعدني يتردّد في الغرفة. فقط بضع قطرات تسقط من المكيف على البلاط، متباعدة شيئاً فشيئاً، ثم صمت تام. الضوء الصناعي الباهت عبر النافذة يرقّش جسدي المكشوف. صمت تام. أبلع ريقي ببطء، أسمع صوت اندفاعه في بطني، يختلط بعصاراتها، ثم ينتج تفاعلهما صوتاً جديداً. عملية واحدة ضمن ملايين العمليات الحيوية المتداخلة، في جسم غريب لا أشعر بأنه يمتّ لي بصلة.

كيف يعمل هذا التكوين المفتقر للتجانس؟ هذه الأحشاء، الأخلاط، الغدد، الأعصاب، الأنسجة، الكريات، الخلايا، أين من كل هذا تكمن الروح؟ ملايين الخلايا في حركة دؤوبة ملحّة، في صراع للبقاء، وسموم تفتك بها وتحرق الأخضر واليابس معاً. كيف يبقى للمرء بعد هذا أي طاقة للتماسك؟ فجأة أشعر بكل شيء ينهار دفعة واحدة.

أكب وجهي على المرحاض، وأفرغ جوفي كله، ثم أفرغ جوفي أكثر، حتى لا يتبقى ما أفرغه، لكن لسبب ما أواصل الاستفراغ. ربما سيكون الأمر محتملاً لو أعرف متى يتوقّف. أشعر بأني سألفظ أحشائي في المرحاض، لو استمر الأمر هكذا ربما سأتقيأ الكبد والمرارة والبنكرياس وأشياء أخرى أجهلها. لكن أتقيأ ولا يخرج إلا الفراغ، أتقيأ وتدمع عيناي، كما لو أكاد أتقيأ عينيّ أيضاً. لو كنت أشد حساسية لفكرت أن ثمة ما ينكسر داخلي، لكني لم أكن يوماً قادراً على البكاء. إنها مجرد دموع لا إرادية فارغة، تسقط تافهة في مرحاض مترع بالقيء، مجرد عملية حيوية أخرى. أفكر أن أسكن هناك قليلاً، ووجهي محدّق إلى الأسفل، فقط حتى أستعيد قوتي؛ يداي تشدان على جانبيْ المرحاض، وباطنهما متعرق. أستجمع قواي وأرفع إحداهما بثقل، أضغط صندوق الطرد، ينسحب القيء في دوامات صغيرة ويُستبدل بماء جديد. شيء من بقايا القيء يعود إلى السطح؛ أراقب هذا لأني أشد إعياءً من أن أرفع نفسي. وحين أظن أن الأمر انتهى، ينفجر جوفي مجدداً ببركان جديد. أكاد ألفظ بطني كله، ولا يخرج إلا سيل لعاب، يتدلّى بسخافة من شفتين جافتين من دون أن يصل للمرحاض. أبصقه، وأبصق أكثر، لمجرد الرغبة في البصق. أهدأ قليلاً، وأتقيأ بعده أكثر. بعد فترة لا يعود هناك حتى لعاب، مجرد أصوات صماء، زفير عقيم، فراغ هائل يفصلك عن كل ما سواك.

أمدّد جسدي فوق أرضية الحمام، أغمض عيني خائراً منهك القوى. أستريح قليلاً قبل أن أفكر بالنهوض. ثم بمجرد أن أقف، أشعر بنفسي ثقيلاً، كأني خسرت عشر كيلوغرامات دفعة واحدة.

كانت أمي تقف خارج الباب وتستمع بذعر. ومع كل نوبة تقيؤ جديدة، كانت ترفع صوتها لتسألني إن كنت بخير. وحين لا أجيب، تظل تنادي بقلق لا يخلو من اللوم، في محاولة للإحاطة بما يجري؛ إنه لوم تمارسه لا شعورياً حين أفزعها إلى هذا الحد. ثم ما إن أفتح الباب حتى تساعدني على العودة إلى السرير، وأستشف منها التعاطف التام والرغبة في التخفيف قدر المستطاع. لكن أثناء هذا يكون في عينيها نوع من الرجاء إليّ ألّا أبدو عليلاً أمامها إلى هذا الحد. كانت تعلم أن مجرد تظاهري بالتحسن أمامها لن يغيّر من درجة تألمي شيئاً، لكنها كانت سترضى بما يمنحه إياها ذاك الوهم.

كنت أتفهّم هذا جيداً، فقد كان في حالتي تذكير مرير لهم بحدود صحتهم، وسهولة انقلابها عليهم بين ليلة وضحاها. كنت أرزح في ذاك العالم المعتلّ الذي يتورع عن اقتحامه الأصحاء، حتى لو كانوا على هذه الدرجة من القرب منه. أما محاولتهم الإحاطة بي باستمرار وسعيهم للتواجد حولي فكانت نوعاً من التضامن السطحي، الذي يخشى الانخراط في الأمر إلى حدود اللاعودة. أتذكر بدوري شعوري بالانزعاج في العنبر، وأنا أستمع للأنين الذي كان يصلني عبر الستارة المجاورة؛ ربما لأن أنينه ذاك كان نذيراً مسبقاً بالوهن الذي سيؤول إليه جسدي يوماً ما.

في الأسبوع الثاني بدأ شعري بالتساقط، أو بالأدق: بالتفكك في دفعات كبيرة، كما لو كان قد أُلصق بغراء رخيص. وحين أخذ

يتوزّع بغباوة على الأرض والمخدة والكرسي وكل ما يلمسه، جززته كاملاً. ما إن رأتني أمي برأسي الحليق حتى غرقت في نوبة عنيفة من البكاء، كأني لم أصب بالسرطان إلّا الآن. كنت أتحسّس في نظرتها شعورها بأنها تحدّق إلى جثة، فأتحيّن الفرص لمجادلتها كي أواجهها بشعورها ذاك. وشيئاً فشيئاً، صارت تتورع عن دخول الغرفة خشية أن تستثير أعصابي بدموعها، أو ترسل أخي ليتفقدني عوضاً عنها بين حين وحين.

كان لأخي عموماً أساليب أقل جنائزية، لكنها لم تكن أقل إثارة للأعصاب. حين أبلغته بالمرض بعد عودتي من العاصمة، كان يسأل: هل ترغب أن أؤجل الزفاف؟ بتعبير من يخشى أن يكون في استمرار التجهيزات ما يسوؤني. وقد ظلّ يكرّر السؤال كلما عزم على مواساتي، ولعله كان رد فعله الوحيد. أختي كانت تقف إلى جانبه حين أبلغتهما الخبر. كانت تبدو متأثرة حقاً، ثم راحت تضع كفها على كتفه وتطبطب عليه، فتبدّى لي أن تأثرها إنما يصدر من رد فعله ذاك، ومن خشيتها أن يُقدِمَ فعلاً على تأجيل الزفاف. أجبته بأن الأمر لا يستدعي هذا، وأفضّل أن تسير الأمور كما كان مخططاً لها. ما زال موعد الزفاف في الشتاء القادم، ولعلي أكون وقتها قد شفيت، فالعلاج لا يُفترض أن يأخذ أكثر من ستة شهور. وهي راحت توافقني للمرة الأولى في حياتها، وتطبطب على كتفه لتحرّضه على القبول. المسافة القديمة بيني وبينها لم تتغير بعد المرض، بل زادت توتراً وكتماناً. لكن كان بإمكاني أن أطمئن من ناحيتها على الأقل أنها لن تتدخل في شؤوني وتزعجني بأي اهتمام مفرط، عكس أخي تماماً.

حين ترسله أمي ليتفقدني، كان يطرق الباب بهدوء ويستأذن للدخول بصوت خفيض، ممعناً في إيضاح أنه لا يرغب في إزعاجي.

يدخل ويجلس بجانبي فيما أنا مستلقٍ على السرير، ويضم ركبتيه إلى بعضهما، مؤكداً أنه لن يزاحمني بجلوسه. ثم يبتسم ابتسامته الودودة، المضطربة، التي تقول: انظر كم أنا ودّي وقد جئت لأفرّج عنك. وكأنما كنت أنتظره كي يخفّف وحدتي. شعوره بالذنب من الاستمرار في تجهيزات الزفاف لم يكن يساعد. وفوق هذا، كان يرى أن من واجبه أن يظهر اهتمامه، كبديل لوالدي، رغم أنه لم يشعر حولي قط بالارتياح. وكانت كل نبرة أبوية منه تزيد من احتقاني أكثر فأكثر تجاه ذلك الدور الزائف الذي يفترض بي إسناده ودعمه.

وذات مرة دخل عليَّ وهو يقول: «يجتاحك الملل؟». وهنا لا أستبدل لفظة دارجة بأخرى فصيحة، بسبب تأثري بالروايات المترجمة أو شيء من هذا القبيل، بل كانت تلك حقاً هي الكلمة التي استخدمها، «يجتاحك»، وقد ظنّ، لمجرد معرفته بحبي للأدب، أني خليق بأن أنخرط في نبرة الحديث تلك، وأنها ستسرّي عني وستقرّب بيني وبينه. استفزني هذا أشد الاستفزاز، أما هو فظل يحاول التظاهر بالمرح أمام تجهّمي الصموت في المقابل. وحين لاحظ أن محاولته للنزول إلى مستواي لم تجد نفعاً، سألني كيف حالك، بنبرة جادة تقول: انتهى وقت المزاح والآن سننتقل لما يهم.

- «لا بأس»، أجيب، من دون أن ألتفت نحوه.

- «كيف صحتك؟»، يعيد.

- لا بأس.
- ما أخبارك؟
- لا شيء جديد.
- هل تتألّم؟

- لا شيء جاد.

- ما الذي يؤلمك تحديداً؟

- لا تسأل.

وقد يظن المرء أن الأمر سيتوقّف هنا، وأن أي نغل يملك ذرة فهم سيتوقّف عن طرح الأسئلة عند هذه النقطة، لكن هذا اللعين كان يصر على تجاوز رغبتي في السكوت، كأن مصلحتي تكمن في الاستمرار في الإجابة. وحين أكمَلَ بعدها:

- «هل تحتاج مساعدة؟»، أجبت بنبرة هادئة:

- «لا تبالغ». وكان هذا كفيلاً بأن يقطع عليه أي إمكانية للاستمرار.

جلس صامتاً في مكانه، وقد ضم ركبتيه إلى بعضهما أكثر من قبل، كأنما انكشفت عورته. مثلي، كان قد حمل هذه العبارة منذ الطفولة كصخرة على ظهره، ومجرّد سماعها كان كفيلاً بأن يسقط عنه كل أردية الادعاء. ومن دون أن يقول كلمة أخرى انسحب، وهو يتمتم بأدعية غير مفهومة لم يكن رغم حسن نيّته، أو بسبب حسن نيته بالأصح، يرغب بأن أسمعها.

ببلوغ الأسبوع الثالث من العلاج، تتراجع تأثيرات الأدوية المسممة، وتبدأ الخلايا السليمة بإعادة بناء نفسها، لأنها أسرع قدرة على تجديد نفسها من الخلايا المسرطنة. وشيئاً فشيئاً يستعيد الجسد شهيته ويتزود بالغذاء والدماء، فإذا به يستمد من تجدد قواه الجسدية تجدداً روحياً أيضاً. يشعر المرء المتنشّط في هذه المرحلة أنه ينبعث للحياة من جديد، بل ويجد نفسه في حالة انتعاش تفوق تلك التي يملكها من اعتاد على صحته.

هكذا استشعرت في نفسي بَأساً يسمح لي باتخاذ ردود فعل أشد استقلالية. كنت أغلق باب الغرفة في وجوههم، وأرفض حتى مصاحبتهم لي إلى مواعيد المستشفى، وأبادر بنفسي متى ما احتجتهم لأي غرض، وفقط بقدر ما يتطلبه الأمر من مساعدة، ثم أشير إليهم بالانصراف عن طريق الإشارات، بعصبية جدٍّ يهشّ على حفيد يبالغ في العناية. كانوا يحتاجون إلى أن أبدي حاجتي لهم، لكن لم يكن في داخلي المساحة الكافية لمراعاة احتياجات الآخرين. خصوصيتي الجسدية كانت ذريعتي الدائمة لكل قطيعة، وحجتي الأقوى كانت ضعف مقاومتي للعدوى، إذ تنحدر المناعة بسبب الكيماوي فوق ما كانت متدنية بسبب المرض. بعد بعض المساومات، وافقت أن يثبتوا زر جرس عند السرير، كالذي يوضع في سرر المستشفيات، لاستدعائهم في الحالات الطارئة. كان هذا شرطهم الوحيد لكي يدعوني وشأني.

في البداية، كانت أمي تظن أن هذا الجرس لا يتعارض مع إصرارها على الدخول كل يوم لتسألني إذا ما أردت شيئاً. وفور دخولها كنت أرتدي قناع الفم. كانت هيئتي قد تغيرت بشكل جذري، بفضل رأسي الحليق وشحوبي وهزالي، وفوق هذا بدأت حواجبي بالتساقط بدورها. وكان كل هذا يرعب أمي بقدر ما يجبرها على الحفاظ على المسافة، وربما يساعدها أن تتصوّر أن هذا الجسد الغريب ليس لابنها، بل مجرد دخيل وجدته فجأة يحتل غرفة في البيت، وعليها لسبب ما أن تتقبّل وجوده وتعتني به بحسب مزاجه. كان ذاك نوع التحوّلات الشكلية التي يرافقها تغيّر جوهريّ، إذ تتبدّل تلك الهالة التي تحيط بالشخص وتستدل بها عادةً عليه؛ حتى إني حين أرى فجأة انعكاسي، من دون سابق إنذار، يستغرقني الأمر برهة قبل أن أدرك أن هذا أنا.

على كل حال، ها أنا في نهاية الأسبوع الثالث بعد الجلسة الأولى، وقد انسحبت أكثر أعراض الدواء لأخفض حالاتها، حتى أصبح من المعقول بالنسبة إلي العودة إلى ممارسة حياتي «الطبيعية». الأعراض المتبقية، الصداع وفقدان الشهية وآلام الظهر والمفاصل وصعوبات النوم، لم تكن جديدة عليّ. كان هذا الأسبوع موعد انتهاء رصيد إجازاتي الذي جمعته منذ أعوام. مطلع الأسبوع القادم أعود للعمل.

الأسبوع 19:

الساعة السابعة صباحاً. لا أزال مستيقظاً منذ الفجر، عاجزاً عن العودة إلى النوم. أغلق زر المنبه قبل أن يطلق رنينه الحاد. أستلقي بضع دقائق إضافية، قبل أن أنهض وأبدأ بالاستعداد. أنظف أسناني بفرشاة جديدة ذات شعيرات ناعمة تحول دون التسبب بنزيف لثتي. أستحم بصابون يخفف الحكة الناتجة عن تحسّس الجلد من الكيماويات؛ تلك طريقة جسدي في القول إنه ليس من السهل التأقلم مع تلك السموم.

أستغرق وقتي في اختيار ما ألبسه. أبدّل القمصان واحداً تلو الآخر، لأتأكد أيها أشد ملائمة لرأسي الأجرد. أرتدي زوج جوارب جديد، وأبحث عن فردة الحذاء المنزوية منذ شهر تحت السرير. أمد جسمي لألتقطها فأشعر باختلاف تيار الهواء في تلك البقعة الدافئة المظلمة. أبقى مستلقياً هناك أسفل السرير؛ يغمرني إحساس غامض بأن هذا مرتبط بذكرى ما من طفولتي، من دون أن أكون قادراً على استعادتها بالتفصيل. أفكر أن أبقى منزوياً مكاني حتى أنام هكذا بجانب الحذاء. ألتقط الفردة بتثاقل وأنهض مجدداً.

قبل أن أخرج، أتفقد مظهري أمام المرآة. أعدّل من وضع الحزام المتدلّي إلى أسفل زر البنطال. أدس اللسان الحديد في الثقب الثالث بعد أن كنت أدسه سابقاً في الثاني. «زنار الكيمونو الذي كان يلتف حولي مرتين، صار يلتف ثلاثاً». أتذكر قصيدة يابانية قرأتها مؤخراً، لشاعرة تصف هزالها بعد أن انتظرت عشيقها طويلاً ولم يأتِ. ومثل ياباني حقيقي، أرتدي اليوم قناع فم إلى العمل، كما يفعل الجميع في شوارع طوكيو وقطاراتها لتجنّب العدوى، خصوصاً في موسم تفتّح أشجار الكرز. كم كان خليقاً بي أن أنتمي بقناعي هذا لو كنت هناك.

عند الإشارة، تقف سيارة إسعاف إلى جانبي. أفكر كم هو ملائم أن أتعرّض لحادثٍ الآن. فالإحصاءات تقول إن الإنسان الطبيعي يتعرّض لحادث سير شنيع على الأقل مرة في حياته. وطالما أن الأمر سيحدث لا محالة، من الجيد أن تكون بقربي سيارة إسعاف عند وقوعه. في وضعي الجديد، أي جرح تافه ينذر بحالة طارئة، لأن النزيف لن يتوقف وحده من دون أدوية. الكثير من الأخطار منذ الآن، وعليّ أن أكون متنبهاً، كما لو أتحرّك باستمرار في ساحة معركة.

حين أصل، أتساءل إن كان بوسعي أخيراً أن أركن سيارتي في مواقف المعوّقين. أفضّل ألّا أفعل كي لا ألفت الانتباه. أدخل عبر الممر الجانبي المشبع برائحة الطلاء؛ أشعر أثناء سيري بالاختناق. أذكّر نفسي بما قاله الطبيب عن خطر التقاط أي عدوى عابرة، بهذا أقاوم رغبتي بنزع القناع. أصل الردهة وأنتظر المصعد. من عدد المدخّنين في الساحة الخارجية أخمّن أني وصلت بعد الجميع. أكبس زر الطابق العاشر، متجنباً أن ألمسه مباشرة. أتفقّد الحزام، أتأكد من سحاب بنطالي، أعدّل القناع على فمي مرة تلو مرة. ما زال يراودني ارتباك طالب يتّجه إلى المدرسة بقصة شعر جديدة.

أتذكّر أول يوم دراسي لي في المرحلة ابتدائية. كانت الحرارة شديدة ومع هذا أقاموا حفل استقبالنا في الساحة المفتوحة. قدموا لنا دوناتاً جافّاً وعصيراً ساخناً، وقدمت لهم الدموع. بمجرد أن تركني أبي هناك بدأت بالبكاء، وظللت أبكي على نفس الوتيرة طيلة اليوم؛ لا أذكر أني بكيت في طفولتي مثل هذه المرة. بكيت في وجه المدير والمدرّسين وعمّال النظافة، وبالأخص أمام حارس البوابة. أردت أن أوضح لهم أنهم خسيسون لأنهم لم يسمحوا لي بالخروج. حين انصرفنا في نهاية اليوم أقسمت على عدم العودة، لكني أنهيت العام الدراسي وأنا الأول في الفصل. لم يكن في هذا ما يبعث على أي فخر.

أمام القسم، وجدت باب الزجاج مغلقاً على غير عادته. حين قرعت بهدوء، هرع اثنان من الداخل باتجاهي، كأن ما ينقصني هو لفت الأنظار. فتح أحدهما الباب عن آخره وظل واقفاً هناك ممسكاً لي به. الآخر وقف أيضاً محدّقاً نحوي، حتى بعد أن تجاوزته. نزعت القناع عن وجهي وحثثت الخطى إلى المكتب. رغبت أن أجلس فوراً كما يرغب المرء أن يندس في حفرة.

كان المدير ذو لغد الديك على علم بيوم عودتي، إذ استلم نسخة من تقرير المستشفى أثناء إجراءات الموافقة على التأمين الصحي. ولم أستطع منع نفسي من الشعور بأن ابن العاهرة ذاك ألقى تنبيهات على بقية الموظفين، يدعوهم للالتزام باللباقة والمراعاة تجاهي حين أعود إلى العمل. وكانوا في تطبيقهم لتلك التنبيهات على قدر عالٍ من الاحترافية؛ خصوصاً ابن العاهرة الآخر، رئيسي المباشر. لم يكن ثمة في تصرفاته أدنى علامة على وجود تعارض بين الجدية الآلية التي تتطلبها سلطته وبين المراعاة الإنسانية التي يفترض حاجة موظفه لها، وكأنما لم يكن تلطّفه تجاهي سوى مهمة أخرى تلبي تطلعات الإدارة

عن الرئيس المثالي ومقاييسهم السرية للترقيات. ففور أن جلست، لاحظت غياب الورقة الصفراء على الشاشة والتي تفيد أني تأخرت، ثم جاء هو بنفسه ليقول إن بإمكاني أن أستأذن لأخرج في أي وقت أشاء. ولم يكن صوته الهامس قرب أذنيّ ما يثير الاشمئزاز فحسب، بل كفه التي وضعها فوق كتفي، بحركة تقول إن الوقت لم يفت على أن نكون أصدقاء.

ربطة العنق بجانبي ظل دمثاً بدوره، متجنّباً الالتفات، ممتنعاً عن الإدلاء بتعليقاته المعتادة عن أصوات بطني أو التدخل في ما أفعله على شاشتي. أما الأبلهان اللذان يجلسان أمامنا فقد امتنعا في وقت إفطارهما عن الاستدارة والثرثرة معه خشية إزعاجي. ورغم أن تأدّبهم المفرط أثار انزعاجي على نحو أشد، إلا أن أي رد فعل فظ من قبلي لم يكن خياراً، إذ خشيتُ أن يُعزى لنزعة طفولية غير مبرَّرة لاستغلال مراعاتهم وعجزهم عن مهاجمتي.

لقد وجدت أن مرضي هنا يرجّح كفتي في كل المواقف، ويحول دوني ودون السلاح الذي ظننت أني امتلكته حتى الآن. فعلى عكس حالي في الطائرة مثلاً، تجاوزي لصلاحياتي هنا لا يحدث بثقتي الذاتية وقدرتي على الظفر لنفسي ومفاجأة الآخرين، بل بمبادرات طيبة منهم تبدي استعدادها مسبقاً للتنازل، وتصرّ على منحي الأولوية حتى في دخولي الحمام؛ فضلاً عن ما يتبع هذا من نظرات مشفقة وتربيتات ومجاملات سمجة عن إشراقة مظهري وقوة عزيمتي وشجاعتي وما إلى ذلك مما يوصم به عادةً المرضى المحاربون. كان هذا بذاته قيداً جديداً لا يطاق. شعرت بشدة بأني أفتقد الشيخ الراحل، فقد كان حرياً به أن يعاملني من دون أي تغيير، ولعله لا يلاحظ.

تهرّبت من كل هذا بالانخراط في العمل. لم يكلفني رئيسي طبعاً بأي مهمة، لذا كان عليَّ أن أتدارك ما فاتني بنفسي. حين تفقدت ما في صندوق بريدي من رسائل إدارية، دهشتُ من كمية القرارات التي تم تمريرها هنا في ظرف شهر. كانت لدي فكرة مسبقة عن التطورات التي حدثت أثناء غيابي، فالخبر كان منتشراً في الصحف والتلفاز وتطبيقات التواصل: تسلَّل فايروس إلى أنظمة عدة شركات كبرى وتسبّب بأضرار على قواعد معلوماتها، فضلاً عن بعض المواقع الحكومية. كل هذا استدعى أقصى درجات الحذر من الشركات لحماية أنظمتها ومعالجة أضرارها وإعدادها لمرحلة آمنة جديدة تضمن عدم تكرار الحادثة. الأقسام الحساسة والمسؤولة عن معالجة هذه الفايروسات، وعلى رأسها تقنية المعلومات بالطبع، تقع على عاتقها المسؤولية الأكبر.

منذ الآن، على كل موظّف أن يوقّع وثيقة تمنح الشركة الحق في مراقبة ملفات الكمبيوتر واستخدام الإنترنت، لدواعٍ أمنية كما يقولون. هناك أيضاً كاميرات مراقبة جديدة في كل زوايا القِسم، لكن من دون مساهمة الموظف لن تغني الكاميرات شيئاً؛ أنت كاميرا المراقبة الأولى والأهم. يجب أن نتعاون جميعاً، ونكشف ما يدور باستمرار، لتعرف الإدارة كل صغيرة وكبيرة، فهدفها في النهاية حمايتك. وماذا قد نفعل بأسرارك، إذا لم تكن عميلاً؟ وما الذي يدفعك للتوجس، إن كنت لا تملك ما تخفيه؟ الخصوصية؟ ماذا تعني؟ لا تفرط في تقدير حياتك الخاصة. المزيد من الرقابة تعني المزيد من الأمن؛ لا تكن الحلقة الأضعف التي ينفذون خلالها إلينا. هل تفتقر للولاء؟ هل ترغب في أن تخسر الشركة المزيد من الأموال؟ هل ترضى بتهديد الوضع الاقتصادي للدولة؟ يجب أن تكون مسؤولاً. الحذر واجب،

والخطر مستمر، والعدو يمكن أن يتسلّل من أي مكان؛ ثمة ما هو أشد خطورة من خصوصياتك التافهة.

كان ثمة تغييرات على مستوى تصميم القسم أيضاً. فالباب الزجاج لم يعد يُفتح إلا بأرقام سرية لا يعرفها إلا الموظفون داخل القسم. والملفات الورقية والإضبارات القديمة التي كانت تتراكم هنا وهناك تم إخفاؤها وأغلق عليها في خزائن. وحتى على مستوى الديكورات، أُزيل كل ما هو فائض على الحاجة، لتبقى الشاشات والوجوه المحدّقة إليها مكشوفة طوال الوقت أمام الكاميرات وأعين المراقبة. فجأة، تذكّرت الصبارة وسألت عنها ربطة العنق بجواري. تلبّس وجهه محاولة مصطنعة للتذكّر، ثم سأل الرجل الذي بجانبه مباشرة. والآخر تنقّل ببصره بين السائل وبيني، قبل أن يصطنع الجدية بدوره ويحمل السؤال للرجل المجاور له. انتقل السؤال عبر الصف، ثم إلى الذي يليه، والذي يليه، كما لو كان أحد أهم معضلات العمل. الكل أبدى قدراً مفرطاً من التعاون في محاولة معرفة مصير النبتة حالما عرفوا أنها تخصّني. كانوا يتلفّتون إليّ، واحداً تلو الآخر، بأوجه معتذرة عن عجزهم في العثور عليها، كمن يعتذر عن عجزه على مساعدتي في الشفاء. أدركت فوراً وبشكل حاسم استحالة أن أبقى هنا يوماً إضافياً واحداً، وكأن الصبارة كانت القشة القاصمة.

توجّهت فوراً إلى مكتب الديك. قرعت الباب المفتوح، وبقيت أنتظر قبل أن يُسمح لي بالدخول. كان يجلس هناك في مقعده الجلدي الفاخر ذي الظهر الطويل، مشغولاً برزمة أوراق بين يديه، راح يتنقّل من إحداها إلى الأخرى كما لو يقارن بين معلومات ذات أهمية فائقة، من دون حتى أن يرفع رأسه لينظر من الطارق. كان مكتبه من الفخامة بحيث تشعر بأنه ينتمي إلى مبنى آخر، لا يمت بصلة لسياسة شركتنا

المتقشفة تجاه موظفيها، حتى إن الجدران كانت مدعمة بأسطح خشب مزخرفة، ملائمة لتصميم الخشب الصقيل الذي أُثثت به الطاولة. في مثل هذه المكاتب كانت تنشأ قرارات مراقبة الموظفين، ويُدفع بسياسات الأمن المعلوماتي بأهدافها المزدوجة: تعزيز الإنتاجية وإبقاء الجميع تحت السيطرة.

حين رفع رأسه أخيراً، ابتسم مرحّباً وأشار لي بالجلوس. سلمته خطاب استقالتي، فألقى عليه نظرة سريعة، وهو ينهض من مكانه ويلتف حول مكتبه، ولغده المندلق على عنقه يهتز تأثراً. من الواضح أنه كان ينتظر موقفاً كهذا طيلة حياته، تقاطعٌ إنساني يكمل الصورة المثالية التي رسمها لسيرته الإدارية العظيمة. كان يبتسم بشفتين مطبقتين، بحيث انبسط فمه المغلق إلى أكبر بكثير من حجمه الطبيعي، وقد جلس أمامي في الكرسي المقابل، شابكاً أصابع يديه المضمومَتَيْن إلى صدره، وكأنه قرد على وشك أن يقول حكمة. وكانت ابتسامته تلك، وجلوسه الموازي لي في المقعد، وكل حركاته المفرطة في تأكيد عدم رسميتها، تحاول لفت انتباهي إلى أنه لا يشكّل مصدر هيمنة علي، ولا يحاول صرفي عن رغبتي، وإن كان سيضطر لتوضيح بعض العوائق فلأن في مصلحتي أن أكون على إحاطة بها.

وهكذا شرع يوضح لي كيف أن استقالتي الآن تعني خسارتي للتأمين الصحي الذي تتحمّل الشركة نفقاته حالياً. بإمكاني عوضاً عن ذلك أن آخذ إجازة مرضية لثلاثة أشهر، براتب مدفوع في الشهر الأول ونصف راتب في الشهرين المتبقيين، وهذا أقصى ما يسمح به النظام، وبعدها يمكن العودة للعمل لو كانت حالتي تسمح بهذا، أو إحالتي إلى التقاعد الإجباري لو وجدوا أنفسهم مضطرين للاستغناء عن خدماتي. ظل يسرد تلك الأنظمة الرحيمة بتزلّف مشفق، وهو يمد

يده ليلمس ركبتي بين حين وحين، ويكرّر حركات استدراجية مفادها: «ألا ترى؟ ثمة متّسع للاهتمام بكل فرد في هذا النظام».

لم أملك إلا أن أوافق، فثلاثة أشهر من التأمين المجاني لم يكن شيئاً يمكن الاعتراض عليه، وبعدها سنرى ما يحدث. نهض ومدّ يده مصافحاً، وعلى وجهه الابتسامة نفسها التي استقبلني بها، ففهمت أنه قد حان موعد خروجي. ورغم أني لم أصافح أحداً حتى الآن بحجة تجنبي للعدوى، إلا أني لم أجرؤ أن أرفض يده الممدودة. وقبل أن أستدير لأنصرف، كان قد عاد لينشغل بكل جدية برزمة الأوراق التي كانت بين يديه، وقد بدت ذات شأن أهم بكثير من أن أقاطعه عنها.

عدت إلى المكتب لأقدّم طلب الإجازة كما قال المدير، يملأني شعور بالغيظ من اضطراري للإذعان. وفوق هذا، وجدت أن بعض الموظفين الآخرين في القسم يتابعني بترقّب، وهكذا يتبقى عليَّ أن أخرج وسط طبطباتهم الحانية، مودعاً إياهم وممتنّاً لمقدار ما أظهروه من مساندة. كان كل هذا متعارضاً بشدة مع خيالاتي التي تصوّرت بها طريقة خروجي الظافرة من هنا، باستغناء تام وحرية كاملة وقدرة على ركل كل ما يقف في الطريق. لكن يبدو أنه حتى حين يخرج المرء من مكان كهذا فعليه أن يخرج وفق ما يقتضيه النظام، وليس قبل أن يفقد جزءاً من ذاته هناك.

جلست إلى الجهاز وحدّقت في شاشتي، محاكياً طريقة الشيخ في تجنّب الآخرين بتسمير نظرته على شاشته. أخذت أجمع ملفاتي الخاصة وأرسلها إلى بريدي الشخصي، ثم محوت كل أثر لها من بيانات الجهاز ومن بريد الشركة. أثناء هذا وردتني رسالة جديدة من بريد مجهول. كان الإعلان يقول إني فزت بتذاكر مجانية ثمينة، لمباراة

في مونديال رياضي قريب، وكل ما عليّ فعله هو نقر الرابط لأتحصّل عليها. إنها حيلة تافهة نحذّر منها الموظفين باستمرار. بمجرد نقر الرابط، فإن الفايروس المخبوء هناك سينزل شفرة صغيرة على الجهاز، ثم يرسل نفسه إلى أجهزة أخرى، مستهدفاً خوادم الشركة التي تستخدم في تخزين البيانات، هكذا يتسلّل إلى أنظمة المعلومات لدى الشركة متلفاً إياها ومستمراً في الانتشار، بلا أي هدف سوى إحداث المزيد من الضرر.

انتظرت فترة الغداء ليغادر الجميع، ورحت أفكر بالأمر. لا يعمل فايروس كهذا بشكل مختلف جداً عن الأمراض، كما درست، ومن هنا تحديداً استمدت فايروسات الانترنت اسمها. كل فايروس هو عبارة عن حزمة من المعلومات، وحين تتسلّل لجهاز ما فإنها تنسخ معلوماتها في أنظمته، كما ينسخ فايروس معلوماته في الجينات التي يتسلّل إليها في خلايا الإنسان. لقد قرأت شيئاً من هذا أيضاً في كتاب سونتاغ عن المرض كاستعارة، والذي أوصتني به الفتاة ذات البيضة في الرأس. إثر ذلك التناسخ للفايروس من جين إلى آخر، يمكن أن تنحرف الوظيفة الطبيعية للجين منتجة طفرة، مما يجعلها تشكل احتمالات سرطانية. وحين يفتقر الجسم للدفاعات الكافية، يمكن أن ينحو هذا التبدل الجيني بالخلية إلى الخباثة، ثم الخلية التي تليها، ثم التي تليها، ثم التي تليها، وهكذا يتم التسرطن، على الأقل كما أدركه العلماء في بادئ الأمر. ألا إنه من المثير أن يدرك المرء التفاهة التي يمكن بها إحداث ضرر في نظام بأكمله.

بمجرد أن غادروا للغداء، نقرت على الرابط وخرجت، وبأقل قدر من الانتباه. الأمر الوحيد الذي ندمت عليه هو أنه لم يكن يسعني البقاء لأرى رئيسي يحوم غاضباً، ببنطاله الواسع وحذائه السكتشرز،

وعلى وجهه نظرة تقول «لا أصدق هذا». خطأي هذه المرة سيتجاوز حقاً قدرته على التعبير؛ أما الديك فلا يمكن حتى التنبؤ برد فعله. بالطبع خيار الاستغناء عن خدماتي لم يكن ممكناً في وضعي الحالي، ليس قبل ثلاثة أشهر على الأقل. فلكي يتجنّبوا التعرّض لأي مساءلة قانونية، نتيجة فصل موظف مصاب بالسرطان، لا بد أن ينتظروا انقضاء الإجازة الصحية للحكم أني لم أعد صالحاً للعمل. وإن سمحوا لي بالعودة بعدها، فيمكن دائماً إحداث المزيد من هذه «الأخطاء»، حتى اللحظة التي لا يعود فيها بإمكانهم مراعاتي أكثر من هذا. ثمة دائماً حد حين يتجاوزه المرء لا يعود مهماً ما يمر به من ظروف، ويصبح على قدم المساواة أمام العواقب مع أي شخص آخر. وربما، لأختبر قدرتي على اللامبالاة وحسب، وجدت نفسي فجأةً عازماً على تجاوزه.

الأسبوع 21:

أستيقظ فجأة. كل شيء يبدو غريباً حين أفتح عينيّ. ألاحظ أني في غرفة مستشفى. أتعرّق، أشعر بالبرد، تصطك أسناني. وجه الممرض الأسمر يخترق فجأة بياض السقف، ماذا يريد؟ يقف فوقي وينادي أحداً. يبقى محدّقاً نحوي؛ وجهه القلق مرآة لسوء حالتي. يدخل الطبيب في إطار السقف ويخرج منه الممرض. أراه يوجّه التعليمات، يتحدّث باتجاهي، ألاحظ بعد وهلة أنه يناديني، ثم لا أدرك شيئاً.

يمضي وقت. أفتح عينيَّ مجدداً، أتنفس بصعوبة. قناع أُكسجين على فمي. أنابيب تتدلى من كل مكان؛ ليس واضحاً أيها يدخل وأيها يخرج مني. العديد من القفازات البيض؛ ليس واضحاً أيهم المسؤول. يقترب أحدهم، يقيس حرارتي، يتحدّث عن فايروس ما، فايروس تسلل لنظامك، هاجم مناعتك. هل التقطته من العمل؟ لماذا نزعت قناع الفم؟ لماذا صافحت المدير؟ لماذا فتحت الرابط؟ هل انتقل الفايروس من الجهاز؟ قفاز آخر يقترب. ماذا يحقن؟ حقنة مهدئة، جسدك يحتاجها، يقول. لكنك لا تثق بجسدك، ولا تثق به. هل هو

طبيبك حقاً؟ ممرض؟ من هو؟ ربما كان يقصد مريضاً آخر، ربما أراد الغرفة المجاورة وجاء إلى هنا بالخطأ. يقول إنه يخدرك، تتمتم بشيء، ثم تغيب.

لا تدري كم غبت. يناديك صوت ما من مكان بعيد، وأنت أضعف من أن تفتح عينيك. يتكرّر النداء، يقترب أكثر فأكثر. صوت يريد منك أن استيقظ. بعين نصف مفتوحة أرى الطبيب. يصر على أن أفتح جفني بأكمله؛ يا للعناد. يسألني في أي يوم نحن، لا أجيب. يواصل الحديث. أستعيد الوعي شيئاً فشيئاً، متتبعاً إيقاع صوته. التقطت عدوى ما، ثم حمّى، ثم غيبوبة. متى حدث هذا؟ متى انتهى؟ لطالما أردت تجربة غيبوبة، من المؤسف أني لم أكن واعياً خلالها. أسبوعان كاملان قضيتهما في المستشفى، حالات قليلة من الوعي ونصف الوعي تحت سطوة المسكّنات. حالتي الآن مستقرّة، يقول. يجب أن تبقى في المستشفى تجنّباً لأي مضاعفات. يخرج وأبقى وحيداً في الغرفة.

بالنسبة إلى مكان احتضن تواصلي الأول مع العالم، لا أشعر في غرف المستشفيات بالكثير من الألفة. وبرغم ما شاهدته منها في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، إلا أن الأمر يختلف كلياً حين تصبح أسيراً لواحدة. إمكانية مغادرة السرير واردة، لكنك تبدو مقيَّداً من معصميك إلى حواجزه الجانبية. الأبواب مفتوحة، لكنها يمكن أيضاً أن تكون مغلقة ولن يُحدِث هذا أي فرق. كل شيء متاح، لكنك لا تشعر أبداً بالحرية. أفتقد القوة لأنهض وأخرج مثلما يفعل رجل ما على التلفاز.

أستلقي طوال الليل. الملاءات مطرّزة بطبقة من الخطوط تمنحها

مظهراً ثقيلاً، يبعث فيك الرغبة بأن تركلها بقدمك مرات متتالية. مع كل حركة من قدمك لإزاحتها يحكم الغطاء إطباقه فوقك أكثر؛ وأنت حيوان محبوس في سيارة في ظهيرة خانقة. بصعوبة يستجيب الغطاء في تخفيف الخناق عن جسدك المحموم، ورغم أن قدمك هي الساخنة فأنت تشعر بأن الحرارة تأتي من الإضاءة البيضاء المثبتة فوق السرير خلف رأسك. كل شيء مُنار بسطوع فاحش، كأن الظل قذارة يجب محوها ومنعها من التراكم في الزوايا.

في النهار يكون الأمر أهون، فأشعة الشمس المتسرّبة عبر النافذة تضفي نوعاً من الطبيعية على المكان. الطبيعية، هل هذه هي الكلمة؟ تبدو الأشياء حيّة أكثر وهي تتغيّر بانتظام طوال النهار، بفعل تغيّر موضع الشمس. وبعد مدّة كافية، يصبح بإمكانك تخمين الوقت من شكل وزاوية الضوء وأماكن توزّعه في الغرفة.

يعود الممرض الأسمر في النهار. أشعر تجاهه بالألفة. إنه روح طيبة؛ لطيف ويغمرني بالرعاية. إذا لاحظ عدم ارتياحي، يعدل من وضع المخدّة خلفي. يده تسند ظهري ريثما يفعل ذلك. لا يسرّني هذا، لست متأكداً من رائحة جسدي بعد أسبوعين من الاستلقاء. يسألني: أفضل؟ أكذب وأهز رأسي بالإيجاب. لم أرغب في أن يشعر بعبثية ما يفعله.

يعود الطبيب النحيل بعده، دائماً بعد الممرض مباشرة. يقف بمعطفه الأبيض الطويل، وكفيه المخفيتين في جيوبه. يقول إني أبدو أفضل. لا تعجبني العجلة التي يقرّر بها هذا، كما لا يعجبني أنه هو من يقرّر. يتناول لوح الفحوصات من مؤخرة السرير فيمنح رأيه مزيداً من الحصانة. كل شيء حسن، يؤكّد. ربما بعد أيام أبدأ جلسة الكيماوي

الثانية، يقول ويهم بالخروج. ماذا يعني «كل شيء حسن»؟ ماذا يعني «جلسة الكيماوي»؟ ألا يراني؟

أستوقفه قبل أن يخرج. أحاول إخباره عن الوجع، العياء، الكلال، الوهن. أتلمّس طريقي إلى الكلمة، الكلمة المعبرة، الكلمة النافذة، الكلمة التي إذا نطقتها سيدرك تماماً ما أشعر به، إذا وجدتها سأُنقَذُ في الحال. يطلب مني أن أختصر الأوصاف العديدة برقم على مقياس درجات الألم. يشير إلى الورقة المعلّقة تحت إضاءة السرير: «إلى أي حدٍّ تشعر بالألم؟».

للإجابة يجب أن تختار رقماً، من صفر إلى عشرة. لا خبرة مسبقة لديّ أستند إليها في القياس، لكنْ، ثمة وجوه تعبيرية من المفترض أن تساعد. الرقم 8 يحمل وجهاً متباكياً مقوس الفم للأسفل، والرقم 10 يحمل فماً أشد تقوّساً ومن عينيه تتقاطر الدموع. أشعر بالنفور لفكرة أن يُربط بيني وبين تلك التعابير، نفوري الدائم من المبالغة. أختار الرقم ٦، وجه ممتعض قليلاً، لأوفّر ما فوقه لآلام مستقبلية. أدرك من رد فعل الطبيب أنه كان عليّ اختيار رقم أعلى؛ الوجه الممتعض لا يمنع البدء في جلسة الكيماوي نهاية الأسبوع.

في الأيام التالية أرى العديد من الممرضات؛ تختلط نوبات الليل بنوبات النهار. عيّنات دم تلو العينات، وفحوصات إثر الفحوصات. تقودني الممرضات عبر الممرات، يتوقّفن بي عند محطة التمريض لهذا القسم أو ذاك، يثرثرن بلغتهن الأم ويتركنني جالساً في الطريق ريثما تنتهي إجراءات استقبالي. صار عندي كرسيي المتحرّك الخاصّ بي، لكني لم أعتد بعد على قيادته، فقط أُدفع به. أدخل في الغرف

وأخرج منها، من دون أن أعرف لأي غرض دخلت، أو إن كنت منحتهم ما يفيد.

لا يهم ما يفعلونه بي طالما يبدو أنهم يعرفون ما يقومون به، هذا ما توصلت إليه في النهاية. أُحقن كل يوم بالمزيد من الأكياس الشفافة؛ على الأرجح مغذيات؛ كل منها يحمل ملصقاً عليه معلومات توضح ما يحتويه، في حال أراد المرء أن يعرف ما يدخل جسده. أجلس بجانبها من دون فعل شيء سوى تجنّب قراءتها، لأن الضجر المناسب لم يحن بعد. بين حين وآخر أُحقن بأكياس دم لتعويض ما أفقده. على ذراعي تشكّلت كدمات من أثر انخفاض نسبة الدم الذي يجاهد كي يتخثر إثر كل حقنة. يوقفون سيولته دائماً بالأدوية والمزيد من الحقن. مع هذا، يندفع الدم خارجاً من أنفي وعبر لثتي، وكأنما لم يعد في الداخل أعضاء تطلبه.

أنام قدر ما أستطيع، وأكثر قليلاً. حالما أستيقظ، تكون أمي بجانبي. حين أجدها تبكي أتظاهر بالنوم، وهي حين تجدني نائماً تبكي. لم نكن يوماً عائلة متديّنة، ومع هذا كانت تحضر سجّادتها وتصلّي بجانبي. حين لا يكون وقت صلاة، فإنها ترتجل فروضاً عشوائية ما أنزل الله بها من سلطان، وتروح تتضرّع إليه بأي أدعية تعبر ذهنها. سمعتها مرة تتلو دعاء البرق: «اللهم إني أسألك خير ما فيه وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما أرسلت به»، ثم تبكي بحرقة وهي تكرر الدعاء، حتى يبدو ملائماً لحالتي.

حين تسلّم وتلتفت نحوي بعد الصلاة، تبدو على وجهها آثار كلمات الطبيب التي لم أسمعها. أتظاهر بالاستيقاظ لتوي فتكفكف دموعها، برصانة توحي بأنها الآن صارت قوية من أجلي. فقط تبقي

عينيها دامعتين قليلاً، بما يكفي لإيضاح أنها تجد مشقة في السيطرة على مشاعرها. أردت أن أخبرها أني لا زلت عند الرقم ٦، يستحسن أن توفر دموعها لدرجات أعلى في مقياس الألم؛ لكن هذا كان ليزيدها بكاءً.

في أحد هذه الأيام، كنت أتظاهر بالنوم وهي تصلّي بجانبي، ثم سمعتها تبكي وتدعو الله إن لم يشفني عاجلاً أن يلطف بي ويأخذني إليه. لا أنسى كيف تهدَّج صوتها في نهاية الدعاء، كما لو تؤكد تفضيلها للجانب الأخير من «إن لم» تلك. كنت أظن أن الوقت مبكر على هذا، لكن ربما يجب أن أعيد النظر في تقييمي لحالتي. لقد تغيرت المعضلة من كوني لا أتعافى بما يكفي إلى كوني لا أموت بسرعة كافية. متى حدث هذا، وكيف؟ ما هي اللحظة التي تُغيّر صيغ الرحمة بالمرء من الإبقاء على حياته إلى إنهائها؟ هل أبدو كمن أخذ ينتمي إلى العالم الآخر؟

كنت قد طلبت منها إحضار كمبيوتري المحمول وبعض الكتب، وقد ظهر عليها الاستياء وأنا أذكر العناوين: «خاسران على الناصية»، «وحيدة في غرفة أمسح الغبار»، «الحب كلب من جحيم». ومع هذا جاءت بها وهي تتنهّد، كأن تلك الكتب ستزيدني مرضاً. كلها كتب شعر حديث سهلة القراءة؛ لم أعد أملك سعة انتباه كافية لقراءة رواية أو كتب فلسفية، ولا لمتابعة أي استرسال أو تسلسل مجريات، وسط تأثير الأدوية والغفوات المكررة، وهذا الخمول، الخمول، الخمول الذي يلقي سُحُباً ثقيلة على كل طاقة ذهنية. أحياناً لا أكون قادراً حتى على فهم تلك القصائد الأميركية القصيرة. أبحث في الإنترنت عن المزيد من الشعر الياباني، قصائد قصيرة جداً بحجم هايكو. «كم هو رحيم / أن السلحفاة لا ترى / كيف يطير العصفور الصغير بسهولة». «كم هو رحيم»؛ عبارة واحدة، تغمرني كحلم كثيف، كذكرى بعيدة حانية؛ هذا كل ما يكفي ليجدّد قواي أحياناً. شعرت برغبة أن أطلع

أمي على تلك الهايكو؛ إنها جماليات لا يشعر المرء بأي خزي تجاهها. لكنني لم أعزم على الأمر بالطبع. في داخلي ثمة ما لا يزال يشعر بالسخط تجاهها بعد ذاك الدعاء.

في نهاية الأسبوع تنفُسي تَحسَّن كثيراً، وضربات قلبي عادت للانتظام. جاءت الممرضة في الصباح لأخذ عينة لتجري فحص نسبة الدم عندي. النتائج أيضاً جاءت ملائمة للعودة للعلاج. أخبرتها أني سأذهب وحدي، ورحت أدفع الكرسي المتحرك نحو الممر الطويل المؤدي إلى قسم الأورام. الجهة الزجاجية المكشوفة على ساحة الألعاب كانت تسرّب ضوء الشمس بكميات كبيرة، بحيث تترك الممر حاراً خانقاً في هذا الوقت من العام. وصلت متعرّقاً ومنهكاً من الدفع، متشوّقاً للعودة إلى الغرفة التي أتيت منها لتوّي؛ مجرد التفكير أني سأعود إليها في نهاية اليوم أخذ ينزع شيئاً من الوخزة التي ترافق موعد الكيمو. «الكيمو» صرت أقول، كمن هو معتاد على الأمر.

في العنبر، حادثت مرضى آخرين. تعلّمت من أحدهم أني إذا ضغطت على الطبيب من الممكن أن يسمح لي بالعودة إلى البيت. البعض الآخر لم يكن مفيداً لذاك الحد. كان هناك سيدة مسنّة لطيفة، تبدأ الحديث فوراً وبكل عفوية، كأنما انقطعت لبرهة وعادت لتكمل من حيث توقفت. حكت لي حوادث كثيرة عن إصابتها بالعين. وكانت كل حكاياها تتمحور حول جارتها الحسود، التي ظلت تزورها في البيت كل يوم، منذ حرب الخليج حتى الآن، من دون أن تذكر الله مرة واحدة. وقد حدث أنه بمجرد أن امتدحت تلك الجارة نشاطها وصحتها وطول عمرها، أصيبت هي بعدها فوراً بالمرض. وحين اتصلتْ بها بعد علمها بالنتائج، وشتمتها ودعت عليها وطالبتها أن تذكر الله، ما كان من تلك الأخرى سوى أن بادلتها الشتائم والدعوات،

من دون أن تعترض على نقطة أنها هي من أصابتها بالمرض؛ أليس هذا إثباتاً كافياً؟ لم أعرف بمَ أجيب. كانت تبقى صامتة لدقائق بعد أن تسرد عليَّ مثل هذه القصص، فأظن أنها فرغت من كل طاقة للحديث، فإذا بها تلتفت فجأة لتسأل: «وأنت؟ من أصابك؟». وكأنها تسأل: «ما نوع سرطانك؟». أجيب: «لا أحد»، فتندهش. «لكنّ الكل يعرف أن الخبيث إصابة بالعين!». رحت أتساءل إن كان يجب أن أشعر بالاستياء لأن أحداً حتى الآن لم يشتبه بكوني تعرّضت للحسد.

خلال كل تقاطعاتي مع بقية المرضى، لم أستطع منع نفسي من الشعور بأن ثمة شيئاً مهماً فاتني، لتقصيري في الاطلاع على معلومات العلاج أو الاستماع لشروحات الطبيب، وكانوا هم على دراية به. لقد كانوا على يقين من أن السرطان لا يمكن أن يكون أبداً حدثاً عشوائياً، أو خالياً من النية السيئة تجاههم. إذا لم يكن لأسباب ميتافيزيقية، فلأنه مرتبط بأساليب الحياة الحديثة؛ اضطرابات الساعة البيولوجية الناتجة عن حياة المدن، والحقول المغناطيسية من أعمدة الكهرباء والأبراج، والإشعاعات المحتملة من الجوّالات والميكروويفات، وعوادم السيارات، ووجبات الطعام السريعة وما إلى ذلك، حتى الفواكه والخضروات التي يفترض أن تقينا من السرطان صار يمكن أن تسببه بسبب المبيدات الزراعية التي يتم رشّها بها.

كان أحدهم مهووساً بهذه اللوائح المسببة للسرطان، وكان يسردها عليَّ محذراً، من باب العادة، كي أقي نفسي. ثم انتبه فجأة إلى أني مصاب أيضاً، وشرع في منحي نصائح حول الكيفية التي يجب أن أباشر بها العلاج. لتقاتل هذا العدو بجدية، يجب أن تستحضر في ذهنك كل ما يثير مقتك تجاهه، كان يقول. لا يكفي أن تهاجمه بالكيماوي وحسب، بل أن تكون راغباً بالثأر والتدمير والإخضاع.

خطر بذهني أنه شاهد لتوه فيلماً حربياً من تلك الأفلام التي تلهب مشاعر الانتصار. فأثناء خطبته، كان يهزّ قبضته كمن يلقي خطاب معركة، أما يده الأخرى فظلّت متشبثة بالقضيب المعدني، الذي يحمل كيس المحلول، كما لو يمسك سيفاً أو سلاحاً هزيلاً سيصنع المعجزات. لطالما كان في هذا السعي الحثيث لخلق الصراع ما يثبط رغبتي في الاصطفاف مع الآخرين.

كان ثمة أيضاً شخص يدور على مقاعد المرضى ويحادثهم واحداً تلو الآخر، موجِّهاً لهم النصح والموعظة. ولا أعرف في الحقيقة إن كان مجرد متطوّع أم مرافق لأحد المرضى تهيأ له أن المرضى الآخرين تحت مسؤوليته. احتساب الأجر واستدراك قرب الأجل، كان هذا ما يتمحور حوله حديثه؛ لأنك بمجرد إصابتك بالمرض صرت في حكم جثة، وخير ما تفعله هو أن تبدأ ببناء مشروع عاجل للجنة. حالما اقترب، أغلقت الستارة على مقعدي لأحول دون وصوله إليّ. ربما لم أكن لأمانع الاستماع إليه لو كنت أملك الطاقة، لكني بلغت أقصى قدرتي المحدودة أصلاً على الاختلاط بالآخرين.

لم أكن أفتقر إلى الإيمان بالله عموماً، ولم أكن شديد الحرص على إيماني به أيضاً. لقد التزمت موقفاً يتطلّب مواظبة عنيدة على الحياد، أعني في هذه الأرض التي تدفعك باستمرار لاتخاذ موقف حاسم حين يتعلق الأمر بالدين: إما مع أو ضد. ولعل الأمر لا يتجاوز أني أؤجل البت في حسم موقفي، بالطريقة نفسها التي أؤجّل بها البتّ في كل ما يهمّ. لكني لم أشعر أبداً بأنها معركتي؛ الطرفان كلاهما كانا يفتقران للروحانية في نظري، كما يفتقر له تقريباً أي حديث عصريّ عن الدين. لطالما شعرت بأن الناس هذه الأيام يعيشون كما لو كانوا موظفين لدى الله، لا عباداً له. كما لو كان في إمكانهم أن يسيئوا له خلف ظهره ثم يواصلوا التظاهر بالعمل.

أقضي بقية الجلسة وحيداً، أذكّر نفسي بأن أحضر كتاباً معي غداً لأشغل به الانتظار. أتساءل ماذا حلّ بالبيضة في رأس تلك الفتاة؟ وهل قرأت همينغواي؟ لم تعد مواعيد جلساتنا تتزامن بسبب تأجُّلِ جلستي هذا الشهر. أفكر بأني سأبعث لها ببريد إلكتروني حالما أعود إلى الغرفة.

بعد الجلسة، أستلقي في الغرفة منهَكاً. أشرب الماء طوال اليوم لتخفيف أعراض الدواء، وأنهض للتبول. هذا كل ما أمارسه من نشاط. الممرّضة تمتعض وهي تساعدني للنهوض إلى الحمام، وكأن تبوّلي المتكرر بذاءة خالصة مني تجاهها، أو نوع من التحرّش. إنها بطيئة الحركة وخشنة النبرة ولها وجه بارد عبوس عن سبق إصرار وتعمّد. كان يمكن أن تكون أيضاً نادلة مقهى أو مضيفة طائرة، بأسلوبها الذي يوحي باستمرار أن لديها أشخاصاً تخدمهم غيرك. حين أضغط جرس السرير، كانت تحضر بتعابير مكفهرّة كمن يقول: «وماذا الآن؟». وحين أنزع قناع الفم تغضب وتطلب مني بعصبية إعادته حتى لا أصيبها بشيء. وحين تعيد غرز إبرة المغذّي في ذراعي فإنها تفعل هذا برعونة، وكأنها تردّ بهذا على تبوّلي وسعالي. لكنها دائماً في الخدمة وهذا ما يهمّ؛ باقي المهارات مجرّد هوامش. والحق أني أفضّل هذا النوع من الممرضات، لأن المرء يشعر معهن أنه في حضرة خصم. أما اللاتي يدخلن عليك بوجه مشجّع يقول: «هيا، هيا»، فيحذر المرء في حضرتهن أن يصدر عن جسده ما يقرِف؛ وأنت لا ترغب أبداً أن ترى وجوههن اللطيفة وهي تخفي اشمئزازها فيما يساعدنك في أشد شؤونك خصوصية، ويجاهدن ليبدين عطوفات.

بعد اليوم الأول للكيماوي، ركّزت جهودي على الخروج في أقصر فترة ممكنة. كنت قد ضقت ذرعاً بهذه الغرفة، وقرّرت أن قدرتي على النجاة تتلخّص في العودة إلى غرفتي في البيت. ناقشت

الطبيب فطلب مني الصبر أسبوعاً آخر، لمصلحتي كما يقول. قلت له إن أسبوعاً آخر في المستشفى سيقتلني، وهو لم يبدِ أي اعتبار لهذا التعبير المفرط في المبالغة. وقد ساءني على الفور أن تضطرني حاجتي لاستعطاف الطبيب إلى هذا النوع من الاستجداء، وشعرت بأني خنت نفسي من دون حتى أي نتيجة تُذكر. وكان ردي على هذا هو أن شرّعت أسلحة عنادي ضده، لأظهر له معدني الحقيقي الذي استخفَّ به. وبعد إضرابي عن الطعام وتهديدي بعدم تناول العلاج في اليومين المتبقيين، ما لبث أن وعدني بالخروج إذا أتممت الجلسة من دون مضاعفات. وافقت؛ إنها الجلسة الثانية وصرت أعرف ما أنتظره.

في اليومين المتبقيين أكثرت من السوائل، قاومت الغثيان بالأدوية، وأقمت أوَدي بالمغذيات عبر الوريد. ارتديت قناع الفم باستمرار، وكلما لمست شيئاً أعقبْته بالمعقم، وكأن في كل الأشياء ما يُعدي. بحثت في الانترنت لأعرف كل صغيرة وكبيرة أقاوم بها الأعراض. تناولت كل ما هو خفيف على المعدة؛ الحساء، المكسرات، الفواكه الغنية بالماء، الخضروات المسلوقة والمهروسة. تجنّبت المعلّبات والعصائر الجاهزة وكل ما يحوي مواد حافظة، لأنها تسخن الجسم وترفع الحرارة. في اليوم الثالث كنت متعَباً ومغثياً لكن ليس بما يفوق المعدل المتوقَّع، وبشكل أفضل بكثير من الجلسة الماضية، والأهم أني كنت خالياً من العدوى والفايروسات.

في اليوم الرابع تجاهلني الطبيب، ولم أكن أملك الطاقة لمواجهته. كان فقط يدخل الغرفة ويطّلع على الفحوصات، ويطلب من الممرضة أن تقوم ببعض الإجراءات، على مسمع مني، بعجلة توحي بأني أقل فهماً منه لأناقشه في تفاصيل العلاج. كان إنهاكي المشتدّ ذلك اليوم دليلاً قائماً ضدي على صحة كلامه بخصوص إبقائي في المستشفى

مدة أطول، لكن هذا لم يفقدني عزمي على الخروج. في اليوم الخامس تريّضت من دون الكرسي المتحرّك فقط لأثبت أني أملك السيطرة، وترصّدت له معترضاً مرمى بصره كلما عبر لأذكّره بوعده. حين أخبرني أن الوقت لم يحن بعد، تجادلنا قليلاً. حاججته بحريتي وحاججني بخبرته، وحين واجهته بالمعلومات التي قرأتها في الانترنت ابتعد غاضباً وهو يحرك يديه في كل تجاه ليبدي إلى أي درجة أستفزّه. عاد في نهاية اليوم وبين يديه ورقة طلب مني الإمضاء عليها، وفيها أني سأخرج على كامل مسؤوليتي قبل أن أتم فترة الأسبوع التي أوصى بها لي.

صباح اليوم التالي، خرجت إلى مواقف السيارات حيث كان ينتظرني أخي. أعتقد أن الطبيب شكا له أمري، لكنه لم يجرؤ على أن يشرع معي في الحديث. بقينا صامتَين طوال الطريق ونظرته مثبتة إلى حركة السير، وأنا أحدّق في المرآة الجانبية. ولأول مرة منذ وقت طويل، شعرت بالألفة تجاه الكائن الهزيل المحدّق نحوي في الانعكاس. لم أكن في أفضل حالاتي بدنياً، لكن كان ثمة مناعة جديدة اكتسبتها مؤخراً، وترسخت في داخلي الآن أثناء عودتي إلى البيت، أكثر من أي وقت مضى؛ مناعة تقتضي بأن أحداً لن يستطيع أن يقف أمام رغباتي متى عقدت العزم على المضي فيها حتى النهاية.

هل هذا ما يشعر به المرء حين يمسك زمام قَدَره؟ هل هذا ما يعنيه التحكّم بمصيرك الخاص؟ هل هذا هو تمالك الخراء؟ بمجرد أن دخلت غرفتي في البيت أدركت أن هذا ما يجب التركيز عليه منذ الآن: معارك صغيرة منظّمة، انتصارات شخصية تافهة؛ الطريقة المثلى للاستمرار في المكافحة.

الفصل الثالث

الأسبوع 23:

في البيت سارت الأمور كما خططتُ لها إلى حد ما. أتناول الطعام بتحفظ وأضيّع الوقت في الغرفة. أسلّي نفسي بهاتفي وكمبيوتري المحمول، متنقلاً بين تطبيقات الصور والمقاطع والألعاب الإلكترونية. أتناول المسكنات متى احتجتها، وأحياناً لمجرد الاحتياط. كنت أتصوّر أني سأنهي كتباً أجّلت قراءتها منذ أعوام، لكن الأيام تمر كغيمة سوداء في رأسي. أقرأ المزيد من القصائد القصيرة كلما شعرت بالخمول. إذا قررت قراءة شيء طويل وجاد، أعود إلى روايات مفضَّلة قرأتها قديماً؛ لقد وجدت أن هذا أسهل على الذهن من قراءة أخرى جديدة. أحياناً أقرأ أدب أطفال؛ بعضه مسلٍ وواسع الخيال وسهل المتابعة، سلسلة «مذكرات فتى أحمق» وأشياء من هذا القبيل. حين أنهك بصري من القراءة أنتقل للتلفاز. أتنقل بين محطات الأخبار والرياضة ومسابقات المواهب والغناء والأفلام الوثائقية عن البحار والغابات وعادات الشعوب. أتابع كل ما يجري في كل أنحاء العالم، من دون أن أكوّن رأياً واحداً عن أي شيء.

ثمة أوقات أضطر فيها لاستقبال الزوار، فأنقطع عن النظام السهل الذي حدَّدته لنفسي. من الواضح أن امتناعهم عن زيارتي في الفترة السابقة يعود إلى حداثة عهدي بالمرض. أما الآن، بعد مضي ما يكفي لتجاوزي صدمة النبأ، فقد بات متوقعاً مني أن أجد الوقت لهم ليؤنسوني بأحاديثهم وحرصهم عليّ. أرتدي القناع وأتظاهر بالاستماع لما يملكونه من قصص عن أقرباء أو أصدقاء تسرطنوا وكافحوا المرض. حين تسمع واحدة من تلك القصص يخيل لك أنك سمعتها جميعاً، فكلها - وسبحان الله - تنتهي بالشفاء. إنها تذكّرني باجتماعات العمل المخصّصة لتحفيز الموظفين الجدد، والتي تُكلل قصصها دائماً بالنجاح. سيكون من الرعونة أن يأتي أحدهم ليسرد عليّ تجارب مرضى خسروا الصراع وماتوا شر موتة، لكن هذا كان ليكون مسلياً أكثر.

البعض الآخر من الزوار يأتي فقط لغرض الاستماع، عوضاً عن أن يقوم هو بواجب الثرثرة. يمكن تمييزه من الرهبة التي يدخل بها عليك، والتواضع الذي يشعر به أمام ملامح مرضك، فتدرك أنه لم يسبق له أن التقى مصاباً بالسرطان من قبل. لكن سرعان ما يتحوّل تواضعه هذا إلى نقمة، وذلك حين يروح يغرقك بالأسئلة عن أفكارك وتأملاتك ويستحثّك على سرد حكايتك، كما لو كان في حضرة راهب بوذي يمتلئ حكمة. لا بد أن المرض علّمه، يفكر، لا بد أن الألم ألهمه، لا بد أنه يملك الآن دروساً عن الطريقة الصحيحة التي يجب أن تُعاش بها الحياة. في حين أن كل ما يشغلك هو العودة لغرفتك وخوض مرحلة جديدة من آخر لعبة إلكترونية أدمنتها.

النوع الثالث عموماً هو الأسوأ بينها جميعاً، وأبرز ملامحه هو أنه بمجرد أن يزورك مرتين يظن أنه يملك باعاً في حالتك ويروح يدلو

فيه بدلوه. أحد جيراننا مثلاً كان زائراً من هذا النوع؛ ما إن تظن أنه فرغ من نصائحه الطبية حتى يأتي في اليوم التالي بوصفات جديدة، ومعه لائحة بقدراتها الشفائية المعجزة. إنه في أواخر الخمسينات من عمره، له عشرة أبناء وزوجتان، ولحية قصيرة مشذّبة حديثة السواد؛ يمكن أن تخمن أنه يحفظ العديد من الوصفات العشبية الخارقة لتحفيز الفحولة. كل يوم، يعرِّج على بيتنا عصراً بعد الصلاة، بكرش منتفخ من أثر وجبة الغداء وجسد ينضح عرقه، حتى يخشى المرء أن يسيل صبغ لحيته على الأشياء. بالنسبة لشخص حريص على المعلومات الصحية، لم يكن يبدو صحياً جداً. لكن هذا لا يهم، لأنه يشرب الشاي الأخضر بكثرة كما يقول، والشاي الأخضر «يحرق الدهون»، ويهيَّأ لك أنه يتخيّل الدهون وهي تنصهر وتتبخّر فيما يتلفظ بهذا.

كان خياله حرفياً جداً حين يتعلّق الأمر بوصفاته. فهو يأتي بمحلول عشبي «يطهر الأمعاء»، فتظنّ من نبرته أنه يتحدّث عن معقم تسكبه في أنبوب صرف صحي فيطهره من الشوائب. وحين يقول إن «الأطعمة الغنية بالألياف تنظّف المعدة»، فإنه يحرّك يديه كمن يدعك بليفة داخل قِدر فيزيل أقسى البقع. وحين أخبرته أني لم أعد قادراً على استقباله، «لأن الاختلاط بالآخرين، كما حذّر الطبيب، يضر بمناعتي»، جاء في اليوم التالي وهو يحمل بين يديه كيساً كبيراً من البصل يقول إنه يقوّي المناعة لأنه «يكنس الجراثيم»، ولولا انشغال يديه بالكيس الثقيل لأخذ يكنس في كل تجاه ليؤكّد الطريقة الفعّالة التي يعمل بها البصل.

من كان ليظنّ أنه مع التقدّم بالمرض سيصبح التخلص من الناس مهمة أصعب؟ لم أكن أطيق صبراً حتى يرحل آخرهم وأعود إلى الغرفة، لكن الزيارات ظلت تتكالب، بتواطؤ وإشراف من أمي وأخي، بل بدعوات يوجهونها أحياناً. أمي كانت تعتقد بأن الأمر مفيد

لانتزاعي من وحشتي. «سُمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بمخالطة الآخرين»، كانت تقول. فليأخذ الطاعون من اخترع هذه المقولات، كنت أرد، فليمت بالسرطان. كانوا يهدئون غضبي كطفل، وفي اليوم التالي يرحّبون بزوار جُدُد.

قبل أيام فقط، زارني بضعة زملاء من العمل. كانوا قد حصلوا على موقع البيت من طريق أخي، الذي حصلوا على رقمه من طريق الشركة. ورغم أن علاقتي بأي منهم لم تكن وثيقة، إلا أنهم لم يجدوا عيباً في الظهور فجأة بباب منزلي. كان هؤلاء هم الثلاثة الذين يحيطون بي في المكتب: ربطة العنق الذي حلَّ مكان الشيخ، والأبلهان من الصف الأمامي اللذان يتلفتان نحوه لينهلا من جودة أفكاره وسحر شخصيته. لطالما أثرت لديه شعوراً بعدم الأمان، بل ولا بد أنه كان مرتاباً تجاه مرضي الذي تبدّى له غريباً في فجائيته، كما شعرت يوم عودتي للعمل، ولعله ظن يومها بأني كنت أتخفى خلف ضعف يتيح لي القدرة على التجسّس والوشاية. إلا أن كل هذا لم يكن ليمنعه من تأدية واجب الزيارة، فقد كانت المسألة تتجاوز المشاعر الشخصية، وتتعلّق بمكانته هو كشخص يقوم بالتصرّف اللائق في هكذا مناسبة.

كان هؤلاء الثلاثة من نوع آخر من الزوار: أولئك الذين اعتادوا رؤيتي بشكل يومي في السابق، وإذا بهم يتظاهرون الآن بأن شيئاً لم يتغير. فحال دخولهم، ألقوا التحايا المتهللة والضاحكة، حتى خُيل لي لوهلة أن ما دفعهم للمجيء شيئاً آخر لا علاقة له بمرضي. وسرعان ما أدركت أنهم بهذا الدخول المرح كانوا يحاولون السيطرة على نبرة الزيارة ويحدّدون المزاج الذي يجب أن أتفاعل به معهم. لكن صمتي وتجهّمي ومظهري المزري عن سبق إصرار وتعمّد، وامتناعي حتى عن دعوتهم للجلوس، راح يخالف مبادراتهم العفوية وعاداتهم المألوفة

في التواصل. لقد وجدوا أنفسهم فجأة أمام شخص لا يملكون مفاتيح التعامل معه، وعليهم في الوقت نفسه أن يكونوا ودودين.

جلسوا متعرّقين، وأخذوا يتحدّثون عن الطقس. كنا في منتصف الصيف والجو مشبع بالرطوبة هذه الأيام. وحين حاول أحدهم أن يلمح لهذا وهو يقف ليعبث بالتهوية، اعترضته قائلاً إن المكيف يجب أن يبقى على درجة حرارة مرتفعة. لم أكن أنوي قبلها أن أفتح فمي بشيء أمامهم، لكني أكملت موضحاً أن جسدي يبرد بسرعة بسبب المرض؛ وقد أدّى هذا دوراً فعالاً في إرباكهم، إذ كان يذكّرهم بحقيقة مرضي التي قرروا عدم مواجهتها مباشرة. هكذا بقينا صامتين، وقد تسرّب إلى ثقتهم الطاغية شعورٌ بعدم الارتياح رحت أتتبّعه بلذة كبيرة. لطالما كان بإمكاني أن أشتمّ ذاك الشعور، إذا أثرته في نفس أحدهم، كما يشتمّ حيوان في الآخر شعوره بالتهديد.

ما يميل له هذا النوع من الزوار عادةً ليستعيدوا تماسكهم، بعد الحديث عن الطقس، هو الحديث عن السياسة. وغالباً ما تتخذ تعليقاتهم تلك النبرة المأسوية المشفقة، المتأسفة لما يجري في العالم هذه الأيام من حروب دولية، وتهديدات نووية، وأزمات لاجئين، ومجاعات، واحتمال قيام حرب عالمية ثالثة. كلما تصوّر لهم الوضع في الخارج أشد كارثية كلما صاروا أكثر ارتياحاً هنا. إذ يكفي أن يهزوا رؤوسهم بحسرة على الفظاعات الأخرى البعيدة، ليبدو أنهم يهزونها أيضاً على فظاعة ما يجري لي، من دون أن يتحدّثوا عن الفيل في الغرفة. كانت الفوضى السياسية بطريقة ما أيضاً تقول: ثمة في هذا العالم ما هو أقسى من مجرد الإصابة بهكذا مرض.

وبعد أن اكتسبوا من هذا الجرأة الكافية، سألني أحدهم عن رأيي في

ما يجري. صالبت ذراعيَّ على صدري كما لو أنني أفكر، وأجبتهم بأن القضية الأهم بتصوّري هي الاحتباس الحراري. كان اهتمامي الوحيد في الحقيقة ينصبّ على الإبقاء عليهم في حال متوترة، وكان إقحام الاحتباس ملائماً لأنه يعيدنا إلى نقطة الطقس. «أعني كل ما ينتج عن تغيّر المناخ بسبب نشاطاتنا نحن البشر. العالم مشغول بالسياسة إلى حد أنه لا ينتبه لكمية الضرر الذي نحدثه لبقية الكائنات». وقد أدى هذا الاستفزاز مفعوله، إذ سرعان ما ارتسمت على وجه ربطة العنق نظرة مستنكرة، تستعيد ارتيابها القديم تجاهي.

- «عفواً لم أفهم، هل تودّ أن تقول إن موت بعض الدببة في القطب الشمالي أهم من موت البشر؟».
- «لماذا تظن أن الحيوانات تكره الموت بشكل أقل؟ قد تكون أقل إدراكاً لمعناه لكنها ليست أقل وعياً بخطره».

- «لا بد أنك تمزح!». وراح يتلفّت نحو زميليه مستدعياً إياهما ليشاركانه الرفض، فيما أخذا يمسحان عرقهما ويعدلان جلستهما بتوتر. «إننا نتحدّث عن إبادات جماعية، عن مجازر لشيوخ ونساء وأطفال أبرياء!».

كان فورانه هذا هو طريقته في إيضاح أن عدم ارتياحه للزيارة يعود لأسباب أخلاقية. فقد ثبت له أني، وبسبب شناعة أفكاري هذه بالتحديد، لم أكن بريئاً تماماً أمام الموت، وإن كنت قد وقعتُ ضحية المرض فربما لأنني أستحق. وبهذا كان يمهد للخطوة التالية: أن يغادر ولا يعود مرة أخرى، لأن مواساة شخص مثلي أمر يفوق قدرته على الاحتمال. سيكون هذا رائعاً لو حدث، فكرت، ورحت أتعمد إثارة حفيظته على نحو أشد.

- «ماذا عن التقلص في طبقة الأوزون والتلوثات البيئية والانبعاثات الغازية من باطن الأرض؟ ألا تدرك ما ينتج عن الأمر كلّه من أوبئة وأمراض خبيثة؟!». حافظت على ملامح جادة، إنما في داخلي كنت أصفق بهجة وانفعالاً.

بدا فجأة أن دفاعي عن رأيي إنما يصدر من دافع شخصي بسبب ما أصابني، بل كأني كنت أتهمهم هم وأشباههم بإصابتي بالمرض لعدم اكتراثهم بآثار الاحتباس. وهكذا في حين أنهم قدموا ليواسوني، وجدوا أنهم لم يفعلوا سوى إثارة المزيد من استيائي. كان هذا مسلياً إلى حد بعيد. أخذ الآخران يؤكدان أنهما يتفهمان رأيي، بنبرة تحث ثالثهما على فعل المثل.

- «لنهدأ قليلاً، الأمر لا يتجاوز خلافاً بسيطاً في وجهات النظر»، قال أحدهما محاولاً تدارك الوضع، وراح الآخر يرمق ربطة العنق بنظرات جانبية معاتبة. وهو ما إن شعر بنفسه مفتقراً للدعم المعتاد منهما حتى فقد المزيد من أعصابه، ورمى في وجهي مقولة متهورة: «إن أسوأ مكان في الجحيم مخصّص لأولئك الذين يبقون على الحياد في أوقات المعارك الأخلاقية العظمى». وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعيرين بجانبه. سرعان ما لكزه أحدهما، وأخذ الآخر يسرّ في أذنه مزمجراً، ثم سحبه وراح يحادثه بعصبية في آخر المجلس، بكلمات لم أسمعها لكن يمكنني تخمين دلالاتها من نظراتهم وحركاتهم. كيف تذكر لرجل في مثل هذه الحالة توقعاتك أنه سينتهي في الجحيم؟ أخذت أتابع هذا مهتاجاً من غرابة الموقف ونشوة النجاة من العقاب. وهو لحظة عاد ليجلس كان مرتبكاً وثمة ابتسامة زائفة على وجهه، ثم أخذ يعتذر عن انفعاله ويحاول تقريب وجهات النظر. لم يعجبني هذا التحول المضجر، فقد كان مسلياً

أكثر حين كاد يخنقني. رحت أحاول استفزازه بكافة الحجج رداً على مقولته البلهاء، وأهز إصبعي في وجهه كما فعل أحد البعيرين حين كان يوبّخه. وهو أخذ يهز رأسه مبتسماً كمن يختلف معي إلى حد يفوق القدرة على التصديق، لكن لم يرد بشيء، بل إنه توقف عن الاستماع في منتصف حديثي. يا للنبل يا للأدب يا للشهامة، إنه يتخلّى عن تفوقه كرمى لصحة رجل مريض، ولعله ظن أنه يمنحني انتصاراً أخيراً أحمله معي للقبر، أما الآخران فظلا يهدئانه بتلك النظرة التي تقول: دع الرجل يموت مطمئناً أنه على حق. انتقلوا بعدها للحديث عن كرة القدم، بشغف ومرح، متناولين آخر المباريات، كأن هذا خليق بأن يلطّف الأجواء. ثم خرجوا معتذرين وهم يدعون لي بالشفاء. سرطان يأخذهم.

كان الزوار يتناقصون شيئاً فشيئاً، أمام اعتلال مزاجي الذي يضيق بهم في ذاك المجلس. لقد أدركت أني، وإن كنت لا أملك العذر للامتناع عن استقبال أحدهم، فقد كنت أملك المبررات لاستقبالهم باكفهرار. وفي الأسبوع الثاني بعد العلاج، كان الجفاف والتقرّح الدائم للفم بفضل آثار الكيماوي يظهرني كمن يكلّفه الحديث أو الابتسام مشقّة كبيرة، فإذا بهم يشعرون بالتوتر لاندفاعي في الجدال والمناقشة ضد أدنى عبارة ينطقون بها. لقد وجدت أن بإمكاني أن أتبنى أكثر الآراء تطرّفاً، وأتقلب بين الأدوار كيفما شئت. كنت أملك فرصة لأن أتمادى من دون أي رادع، واندفعت فيها بمشاكسة طفلٍ أَمِن العقاب. لقد أدركت أن مظهري المزري هو سلاحي في ردع تلطّفهم، وجاهدت، بفظاظة عجوز مشرد، كي أبدو مزرياً أكثر. وشيئاً فشيئاً نجح هذا في تقليص مدة الزيارات وتثبيط تكرارها.

كان جدي هو آخر من زارني اليوم، ومن دون موعد مسبق. سمعناه

يدخل فجأة بعصبية وينادي صارخاً، كعادته حين ينوي توبيخ أحدهم لسبب يتعذّر تخمينه. البيت كله ارتبك لهذا الحدث غير المعهود. هرعت إليه وقبّلت يده ورأسه، وأمي واقفة تراقب بقلق وتحثّني على حسن استقباله والمزيد من التقبيل. لم يكن معه سوى خادمته الهرمة، والتي لم تكن بدورها أقل تحدّياً. وبمجرد أن جلستُ بجانبه، كانت تلك قد انسحبتْ بطريقتها الشبحية الغامضة وغابت أمي خلفها.

سألته عن حاله فقال إنه بخير. أزعجني أن يبدو صوته عليلاً مشروخاً لا يكاد يُسمع، ربما أكثر مما كان ليزعجني لو أنه رد غاضباً بأسئلة انتقادية نزقة كما كان يفعل دائماً. كنت أتمعّن فيه قليلاً، وهو يجلس متقلصاً مهزولاً على كرسيه المتحرّك، بسكون يوحي بأن الصرخة التي أطلقها حين دخل لم تكن تمت له بصلة. بدا أشد نحولاً منه مما كان حين زرته في بيته. سألني عن العلاج، أجبته بأن كل شيء على ما يرام. طلب أن أخبره إذا احتجت مالاً. فأوضحت أن تأمين الشركة يغطي التكاليف حالياً، وسنرى بعدها ما يحدث. جلس ساكناً لبضع دقائق وقد طأطأ رأسه. فقط يده على ركبته كانت ترتجف، كأنها تكتم انفعالاً ينوء به جسده بأكمله. وفجأة، أخذ ينتفض في نوبة بكاء، كمن خسر كل خطوط دفاعه دفعة واحدة.

ما الذي جرى لهذا العجوز الفظ الغليظ ميت القلب؟ حتى حين اتصل بي في المستشفى الأسبوع الماضي كان يبكي عبر الهاتف، وشعرت من صوت بكائه أنه أضعف من أن يغلق السماعة. انتظرته أن يفرغ، لكن بكاءه لم يكن يتوقف قليلاً إلا ليعاود البدء من جديد وبمرارة أشد. لكن أكثر ما أثار حيرتي هو أنه لم يكن يواري دموعه هذه عني، بل بدا أن حضوري إنما يرغّبه أكثر في الانكسار. ما كان

لأي شيء أقوله أو أفعله أن يواسيه أو يدفعه إلى أي مقاومة، ولعله لم يكن يطلب مني سوى هذا الحضور.

تذكّرت موقفاً جرى إثر وفاة والدي؛ لم يسبق لي أن استرجعته منذ حدوثه قبل الآن. كنا جميعاً في غرفته بعد أن أبلغه أعمامي، وقد جلبوا معهم طبيباً تحسّباً لأن يشتد عليه الخبر. كان الطبيب ينفخ شريط جهاز الضغط على ذراعه النحيلة، وهو جالس بجانبه على سريره، وقوراً صامتاً مطأطأ الرأس، ونحن من حوله وقوفاً. ثم فجأة، كما لو تذكّر شيئاً، رفع رأسه إلينا، ورأيت عينيه تغرورقان بالدموع للمرة الأولى؛ ذات العينين الزجاجتين المرعبتين من دون نظارات. رفعهما نحو أخي، والتفت يبحث وسط الحشد الذي يحيط به بنظرة قلقة، وما إن وقعتا عليّ حتى استقرّتا، وانهمرتا فوراً بالدموع. أطرقت رأسي على الفور في مزيج من الحرج والرهبة؛ لم يتغير الشعور كثيراً حتى أثناء بكائه الآن.

أعود إلى الغرفة أخيراً. أستلقي ناشداً الراحة التي كنت أسعى إليها طيلة اليوم، إنما في ذهني يتردّد تساؤلٌ ساذج، عقيم، وملحٌّ رغم ذلك. كنت أتساءل عمَّ إذا كان موت البشريّ حقاً أقل فظاعة، لمجرد أننا نملك مشاعر وأفكاراً نواجهه بها؛ أم إن قدرة الإدراك هذه تحديداً هي ما يجعل موتنا أشد وحشة من أي شيء آخر في الوجود؟ لعل أفضل إجابة هي أن ينخرط المرء في تشتيت نفسه أطول مدة ممكنة. حتى هذه الأسئلة لم أكن قادراً على طرحها إلا من حيث كونها رفاهية.

الأسبوع 25:

شيئا فشيئاً أخذ نظامي ينحدر إلى روتين بليد. أمضي الوقت في الألعاب الإلكترونية ومتابعة كل ما يتدفق لهاتفي عبر وسائل التواصل الاجتماعي. أعيد تحديث التطبيقات لساعات، واحداً تلو الآخر، ما إن أفرغ من إحداها حتى يكون قد جدَّ جديد في الآخر. الأفلام والمسلسلات التلفزيونية الجديدة كانت من الوفرة بحيث يستحيل ألّا تفوّت منها شيئاً؛ أراكمها فوق بعضها البعض حتى أنسى أيها شاهدته، وأيها لم أفعل بعد. أحياناً أنهي موسماً تلفزيونياً كاملاً في يوم واحد، أي ما يعادل تسع ساعات من المشاهدة، دوام يوم عمل كامل؛ لكن بمجرّد إنهائها أشعر بالكدر. أنتقل بعدها فوراً إلى القراءة، لكن من دون أن أكون قادراً على فعل هذا باهتمام. «الجبل السحري» ما زالت متروكة بجانبي، وفاصل القراءة لا يتجاوز نصفها. في كل مرة أتناولها، ألقي نظرة حيث توقفت ثم أعيدها إلى الكومودينة. أتممت فقط رواية لموراكامي قبل أيام، ليس لجودتها بل لأني وجدت فيها سهولة في تقليب الصفحات، وحينها فقط أدركت كم غيّرني المرض. إذا كان هذا النظام سيدفعني لتفضيل موراكامي على توماس مان، فأي شيء آخر يمكنه أيضاً أن يفعل؟

لم يحدث شيء مهم خلال الفترة الماضية. وجدت رسالة إلكترونية جديدة من الفتاة ذات البيضة في الدماغ؛ لم تكن هي المرسلة بل أختها الكبرى. كانت قد لاحظتني أتحدّث معها يوم لقائنا في العنبر، وقد قصت عليها البيضة مجريات حديثنا وتبادلنا لوسائل التواصل لاحقاً، فشعرت هذه الأخت بأني سأرغب في معرفة ما جرى. نجحتْ عملية إزالة الورم لكن كان ثمة مضاعفات؛ نزيف في الدماغ ثم عملية تنظيف للرأس ثم تدهور في قدراتها الذهنية وذاكرتها وقدرتها على الكتابة والكلام. الآن تكاد لا تتعرّف إلى مَنْ يحادثها أو يدخل عليها، ولن تكون طبعاً قادرة على مراسلتي بعد الآن. دورتان من العلاج، 12 جلسة كيمو، سنة كاملة من الحياة المفتقرة للنوعية، من العمليات والجراحات والاستئصالات، من وعود الأطباء لها بالتحسن، ثم هذا.

كانت حالي أفضل منها نسبياً. أتناول الأطعمة سهلة التحضير والابتلاع، وأهمل مواعيد المستشفى. أتحجّج بمختلف الأعذار: إذا كان شرب السوائل قد أجدى نفعاً لتعويض نقص الدم من قبل، فلمَ لا يفعل الآن؟ إبريق الماء الزجاج بجانب السرير كان يجب أن يكون ممتلئاً طوال الوقت. حين أكاد أفرغ من الماء، أضغط جرس السرير. وفي كل مرّة تهرع أمي مرعوبة وكأن مختلف ضروب الطوارئ قد ألمّت بي. أكتفي بتعابير جامدة بأن أناولها الإبريق، ببرود مفرط يحاول أن يمحو إفراطها في الانفعال. لم أكن لأطلب منها شيئاً، لكن فقط لإرضائها ولتخفّف ضغوطاتها عنّي اتفقنا على أن تتكفّل بهذه المهمة. كانت تعيد الإبريق مترعاً بكامله في خلال دقيقة، ثم تقف لبرهة كأنها تتوقّع أن أفرغه في جوفي حالاً لتهرع وتملأه من جديد.

لقد تغيرت بعض الأمور مؤخراً، خصوصاً حين علمنا أن جارنا كان يرغب بها زوجة ثالثة. كان سابقاً يغرق البيت بمختلف أنواع الأغذية

والإمدادات، ويصر على محادثة أمي في كل مرة يزورنا ليشرح لها كيف تعدّ لي ما أحضَرَه. وكانت وصفاته تبدو في نظرها دائماً عملية وفي غاية الفائدة؛ فحين يقول إن الشمندر مهم لمرضى الدم، لأنه يمدنا بالمزيد من الكريات الحمر، يلوح لها هذا منطقياً جداً، فتشرع في تحضير عصير الشمندر وحساء الطماطم وأي شيء أحمر ومريع تستطيع التفكير به، وتقدّمها لي وصفة تلو الأخرى وهي تردّد أنه رجل لطيف وباذل للخير وذو نيّة صافية، وأن عليَّ استقباله بحفاوة أكبر. ثم حين انكشفت نياته أخيراً، شكّل الأمر ضربة قاسية لموقفها. صارت تطرده بنفسها عبر جرس الباب شر طردة، ثم تبقى هامدة في نوبة من الغضب لأنها لم تفطن لنياته من قبل. وقد استفدت من الأمر بتصعيد اعتراضي على كل الزوار كما لو كانوا جميعاً يتقربون إليّ لأغراض كهذه، ولم يكن منها في ظل حرجها سوى التواطؤ معي في عدم استقبالهم.

لكنْ، على الرغم من ضراوة مقاومتي لأساليبها، ظلّت تتلقى اتصالات الأقارب والجيران وأصدقاء العائلة بخصوصي، والذين كانوا يعيدون الاتصال مرة تلو الأخرى كلما قرأ أحدهم خبراً عن علاج جديد، أو سمع بوصفة أفادت مُصاباً ما، حتى لو لم تكن سوى بَوْل بعير. وتسجّل هي كل شيء وتزف الأخبار إليّ بتفاؤل يوحي بأني سأشفى غداً، وتهرع فوراً في تحضير الوصفات الغريبة وتأتي بها إلي، وكنت أرفض في فتور كل ما تعِدّه كما لو كانت كلها مجرّد حساء بصل آخر أحضره جارنا، فيسقط في يدها. حين تصرّ، كنت أخبرها أني لست حقل تجارب للآخرين، فتنزعج وتعتبر هذا كلام كتب وأني أختبئ خلفه لأتجنّب بذل أي مجهود. وباستمراري في تثبيط مساعيها، صار يخيل لها أني أتعمد تأخير شفائي نكالاً بها، فيزيد هذا من عزيمتها على إشفائي بأسرع طريقة ممكنة.

من الواضح أنها لم تكن لتقنع أبداً بالدور السلبي الذي أردته لها. كانت بطبيعتها بركاناً مستعراً لا ينخمد إلا لينفجر لاحقاً بحدة أكبر؛ وإذا اعتراها في فترة ما شيء من نقص الثقة تجاه طرائقها، فإنها كانت تنتظر أن أرتكب بدوري غلطة تضرّ بي، فتستعيد ثقتها فوراً وتعاود الاندفاع. أما إذا أغلقت في وجهها كل السبل، فإنها تواجهني عبر أشخاص آخرين، فتشكوني عند الطبيب وتصوّر له أني أغرق في عالم يائس كئيب، وهو يقول إن هذا ليس جيداً لأن جزءاً كبيراً من العلاج يعتمد على الحالة النفسية. وكان يعيد الإلحاح عليّ ويؤكد أن الكثيرين من المرضى يجدون مراجعة الطبيب النفسي مفيدة لهم، فأرفض مجدداً وتضرب أمي كفاً بكفاً. كان الوضع بيننا سجالاً لا ينتهي، ومعارك صغيرة يتبدّل فيها باستمرار صف الفائز، لكن أحداً لا يخسر الحرب.

بعد ضغوطها عليه لفعل شيء ما، وصف الطبيب لي عقاراً ضد الاكتئاب، لأنه حالة شائعة عند العلاج كما يقول، بل ويكاد يكون عرَضاً جانبياً للكيماوي. سيكون من المفيد حقاً لو يصف المزيد من الحبوب المنومة والمسكّنات عوضاً عن هذا الهراء، قلت له، فامتقع غضباً. لم يصادف من قبل مريضاً على هذا القدر من الإهمال والمكابرة، قال؛ يُفترض بعبارته أن تجرحني أو شيء كهذا. كنت بدوري ناقماً عليه ورحت أبذل كل الوسائل لأفقده صبره. بات يراودني معه هذا الشعور بأني عرضة للخداع والاستغلال، حتى لو تظاهر أنه في كل خطوة يخبرني الحقيقة. كيف يمكن لأي أحد أن يثق بطبيب؟ إن أحدهم لا يكاد يرفع عينيه إليك وهو يتحدّث عن كل ما سيفعله بجسدك.

في ظل رفضه أن يمنحني قدراً أكبر من المسكّنات اتصلت بصديق

من أيام الجامعة. وكلمة «صديق» فيها الكثير من الكرم، فقد كان مجرد شخص يوفّر الحشيش، ويحدث أحياناً أن أدخن معه صواريخه متقنة اللف، ثم نجلس متبادلين الحكم والنقاشات العميقة البلهاء التي سرعان ما تتلاشى من الذاكرة كالدخان. لم أملك يوماً صديقاً بالمعنى الحقيقي، ولم أشعر بالنقص لهذا، لكن كان من شأن الحشيش أن يجعلني اجتماعياً إلى حدٍّ ما في تلك الأيام. ولم أكن أحشّش وقتها عن أي رغبة ملحّة أو تَوْق للحالة، بل لمجرد أن هذا ما يفعله الناس في السنوات الجامعية. وقد جرّبته أول مرة بدافع البحث عن إلهام للكتابة، وبعد فترة انحصر تأثيره في خلق تعتيم ذهني والإلقاء بجسدي في حالة من الخدر الهادئ البليد، أي ما أحتاجه الآن بالضبط.

استقبلته في البيت أثناء غياب أمي وأخي. وبمجرد أن رأيته تذكّرت كيف كانوا في الجامعة يلقّبونه بالحصان. كان يبدو حقاً مثل حصان، بوجهه المسطح المستطيل وعينيه البلهاوتين الناعستين، الخاليتين من أي تعبير. وقد غدا الآن حتى أشد ملاءمة لذلك اللقب، إذ صار يعقد شعره المسترسل من الخلف كذيل الحصان. ولحسن الحظ فإنه لا يزال يمارس هوايته، الشيء الوحيد الذي يجيده في الحياة، بل وأصبحت حرفة يقتات عليها بعد فشله في التخرج؛ صواريخه أصبحت أكثر جودة وتركيزاً، وأسعاره ارتفعت أيضاً، فقد صار يستورد من موزعين أكثر نزاهة. جلسنا صامتَيْن في البداية كعادتنا في الأيام الخوالي، وهو ظل يحدّق نحوي حائراً، بعينيه الساهمتين، كأنما لم يميّزني، وربما ظن أنه دخل بيتاً آخر عن طريق الخطأ. وحين انتهينا من أول صاروخ تشاركناه، قال:

- «لقد تغيرتَ كثيراً، لكن تعجبني الصلعة، أفكر أيضاً أن أحلق رأسي بالطريقة نفسها».

ومسح بيده إلى آخر شعره الطويل. عندها مرّ في ذهني بسرعة شريط البلاهات التي تفوَّه بها بجدية، وكان يعنيها حقاً، بل وكان يتوقّع مني التفاعل معها ومناقشتها، مثل المرة التي أخبرني فيها أن «الفتيات يضرطن، هل كنت تعرف هذا؟».

انفجرتُ فجأة في نوبة ضحك؛ وهو حدّق نحوي بالمزيد من الحيرة، مراجعاً مكمن الخطأ في كلامه. وأخذت أفقد المزيد من السيطرة كلما فتحت عينيّ على وجهه الحصاني الخامل ونظرته التائهة. وبعد برهة أخذ يشاركني في القهقهة من دون أن يدري لماذا، ثم أمسك رأسي الأصلع ليستمد منه المزيد من الطرافة، وراح يصدر أصواتاً روبوتية رصينة توحي بأنني مخلوق فضائي، فتوقفت شيئاً فشيئاً عن القهقهة. لا أعتقد حتى أن الأبله استنتج إصابتي، ومن الأفضل ألّا يعرف على كل حال، فكل ما ينقصني هو أن يذهب وينشر الخبر لبقية زملاء الدراسة الذين ما زالوا على تواصل معه، فتداهمني وفود هائلة من الزوار المحشّشين.

اشتريت منه المزيد وأخذت أحشّش في الحمام، ألفه في ورق الشام الشهير وأفتح النافذة من دون أن أنسى دسّ منشفة تحت الباب. أصبح هذا طقساً يومياً، لكن ليس أكثر من صاروخ في اليوم لأن صدري لم يعد يحتمل. انكشف الأمر بطبيعة الحال، لأن أمي ظلت تحوم حول الغرفة كعادتها، وتصيخ بأذنها عند باب الحمام لتتأكد إن كنت أتقيأ أو دخلت في غيبوبة. وإذا بها تقرع الباب بقلق، وحين فتحته لها داهمتها الرائحة فانهارت لظنها أني عدت للتدخين. وقد أقنعتها أنه تبغ طبي خفيف لا يضر كثيراً، لهذا له هذه الرائحة العشبية الهادئة، بل إنه أفضل صحّياً من الأعشاب المريعة التي تصنعها لي بتوصيات من الأقارب والجيران ومجموعات النساء على الواتس

آب. وحين لم يوقفها هذا عن العويل قلت إن عليها أن تجرب واحدة لعلها تهدأ قليلاً، فخرجت مزمجرة باكية وهي تفتح باب الحمام عن آخره وراحت تخبر أخي وتتصل بالطبيب. قلت لها أن تبلغه بينما هي على الهاتف أن شهيتي للطعام صارت أفضل على الأقل، وبإمكانه أن يحشر مسكّناته في مؤخرته. ورفعت إصبعي الأوسط وأنا أتخيل وجهه النحيل الذي يعرف دائماً أكثر من الآخرين، النغل المحتال عديم الفائدة البلا خصيتين، ورحت أشتمه بأصوات روبوتية رصينة.

وظهر أخي بالباب وأنا على هذا الحال، أضحك بعينين حمراوين. وقد أدرك الأمر من أول نظرة، وظل يحدّق نحوي صامتاً بعينين مشحونتين؛ لم أكن أدرك حتى إن المخنث كان قادراً على إظهار كل هذا الغضب. أخبرته أنهم في كندا والولايات المتحدة الأميركية يوفّرون هذه الأشياء قانونياً لمرضى السرطان كجزء من العلاج؛ لقد شاهدت هذا مؤخراً في مسلسل عن أرملة عزباء تتاجر بالحشيش، وقد ظننتها نقطة جيدة، ولا أعتقد أنه كان يعرفها من قبل. ومع هذا لم يقل شيئاً، بل ظل يحدّق نحوي شزراً، وعلى وجهه تعبير عاجز عن التصديق. لم يكن ينقصه سوى أن يلصق ورقة صفراء فاقعة أمامي كما كان يفعل الرئيس. كانت نظرته الجادة المسؤولة تذكّرني بما ينتظرني غداً، وكان انعدام المرح التام هذا كفيلاً بأن يطفئ انتشائي ويشعرني بتفاهة كل ما يجري.

يجب أن أكون هناك في السابعة صباحاً من أجل اختبارات الدم والأدوية التمهيدية للعلاج ومضادات الغثيان التي لا تقي أي ارتجاع. المزيد من الالتزامات والمسؤوليات والأعمال التي إن لم أقم بها أعطّل مهمات الآخرين. كنت أظن بأن المرض سيحرّرني من هذا، لكن يبدو أن كل ما فعله هو أن استبدل شركة البيتروكيماويات

بالعلاج الكيماوي. طبعاً، هذا ربط مفتعل أكثر من اللازم، لكن من الصعب مقاومة استغلال التشابه بين الكلمتين.

نمت واستيقظت بعد منتصف الليل. ساعات قليلة تبقت على الجلسة الثالثة. تقلّبت قليلاً في الفراش، حاولت القراءة لكن من دون فائدة. شاهدت عروضاً كوميدية لم تسفر حتى عن ابتسامة، وها أنا أكتب محاولاً طرد الكدَر. لكن حتى الكتابة لم تعد قادرة على إحداث ذات التأثير، وربما فقط تبدّلت أهدافها. رحت أعيد قراءة ما كتبته في الفترة الماضية، لكنه بدا بليداً تافهاً ومفتقراً للانسجام والأمانة؛ مجرد جهد كسول عائم التفاصيل وممتلئ بذاته، ويُفترض به في النهاية أن يكون مواسياً.

هل هذا هو الانعزال؟ هل هذا ما كنت أتوق للتخلص من عملي لفعله؟ هل هذه هي الذات التي كنت أرغب في أن أتوحد بها؟ لماذا تصورت أني سأكون كأولئك الشعراء الذين يستقون الإلهام من آلامهم وفوضويتهم وفراغهم الدائم؟ أين يكمن الشعر في هذه البطالة؟ أين توجد الحكمة؟

***

أصل متأخراً ومحاطاً بهالة من نعاس. أستلقي على السرير في المستشفى، محاولاً أن أكمل النوم. يدخل الطبيب مسرعاً، ويسألني لماذا تأخّرت. الفحوصات يجب أن تُجرى مبكراً وأمامي يوم طويل. إنه لا يصدق مدى إهمالي، كما يقول؛ لعله يشير أيضاً لمهاتفة أمي له في الليلة الماضية. يلقي جُمَلاً طويلة ثم ينادي الممرضة ويخرج. أرفع إصبعي الأوسط خلف ظهره قبل أن يغلق الباب.

تدخل الممرضة وبيدها إبرة كالمعتاد. أمد ذراعي لا شعورياً.

تفضلي احقني أيتها السيدة؛ لم لا؟ احقنيني بما تشائين. هل هي مؤلمة أو غير مؤلمة؟ هذا كل ما يهم. من شكل الإبرة التي تحملها أدرك أن الأمر الآن لا يتجاوز أخذ عينة دم. بعض الإبر تعرفها مقدماً؛ بعضها بمجرد رؤيته تشعر بالألم.

تقف إلى جانبي ممسكة بيدي، بتلك النظرة الحانقة لعجزها عن العثور على عرْق في باطن ذراعي. ألاحظ أنها نفس الممرضة التي كانت تمتعض كلما ساعدتني على النهوض للتبوّل، وكلما سعلتُ قربها من دون قناع. لها وجه مميّز يبدو على الدوام كما لو كانت في لحظة التقاطها لعدوى. أتساءل أي عنصر في الممرضات تحديداً هو المسؤول عن كل التصورات الجنسية المرتبطة بهن، ما الذي جعل منهن موضوعاً خصباً للمواد الإباحية؟ الحقن والأيدي الباردة والنظرات المحايدة، وروائح أطعمة المستشفى المغثية العالقة بأرديتهن؟ لكلٍ ذوقه الخاص، لكن لا بد أنَّ مَن ابتدع كل تلك الخيالات عاش حياة صحية متعافية. إن شهرين أو ثلاثة من الزيارات المتكرّرة للمستشفى كفيلة بأن تطرد من ذهنك كل شهوانية متعلّقة بهن.

ما زالت تصارع لتجد عرقاً. عروقي لم تعد تبدي حماسة لإبراز نفسها؛ بعضها انطفأ تماماً كأنه تقاعد عن العمل. مع هذا، أتظاهر بفقدان الصبر وأستعجلها بعصبية. تذعن هي وتغرس الإبرة كيفما اتفق، رغم علمها بما يسببه الخطأ من ألم. «سوري سير»، تقول بنبرة روتينية باردة، كأنها اصطدمت بي فجأة في الممر. عادةً ما أشعر بالانتماء لهذا النوع من الموظفين الذين يؤدّون أعمالهم من دون إخلاص، أما الآن فأرفع صوتي موبخاً. في المستشفى يسهل إطلاق العنان لنزقك، ولا يهم إن كان ذلك بسبب بقايا التأثير الثقيل

للحشيش من الليلة الماضية، طالما كنت مريضاً هنا فأنت تملك العذر. الممرضات معتادات على الأمر، لكن ثمة في حيادهن هذا بالذات ما يثير المزيد من النزق.

تغرس الإبرة مجدداً ولا تصيب أي عرق. تتأفّف وتكرّر اعتذارها المفتقر للانتباه. في المرة الثالثة تفعلها أيضاً، فأصرخ بها أن تعطيني الإبرة. تذعن بسرعة، وعلى وجهها تعبير يرغب مني بشدة أن أصيب نفسي بسوء. أحمل الإبرة في فمي كمتعاطي مخدرات، وأضرب باطن ذراعي بكف يدي الأخرى ضربات سريعة متلاحقة. هكذا تبرز العروق تحت البشرة؛ لقد قرأت عن هذا، لا، بل رأيته في أحد الأفلام؛ لماذا نفترض نحن القرّاء أن كل شيء نعرفه تعلّمناه في الكتب؟ الأفلام تعلّمك كل شيء نظرياً، لكن حين يتعلق الأمر بالتطبيق في الواقع... أظن بأني رأيت عرقاً، أحقن بسرعة قبل أن يختفي. تخترق الإبرة ذراعي ويجري الدم كنهر. أصرخ بالممرضة مجدداً، كأنها هي من غرست. تخرج مذعورة وتطلب المساعدة. «فَكْ هِر»، لا شيء يعمل بشكل صحيح في هذا الجسد.

بعد إيقاف النزيف، يدخل الطبيب متجهّماً؛ وجهه أشد صرامة مما كان في الصباح:

- «سنؤجّل الجلسة للأسبوع القادم يقول؛ لا بد أن ننقل لك بعض الدم لتعويض ما فقدته، ثم نراقب نسبته حتى يستقرّ في مستويات مقبولة، ستبقى هنا حتى نوفّر لك العناية اللازمة».

أناقشه مصرّاً على الخروج، ونختلف كالمعتاد. «يمكنك الخروج بعد الرابعة، لكن الجرح لن يتخثر بسبب نقص الصفائح الدموية، ومناعتك ستضعف بسبب نقص الكريات البيض، وأُكسجينك سيقل

بسبب نقص الكريات الحمر، والخلايا السرطانية ننننـ...» كالعادة لا بد أن يثبت بالتفصيل أنه على صواب.

في الساعة الرابعة أكون منهكاً وثقيل الحركة، أعتقد بأن الطبيب كان على حق لكنني أعاند. أتصل بأخي ليقلّني فيستقبلني بتعبير متجهّم، يبدو مجرد امتداد لغضب الطبيب. حالما أصعد السيارة يحرّر سخطه الدفين تجاهي. عقد قرانه سيتم الأسبوع المقبل، والزفاف بعده بأشهر قليلة، وهو لا يملك الوقت والمزاج لمثل هذه التصرفات. بالطريقة التي يجب أن يتصرف بها رب أسرة، بدأ يطوّر نوعاً من المقاومة لي، وقد رأى الآن بوضوح أني لم أكن أستحق منه أي تضحية.

- «لقد انقضت الأيام التي يُسكت فيها عنك من باب المراعاة».
يقول، وأتفق معه في سرّي من دون أن أنبس بشيء. أكتفي بأن أميل برأسي على المقعد وأحدّق إلى انعكاسي في المرآة الجانبية. ها هو المسخ قد تَضخّم ليصبح أداة تدمير لنفسه وكل ما حوله، بعد أن كانت ضراوته مجرّد وسيلة للدفاع. يبدو أن النظام الذي انتهجته، وإن كان ناجحاً في البداية، قد بدأ يثبت فشله على المدى البعيد.

الأسبوع 27

قبل أسبوع، حين شرح لي الطبيب ضرورة أن أبقى في المستشفى خلال أيام الجلسة، وافقتُ فوراً. بدا عليه الاستغراب أول الأمر، فهو لم يعتد مني هذا الإذعان من دون نقاش أو اعتراض وإصبع أوسط حين يستدير. وقد اغتنمت الموقف لأصوّر له أني لا يعجزني أن أكون مرناً سمحاً إذا تحدّث معي بمساواة وعقلانية. أما الحقيقة فهي أني فقط فضّلت المبيت في المستشفى هذه المرة لأتغيّب عن قران أخي، والذي ما كنت لأستطيع تجنّبه لو عدت إلى البيت.

لم أكن يوماً شديد الاهتمام بمناسبات كهذه، وأجهل الكثير من العادات المتَّبَعة فيها، فالعادة الوحيدة التي اتبعتها هي عدم حضورها. ولم يكن هذا شيئاً يلقي له أهلي أهمية كبيرة. الا أن الضغوطات الاجتماعية تتزايد مؤخراً، مع اقتراب الزفاف، فقد اكتشفت أن مرضي يسلط المزيد من الضوء على أهمية تواجدي في هذه المناسبات عوضاً عن أن يخففه. بات عليَّ باستمرار أن أكون حاضراً في الصورة حتى لا يثير غيابي تساؤلات تفسد مظاهر الفرح: كيف تحتفلون بهذه

البهجة وأخو العريس في مكان ما يحتضر؟ لكن في الوقت نفسه كان يجب أن تُخفى تفاصيل المرض عند حضوري قدر الإمكان، ويُتجَنَّب استحضاره والسؤال عنه سوى سرّاً، كما لو كان معكّراً مخجِلاً يجب أن يبقى في الكواليس. إن هذا يذكرني بما قاله كافكا في رسالة لصديقه ماكس، أثناء علاجه من السل في إحدى المصحّات: «شفوياً، لا أحد يتحدث بشيء واضح على الملأ؛ بمجرد أن يطرأ السل، ينخرط الجميع في نوع متملّص، ملغز، وشارد من الحديث».

وهكذا ما إن تغيّبت عن عقد القران لوجودي في المستشفى، حتى قرروا إقامة مناسبة ثانية فور خروجي. ولولا مزاجي المعتلّ هذه الأيام، وافتقاري التام للطاقة، لكان من شأني أن أرفض على نحو أشد؛ لكني وجدت نفسي خائراً منهك القوى، ومفتقراً لنزعة الصراع التي بدّدت بها طاقتي مؤخراً. لقد كنت في الفترة الماضية أتصرف بعدوانية وانفعال، كما لو أتشفّى من الآخرين لمجرّد أنهم أصحّاء، والآن لم أعد قادراً على استرجاع تلك التصرفات سوى بشعور بالصبيانية والخزي الشديد.

مع هذا، استهلكت بعض طاقتي في مناقشة أخي وأمي، فقط لأسجّل موقفي، محمّلاً إياهما مسؤولية ما قد يجري إثر تلبيتي للدعوة. تحجّجت لهما كعادتي بضعف مناعتي، فعدد الكريات البيض في دمي يقارب الصفر، مما يجعلني فريسة سهلة للعدوى. وإضافة إلى الآلام المتجدّدة بعد كل جلسة، كان ثمة ذاك التصلّب في الجزء الأيمن من بطني، إثر تضخم الكبد والطحال الناتج عن اللوكيميا كما قال الطبيب. حتى ذهنياً لم أعد في كامل نباهتي بسبب تأثير الكيماويات في الدماغ، فقد لاحظت على نفسي بعض الشرود مؤخراً. إذا خرجت لمواعيد المستشفى أنسى أين تركت سيارتي؛ هل

حضرت أصلاً وحدي أم مع أخي، أم بسيارة أجرة؟ يتطلّبني الأمر وهلة لأتذكر.

إلّا أن كل هذا لم يجلب الكثير من التعاطف والتصديق من جهتهما، بعد أن استهلكت بعض تلك الحجج بسخاء في مناسبات سابقة. كان رد فعلهما واعياً بحيَلي وحازماً في معارضتها، ومن الواضح أن وعيهما الجديد ذاك لم يكن مستقلاً، بل نشأ بعون من أختي وبتأثير من سطوتها، فقد كان صدى كلماتها يبزغ من حديثهما، وامتداد سخطها يسهل تتبّعه في الطرق الأشد حِدّة التي أخذا يضغطان بها عليّ، كأنما كانت تحذّرني عبرهما من لحظة انفجارها بنفسها في وجهي. كانت عازمة، في ظل إدارتها لكل هذا، على ألّا تسمح لي بإفساد جهودها. لقد كان معجزاً بما يكفي أن يرضى هؤلاء القوم بتزويج ابنتهم لأخي الكادح وأسرته منقطعة الأواصر، وأي خطأ من جهتنا يمكن أن يحدث شرخاً لا يغتفر.

لم تكن بميلها للوجاهة والترف لتختار قوماً أقل من هؤلاء. فحين وصلنا لبيتهم الهائل في يوم المناسبة، قطعنا مسافات طويلة ونحن نعبر الردهات الواسعة كي نصل أخيراً لموضعنا من المجلس. وقد رحت أغذّ الخطى لاحقاً بأخي عند دخولنا، متحاملاً على الألم الذي يسري في عظامي كشوط من الكهرباء. القبيلة بأكملها كانت هناك، وكنت أنا وأخي بينهم كحمَلَيْن تائهَين. وكعادتي حين كنا صغاراً، ظللت أتبعه محاكياً تصرفاته، لأعرف على من أسلّم بتقدير خاص، وأين أجلس، وكيف لا أرفض فنجان القهوة اللاذعة، والتي سرعان ما أغثت معدتي الفارغة.

سألني بعضهم عن حالي باعتيادية، كما لو أنهم لا يعلمون شيئاً عن

مرضي. أحدهم بدأني بالحديث: «هاه؟ وأنت متى ستتزوج؟»، بتعبير جاد على وجهه؛ لم أستطع أن أميز إن كان هذا أسلوبه في المزاح. في كل الأحوال، كان من الصعب أن أميّز بينهم في أي شيء من أول لقاء؛ لم أعرف حتى أيهم أشد قرابة للفتاة. كانوا يبدون لي بمجموعهم كشخص واحد يسيطر بحضوره الهائل على كل زاوية في المكان. وكان لهذا الحضور الهائل عادات تمتد جذورها أبعد من قدرتي على رفض سطوتها. وقد وزّعوا رموز تلك العادات والتقاليد في كل زوايا مجلسهم الضخم ليثبتوا تشبّثهم بها. أبرز تلك الرموز كانت السيوف والبنادق العتيقة التي علّقوها على الجدران، ليعلنوا أن الثراء لم ينسهم تراثهم وسبل عيش أجدادهم، كما لو أنهم رغم كل هذا البذخ يفضّلون العيش في حرب على بئر ماء مع القبيلة المجاورة.

ظل الغثيان يرسو داخلي ببطء؛ كلما ظننت أنه بلغ القاع يفاجئني بقدرته على أن يرسو أعمق. لكني واصلت الالتفات إلى أصواتهم، بالقدر القليل من التمييز الذي كنت أملكه، محاولاً أن أبدو قدر الإمكان كمن يتابع مجرى الحديث. ثم فجأة أخذ أحدهم يصيح بنا أن نتفضّل، طاغياً بصوته الضخم على كل حوار في العالم. وسرعان ما أخذت الأصوات عن يميننا وشمالنا تدعونا للنهوض، وراح صوت جديد يتقدّمنا مسرعاً ليقودنا نحو مجلس آخر، وصوت آخر خلفنا يهتف بنا للمضي نحو سفرة الطعام كما لو يخشى أن نهرب.

لم يكن اقتيادي إلى العشاء يختلف كثيراً عن اقتياد ذاك الخروف لذبحه في اللحظة التي عرف فيها أنه سينتهي في هكذا صحن. هكذا وجدت نفسي واقفاً أمام تل من الأرز واللحم، أفكر بطريقة للاعتذار عن الأكل. وقد قرأ أخي أفكاري، فسحبني من أسفل ثوبي ليجلسني بجانبه على السفرة، إذ لم يكن مستعداً لأن يخسر احترام أنسبائه

المستقبليين بسبب شهيتي المفقودة. إن آخر ما يقبله أحد منهم هو أن تعتذر عن تكريم ضيافتهم، فهذا يشبه أن تعيب رجولتهم أو تعلن بكل صفاقة أنهم لم يكرموك كما يجب.

جلسنا متحلّقين حول الصحن الدائري الكبير المشترك، وبمجرد أن سمى أحدهم بالله امتدت الأيدي كلها ما عدا يدي. لاحظ أخي هذا ورفع رأسه بنظرة موبخة كي يحثّني على الأكل، ثم أخذ يقتطع حصة من اللحم ويلقيها فوق الأرز أمامي. مرّت برهة لم أستطع فيها أن أحمل نفسي سوى على الإمساك بقطعة اللحم وتقطيعها إلى قطع أصغر، فيما كان الآخرون يلوكون القطعة تلو الأخرى، بسحنات ماضغة بدت عليها الجدية في الهضم والرغبة بالانتفاع بهذا الغذاء. وقد انتبهوا فوراً لشرودي، فأخذوا يطالبونني بالأكل بنظرات معقودة الحاجبين، من دون أن يتوقّفوا عن المضغ، وهم يشيرون بأيدٍ مزفرة للصحن، كأني لا أعرف أين يكمن الطعام. وعندها أخذ أخي يلكزني كي أرغم نفسي، فالأمر أصبح في غاية الخطورة، ولن يتطلب وقتاً طويلاً قبل أن يضيق ذرعهم بإساءتنا العظيمة، والله وحده يعلم أي عته سيندفع به أحدهم لردّ كرامته؛ ولم أستبعد قياساً على هذا أن ينتزعوا السيوف المثبتة على الجدران ويطاردونا بها للخارج.

استجمعت ما استطعت من قوى داخلية لصد الغثيان، ووُفقت في إقحام ذاك الشيء في فمي، وأنا أتخيّل سدّاً ضخماً ثابتاً في جوفي يقيني أي ارتجاع. كان ذاك أي شيء سوى قطعة لحم، ذاك الطعم المعدني المر الذي لم يميزه فمي المسموم بالكيماويات، وكأن كل مسامات تذوّقي استُهلكتْ أو استُبدلت خطأً بحاسّة أخرى. ظللت أتوانى في إتباع اللقمة بأخرى، محاولاً مخاتلتهم كي أبدو كمن يشاركهم الأكل، ورحت ألتقم حبات الزبيب ببطء وأمضغها بطريقة توحي بأنها لقمة

كاملة، وقد كان طعمها مراً أيضاً على فمي المتقرّح. لكن بعضهم ظل يرمق موضع يدي، متابعاً نصيبي من الأرز الذي لم ينقص تحتي، ثم صاروا يرفعون رؤوسهم نحوي باستياء، لأن إيقاعي البطيء ما زال يهينهم. هكذا تابعت إقحام اللحمة تلو الأخرى، مع حفنات من الأرز والزبيب، وأنا أرى جيداً مستقبل تلك اللقيمات؛ ولو كان يحق لأحد أن يشعر بالإساءة بعدها فهو هذا الخروف الذي فقد حياته من أجل أن يأكله رجل بلا شهية ويستفرغه لاحقاً.

انزويت في الحمام وتقيأت حتى كاد يخرج قلبي من بين ضلوعي. ثم سرعان ما بدأ نبضي بالهبوط، واستمر في التباطؤ على نحو مفزع. ولم أكد أرفع رأسي لأرى انعكاسي في مرآة الحمام، حتى سقط قلبي وانقلبت عيناي إلى الإنارة في السقف. لم أدرك ما جرى. وجدت نفسي مستلقياً نصف واعٍ على أرض الحمام، وأخي ينادي ويطرق الباب بعنف وأنا لا أكاد أقوى على الإجابة. لم يكن أي شيء لحظتها يبدو واقعياً، ولا مبرَّراً أخلاقياً؛ لا يصح أن يسقط المرء هكذا كعصا مكنسة، بل ويبقى عاجزاً عن رفع نفسه كفزاعة ألقت بها الريح.

كنت لا أزال نصف واعٍ حين اجتمعوا خلف الباب، وتسرّبت مشوشة من خلاله أصواتهم الشهمة المتعاونة. حين ميّزت ما يقولون، تراءى لي أن لهم باعاً في كسر الأبواب، لأنهم عزموا على الأمر كما لو لم يكن يتعدّى إحداث ثقب في أحد الأبواب اليابانية ذات الشرائح الورقية سهلة الاختراق. وسرعان ما تردّد صدى خشب قوي ينكسر، وتعالت أصواتهم المتسرّبة أكثر فأكثر عبر الفجوة الآخذة بالاتساع. أظن أني حاولت أن أخبرهم أن يتركوني هنا قليلاً، وسأنهض وأمشي بنفسي، لكن أحداً لم ينتبه، ثم شعرت بنفسي أُحمَل عالياً كما لو كنت جثماناً. والحق أني لطالما افتقرت للكياسة الاجتماعية، ولم أعدم

طريقة أثبط بها رغبة الآخرين لدعوتي إلى بيوتهم، لكني هذه المرة فقت كل حدٍّ، فما عسى أن يقول الناس الآن؟ يستضيفونك في بيتهم ويكرمونك وعوضاً عن أن تجازيهم لكرمهم فإنك تموت بينهم، ألا يخالف هذا كل الأصول؟

لو أني أُترك في الحمام، فكرت، لو أني لا أُحمل على الأكتاف، لو أن أمي وحدها تكتشف، كما تجد فجأة غرضاً أضاعته، أو تنظف بيضة انكسرت منها على الأرض. ألا إنه من اللباقة أن يهلك المرء في حمّامه وحيداً، من دون أن يجده أحد سوى أمه. نعم، لم أكن لأشعر بالحرج لو أموت أمامها، أو أمام الطبيب الذي كان مسؤولاً عن ولادتي. ربما لا يليق إلّا بالأشخاص الذين رأوك تقتحم الحياة أن يروك في وضع الخروج.

بعد يوم من هذا، دعتهم أختي لزيارتي في المستشفى، بعد أن أبدو رغبتهم في الاطمئنان على نتاج شهامتهم. ولم يتوانوا عن الحضور جميعاً لتأدية الواجب. بمجرد دخولهم، توزّعوا على المقاعد وحول السرير وبعضهم وقوف. وكعادتي في تثبيط الزوار، استقبلتهم بتجاوبي المحدود حين يسألوني عن حالي، وبالصمت أمام كل محاولة للاستمرار في الحديث. وكان يُفترض بهذا أن يترك في نفوسهم نوعاً من الارتباك والشعور بالثقل والرغبة في المغادرة. لكنهم سرعان ما انصرفوا للثرثرة وتبادل النقاشات مع بعضهم البعض، متجادلين بكل أريحية في أيّ موضوع يخطر في أذهانهم، من دون حتى أدنى تحرّج من ارتفاع أصواتهم إلى خارج الغرفة. وبانصرافهم السريع إلى روتينهم المعتاد هذا، كانوا يؤكّدون أن انزعاجي بحضورهم هو حدث هامشي لا يجب أن يؤخذ بجدية، وأن عليّ أن أتقبّل حضورهم كما يفرضونه؛ فالآن وقد أنقذوا حياتي، صاروا يملكون حقاً إضافياً للتواجد فيها.

كنت أبقي نظرتي معلّقة ومنخفضة في مكان ما على السرير، وقد قررت أن الحل الأسلم لأحافظ على نفسي بينهم هو التجاهل التام. إلا أن حضورهم لم يكن قصيراً أو خفيفاً بأي حال، بل يمتد طيلة ساعات الفترة المخصّصة للزيارة. كلما خرج فوج منهم دخل آخر، كما لو أن أحداً أوصاهم بالمراقبة وتتبّع الحالة ورصد كل الاحتمالات.

في اليوم الثاني، أبدوا ارتياحاً ومرونة أكبر في مخاطبتي، وتمادوا أكثر في السعي لاستنطاقي ودفعي للتفاعل معهم. «لماذا أنت صموت هكذا؟ يجب أن تعبّر ولا تكتم ما في داخلك!». وكنت كلما تجاهلت أحداً منهم، سرعان ما يأتي آخر ويجلس إلى جانبي من الجهة الأخرى، متظاهراً أنه سيحدثني بعقلانية لم يحدّثني بها من سبقه، فيؤكد أنهم بهذه الانتقادات إنما يريدون لي الخير ويساعدونني على تخطي العواقب التي خلقتها لنفسي، بل وينسب الانحدار في حالتي لهذا الانغلاق بالتحديد، وكأن من شأن شخصية المرء أن تكون الحائل بينه وبين الشفاء.

كان من الوضح أنهم خاضوا في أمري في ما بينهم، بعد زيارتهم في اليوم السابق، وبعد الانطباع الذي تركته في مناسبتهم. وقد توصّلوا أخيراً إلى هذه النتيجة: إني يجب أن أغيّر أسلوب تعاملي مع المرض. فقد كانت صورتي كمُصاب لا توافق الصيغ المتفائلة للمحاربين، والتي تصوّر الندّية تجاه المرض بصفتها الطريقة الوحيدة للشفاء. لقد كانوا كغيرهم مشحونين بأخبار مكرّرة، من الصحف والإذاعات والتلفاز ووسائل التواصل، عن شخص هزم السرطان بقوة إيمانه، أو بحبه لعائلته، أو بابتسامته غير المنقطعة، وتفكيره الدائم بالورود، وأشياء مخنَثة من هذا القبيل، فيبدو الأمر في جوهره مرتبطاً بزاوية نظرك للأمور. وقد ذكر أحدهم لي قصة متسابق درّاجات مشهور فاز

بسباق كبير في أوروبا بعد انتقال سرطان خصيته إلى دماغه، لأنه امتلك العزيمة والشجاعة والقوة الداخلية لفعل هذا، من دون أن يذكر كيف جُرّد هذا المتسابق من لقبه لاحقاً بعد اكتشاف تعاطيه للمنشطات؛ فلأن الناس تحب ترديد قصص النجاة البطولية تلك والاقتداء بها واستخلاص العبر، كان يجب أن يُهمَل ذاك التفصيل الأخير. كل قصص الانتصار المشابهة لم تكن تمجّد قدرة الناجين على هزيمة المرض فحسب، بل تدين أيضاً عجز وضعف كل من هُزم. لكن من يكترث بما يجري للمهزومين؟

لم أكن في حال تسمح لي بأي اعتراض، فقد كانت حالتي النفسية والبدنية واهنة وسريعة الانحطاط، وحرارتي لا تزال مرتفعة منذ سقوطي في بيتهم قبل يومين. وقد أدركت أنهم يستمدون الآن حرية إضافية تجاهي من ذاك الوضع المحرج، من كونهم رأوني مغشيّاً عليَّ في حمامهم. وكان عجزي هذا يتركني في حالة دونية مخزية، حتى بعد مغادرتهم. كل هذا كان مترافقاً مع نوبات من الانقباض تراودني مؤخراً، وأحياناً نوع من الشعور بالهبوط في قرارة قلبي؛ إذ تصبح نبضاته بطيئة متباعدة، كضربات متقطعة على طبل ثقيل، وبطريقة ما أشعر به يتضخم في صدري كاتماً كل زفير. أقنع نفسي بأن الأمر لا يعدو حقيقة أن قلبي الآن صار أكبر، حرفياً لا مجازياً؛ وهذا هو الحال دائماً في أمراض نقص الدم، فهي تنهك القلب الذي يؤدي وظيفته بجهد بأقل نسبة من الدم، وشيئاً فشيئاً يزداد في الحجم من فرط الإنهاك.

حين لم يعد في مكنتي احتمال هذا التأثير السيئ لحضورهم يوماً بعد يوم، طلبت من الممرضات منع أي زائر من غير أسرتي. وقد تعاونت الممرضات معي خير تعاون، إذ كنَّ قد اشتكين مسبقاً من

الضجيج والازدحام الصادر عن أولئك القوم وتجمّعهم أحياناً في الممرات وأمام محطة التمريض. وهم حين حضروا في اليوم التالي في موعد الزيارة وعلموا بالمنع، أبدوا تفهّماً لرغبتي هذه وحاجتي للراحة أول الأمر، فلم يصرّوا كثيراً على الدخول. لكن بعضهم ظل يحوم حول الغرفة، منتظراً متفقّداً بكل حرص، حتى إن بعضهم راح بنفسه يسأل الطبيب عني كأي فرد من العائلة. وحين لم يتجاوب معهم بدوره، سرعان ما اشتكوا إلى أهلي معبرين عن حسن نياتهم وشعورهم بالإساءة.

أخي كان مشتّتاً بين شعوره بالذنب تجاههم بعد إفسادنا للمناسبة، وبين شعوره بالذنب تجاهي بعد سقوطي، ولعله ظن بأن ضغوطاته علي هي ما انتهت بي إلى هذه الحال. هكذا اتخذ موقفاً محايداً ممتنعاً عن التدخل في الأمور بين الطرفين. أما أختي فكانت تأتي وتبقى خارج الغرفة، رافضةً الدخول إليّ، معلنة بذلك تحيّزها لهم. وكأن هذا لم يكن كافياً، فقد راحت تفرغ غضبها على إدارة المستشفى. حتى إنها طلبت الطبيب أن يجيبهم عن كل ما يسألونه، مشدّدة على أنهم صاروا جزءاً من العائلة، ومن واجبه إبقاؤهم مطلعين. وهو لم يكن سعيداً بأن يضطر لإعادة شرح وضعي مرة تلو مرة، لكنه مثلي كان عليه أن يكون دبلوماسياً.

كنت أدرك أن خطوة إضافية مني تجاههم، بعد منعهم من دخول الغرفة، كانت ستطلق عقال الغضب المتراكم في نفس أمي. وكانت قد وُفقت حتى الآن في منع نفسها من لومي على شيء مما جرى وتسبب في هذه الفوضى، رغم أن حركاتها الصامتة تنم عمّا تغالبه من كتمان. صارت تتخذ سبل مقاومة أشد مراوغة، إذ امتنعت مثلاً عن تزويدي ببعض الكتب من البيت، متحجّجة بنسيانها أو عدم العثور عليها في

غرفتي. لم تحضر لي سوى كمبيوتري المحمول، ومع هذا يخيَّل لي من نظراتها أنني نغل مدلل كثير الطلبات. وعوضاً عن أن تواجهني بما يثير سخطها تجاهي، فإنها صارت توجّه طاقتها نحو الطبيب، فتتجادل معه بعصبية، وتنتقد ميله للتساهل معي والخضوع لأهوائي، بل وتحثّه على التشدّد أكثر في العلاج.

نتج عن هذا، أمام الضغوطات الجديدة المفروضة علينا، نوع من تحسين علاقتي بالطبيب. ها قد صرنا حليفين، أخيراً، في مواجهة عدو مشترك. حتى إني بدأت ألتزم بحبوب الاكتئاب التي وصفها لي، لكنه قال إنها ستتطلّب شهرين على أقل تقدير قبل أن يبدأ مفعولها. أحياناً أفكر كم من الأشياء كنت سأفعلها بطريقة مختلفة لو كان في وسعي خوض كل هذا من جديد. لكن على المرء ألّا يبدأ بالندم؛ إذا بدأ فلن يتوقّف بعدها أبداً.

الأسبوع 29:

بقيت في المستشفى أسبوعاً آخر حتى بعد انخفاض حرارتي، لأجل المزيد من الراحة الضرورية كما قال الطبيب. وطالما كنت هنا على كل حال، فلِمَ لا نجري فحص الأشعة المقطعية؟ لكن لنتأكد من إمكانية إجرائه، يجب أن نجري بعض الفحوصات، والتي قد تقود بدورها لإجراء فحوصات أخرى. فحوصات تلو فحوصات، وأنت توقّع وتوقّع وتوقّع، على الورقة الوردية والصفراء والزرقاء؛ في نظرك كلّها سواء. بعد فترة تختلط الأمور ولا تدري لأي غرض تجري هذا الفحص أو ذاك. كل ما ترغب بمعرفته هو الخلاصة. متى ستظهر النتيجة أيها الطبيب؟ لكن هذا سؤال عام أكثر من اللازم. هل تعني نتيجة فحص الدم؟ البول؟ النخاع؟ الأشعة السينية؟ التصوير المقطعي المحوسب؟ حتى نتأكد من نتيجة هذا الفحص يجب أن ننتظر نتيجة ذاك الفحص، وريثما ننتظر، فلنجر المزيد من الفحوصات.

كان موعدي اليوم مع فحص الرنين المغناطيسي، وهو أهمها بحسب ما فهمت، لأنه يحدّد بطريقة قاطعة إن كان ثمة استشراء

للسرطان في بقية الجسد. كنت جالساً أنتظر في غرفة جانبية صغيرة وجَّهتني لها إحدى الممرضات، ثم دخلت أخصائية الجهاز. حين تقضي كل هذا الوقت في المستشفى، محدقاً في ذات الوجوه المكرورة، والتي ارتبط كل منها بموقف سابق مشين، فإن كل حضور جديد يشكّل حالة انتعاش. وقد جاءت هذه بردائها الرمادي الداكن، المغاير للأردية الزرق لبقية الممرضات، وعلى وجهها ابتسامة هائلة، كأني حصلت بدخولها على جائزة.

كانت مواطنة محلية شابة، في منتصف العشرينات، لها درجة برونزية من السمرة، كتلك التي لا تحصل عليها إلا بالتشمّس، وهذا أول ما تلحظه منها. لونها البرونزي الحاد كان يتباين بشكل لطيف مع تورّد وجنتيها، والذي لم يكن بدوره طبيعياً تماماً. وهي حين تبتسم تبدو أسنانها اللؤلؤية، لشدة بياضها، كما لو تعرّضت أيضاً للصقل والتلوين. وكانت ترتدي إيشارباً أبيض بنفس درجة معطفها وحذائها وأسنانها، ومطرزاً بالورود على نحو يلائم الحمرة الخفيفة على وجنتيها. وفي العموم يمكن القول إن لها مظهراً ناعماً وأنيقاً لا يخلو رغم هذا من كونه احترافياً ومواكباً للعمل؛ ولتؤكد هذه الفكرة، كانت تضع حول معصمها ساعة متألقة باهظة الثمن، تدلّل على أنه خليق بها أن تكون باذخة الأناقة حين يُتاح لها الخروج من زي العمل.

سألتني كيف الحال؛ فأجبت بأني بخير. وأنتِ؟ فأكدتْ أنها جيدة. ثم طلبت مني أن أنزع كل خاتم أو ساعة أو سلسلة. ولأني لم أضع يوماً شيئاً منها، شعرتُ كما لو أني تجهّزت لهذا الفحص طيلة حياتي. نعم، لم أشعر يوماً بجدوى اختراع ساعة اليد. صحيح أني أرغب بمعرفة الوقت أحياناً، لكن ليس إلى درجة أن أعلّق حول معصمي تنبيهاً مستمراً بمروره. وفي كل الأحوال، الجوّالات هذه الأيام تفي

بالغرض. وقد أردت أن أطرح عليها هذه الأفكار بجدية وأرى رد فعلها، ولعلنا نتناقش قليلاً. حين تتقاطع مع هؤلاء الموظفات اللاتي يلتقينك للمرة الأولى في المستشفى، يخيّل لك أن بإمكانك إيهامهنّ بأنك لست هنا لأنك مريض، بل وتتلبّس دور شخص مرِح جاء إلى هنا لغرضٍ عابر وبإمكانه أن يخوض محادثات جانبية عابثة؛ لكن هذا الوهم سرعان ما يتبدّد بمجرّد أن يبدأ عملهنّ فيك.

استأذنَتْ أن توجه لي أسئلة روتينية، إذ لا بد أن يعرفوا قبل الفحص إن كان المريض امرأة حاملاً، أو لديه قطعة معدنية داخل جسده، كما يحدث حين يصاب بشظية من قذيفة أو رصاصة. بمجرد أن يدخل المرء تحت الجهاز يمكن أن تجتذب الطاقة المغناطيسية العالية تلك القطعة المعدنية فتخرج مخترقة إياه بسرعة هائلة. وأثناء شرحها رحت أتخيّل جسدي وهو يتقطع داخل الجهاز، شذراً مذراً، بسبب قطعة معدنية لم أكن أعرف بوجودها داخلي. ورغم تأكدي أني لم أصب يوماً بشظية أو رصاصة، تماماً بقدر تأكدي أني لست امرأة حاملاً، إلا أني أخذت أفكر بجدية إن كان ذلك قد جرى لي في فترة ما من حياتي من دون أن أكون قادراً على التذكّر.

طلبَتْ أن تقوم بغرزي بحقنة الفحص الملوِّنة، والتي يفترض أن تمنح صوراً أوضح لأعضاء الجسم تحت الجهاز كما قالت. كانت تبدو ضليعة بما تفعله رغم حداثة عهدها بالعمل. ثم كشفتُ لها عن ذراعي برضوضها البنفسجية، والتي لم تبرأ بعد من آثار الإبر السابقة، فتوقفتْ عن الابتسام. ورغم أنها جاهدت كي تبدو معتادة على الأمر، إلا أنه بات من الواضح أنها لم تكن تبتسم تلطّفاً، بل خشية أن تُنعت بالفظاظة. اكتسى وجهها بشيء من الارتباك وهي تغرز الإبرة، ولعلها تنبّهت فجأة لإمكانية ارتكابها لخطأ لا تقصده. وحين كنت

أوجّهها لأن تفعل أي شيء بطريقة مختلفة، كأن تلصق القطنة على ذراعي بعد الحقن، فإن وجهها بأكمله كان يتخذ هيئة جادة مرتبكة، ثم ترمقني بنظرة تقول إن علي لوم نفسي لكون موضع الحقنة لم يتخثر مثلاً. لا بد أنها نالت ما يكفي من لوم المرضى بحيث صارت تستبق حدوثه وتبادر بالدفاع، فكرتُ. وشعرتُ بأنه إذا ساءت الأمور أكثر فإن اهتمامها سينصبّ على إيضاح أنها لم ترتكب خطأً، عوضاً عن المسارعة في إسعافي.

كان كلانا مرتبكاً قليلاً حين بدأت تساعدني في الانتقال إلى المحفّة، وأنا في مِبذل المستشفى الفضفاض القصير، ونحن في مستوى تلامس لا يأذن به هنا سوى الطب. ولم يكن ذاك انتقالاً سلساً بسبب حالتي الجسدية، وذاك التصلّب في الجانب الأيمن من بطني. كانت رائحة عطرها تصلني قريبة فوّاحة، وكانت حسنة المظهر بما يكفي لأن أرغب أن أكون أكثر استعداداً، ورغم هذا لم تراودني أي فكرة تجاهها، فقد كنت أعرف أن فرصي معها تقارب الصفر. كل شيء في مظهري عموماً كان يذكّر بمدى السوء الذي تَرَدّت له حالتي. لقد تطلّب الأمر تحوّلاً بهذه البشاعة كي أدرك كم كان مظهري السابق لا يخلو من حُسن أو لطافة من جهة أو أخرى.

أثناء طريقنا إلى غرفة الفحص، أخذت أسترق النظر إليها من وضعيتي المستلقية فوق المحفّة. وقد لاحظت عن قرب أن لونها البرونزي يبدو مصطنعاً أكثر من اللازم. وخمنتُ بديهياً، من طبيعة معيشتها هنا، أنها لم تُسفع بالشمس على الشطآن، بل ربما في أحد كبسولات التشمّس الصناعية تلك، التي تستلقي داخلها وتغلق غطاءها فوقك فتقوم مصابيحها الفلورنسية الداخلية بصبغك. وتَأكد تصوّري هذا حين وجدت أن تلك الكبسولات تبدو نوعاً ما مثل جهاز الرنين

المغناطيسي الذي أخذتني إليه، ولعلها اختارت أن تصبح مختصة في هذا الجهاز تحديداً بسبب تاريخها مع أجهزة التشمّس المشابهة تلك.

داخل الكبسولة الطويلة المنغلقة عليّ في جوفها، والمفتوحة فقط من جهة القدمين، صرت متمدداً لثالث مرة هذ اليوم، بعد سريري والمحفّة، فوق سطح جديد. كانت هي تجلس في مكان ما خلف نافذة زجاج وتلقي تعليماتها، مذكرة إياي بعدم الحركة، وكأنها تقرأ رغبتي في رفع رأسي وتحريك يدي لقياس حدود هذا التجويف الأسطواني الضيق. كان الجهاز يصدر ضجيجاً مدوياً، لكن بإمكاني أن أسمع صوتها من ميكروفون داخلي. وهي ما إن انتهت من إلقاء تعليماتها، حتى قررت أن تلزم الصمت بقية الساعة التي هي مدة الفحص. وكان عليَّ أن ألتزم بالسكون والثبات التام طوال تلك المدة، كمن يلتقط بورتريهاً بكاميرا من القرن التاسع عشر.

في تلك العزلة الساكنة والعمياء، رحت أتنقل بين مختلف ضروب الأفكار، حتى أصبت نفسي بالذعر. لقد تراءى لي أن هذا ما سيكون عليه الأمر داخل القبر. لكن الموت لم يكن هو الجزء المفزع من الفكرة، بل أن أستيقظ واعياً على هذا النحو. إذ يحدث أن يُدفن المرء حياً بالخطأ، أو يستعيد قلبه نبضاته فجأة بعد أن يُهال عليه التراب، ثم يموت مجدداً بعد ساعات قضاها في الهلع، ربما أفظع أنواع الهلع. أين قرأت عن هذا مؤخراً؟ لو أن الأمر يحدث في 80 بالمئة من حالات الوفاة لما أدركنا أنه يحدث بتلك الوفرة، إذ لا يخطر لأحدهم نبش المقابر لإجراء إحصاءات كهذه، وبالتالي نفترض أنها نادرة، وهذا وحده أمر يثير الاضطراب. وحتى لو كان يحدث بنسبة 1 في المئة لبعض البلهاء، فلا يمكن أن أثق بذكاء جسدي بهذا الخصوص، أو بأي خصوص آخر. فقد كان جسدي أرعن بما يكفي لأن تتخبط

خلاياه ويصاب باللوكيميا، ونسبة الإصابة بها على الأرجح أقل من نسبة الاستيقاظ في قبر، فلن يعجزه إذاً أن يشطح إلى هذا أيضاً.

ومع ازدياد القلق داخل هذا التجويف الضيّق، أخذت أقلّب بكل جدية الخيارات الممكنة لتفادي ذاك الخطر. لقد مضى وقت طويل منذ آخر جنازة حضرتها، ولا أذكر بالتفصيل كيف يتم الدفن في هذه البلاد. حتى في جنازة والدي وصلتُ إلى المقبرة متأخراً بعد الصلاة وكانت الحشود تحيط بالحفرة على نحو يحجب الرؤية. أشك في أن هذا ممكن هنا، لكن سيكون مطمئناً لو قبلوا أن يُدفن كمبيوتري المحمول معي في القبر، ببطارية مكتملة الشحن. هكذا يمكن على الأقل أن أمرّر الوقت بالكتابة، فينتهي الأمر بأقل هلع ممكن. لكن حين أفكّر في كتاباتي مؤخراً، قد يكون من الأفضل أن أشاهد فيلماً، أو عرضاً كوميدياً، أو أي بلاهة لا تتطلّب الواي فاي.

فجأةً، التمع مصدر الفكرة بذاكرتي. كلا، لم أقرأ عن هذا في أي مكان؛ لقد كان عرض ستاند آب كوميدي، وكان الرجل يتحدّث عن رفضه للتبرّع بأعضائه بعد الوفاة، وكان يخبر الجمهور أن السبب الوحيد الذي يمكن أن يقنعه بذلك هو فكرة ألّا يُدفن بجسد يمكن أن يغيّر رأيه بعد الوفاة. ليست فكرة طريفة جداً، لكنها مثالية في حالتي. كلّما قلّبتها في ذهني داخل هذه الأسطوانة، كلما أخذت توقع الراحة في نفسي. وشيئاً فشيئاً شعرت بنفسي أستعيد تلك الخفّة التي غابت عني مؤخّراً، بل هي خفّة جديدة تنبع من كوني أملك خطة للقبر. فليحدث ما يحدث في هذه الحياة طالما أني حين أموت سأبقى ميتاً؛ أما ما يجري بعدها، فهذه نظرة مستقبلية أكثر من اللازم.

انتهى التصوير على ما يرام، وكنت فخوراً بقدرتي على التحكم

بأعصابي، وقد بات هذا سهلاً نسبياً بعد أن صارت لديّ خطة مضمونة: التبرّع بالأعضاء. والفتاة البرونزية لاحظت راحة أعصابي، وهي تدفعني عائدة إلى الغرفة، وقد عادت لها ابتسامتها الزائفة، وبدت سعيدة أن تم الأمر من دون اضطرابات، حتى إنها لتعبّر عن رضاها سألتني: «ألم تكن خائفاً؟ الكثير من المرضى يجدون أنفسهم مرعوبين داخل ذلك الجهاز».

قلت: «لا بأس، إنه تدريب جيد على القبر». ولم تعجبها الإجابة، لأني قرنت بين تخصّصها وبين الموت، وعاد لها مزاجها النكد.

- «لكنه لا يبدو مثل قبر، فهو في غرفة مُنارة جيداً، كما أنه مفتوح من جهة القدمين».

كنت في مزاج مرح بدوري وراودتني رغبة بالعبث. فقلت:

- «صحيح، لا يبدو مثل قبر، ربما كان أقرب إلى ثلاجة الموتى».

وابتسمتُ لأؤكد نبرتي المازحة، لكنها لم تبتسم في المقابل. إنهن يتخذن حالة دفاعية حين تتحدّث بسوء عن جهاز طبي أو فحص ما، كأنك إنما تهاجم جوهر الطب الذي ينتمون إليه ويمثّلونه، بل يشعرون بالضرورة بأنه جوهرهم أيضاً.

- «ربما كنتَ تعاني من رهاب الأماكن المغلقة»، قالت، محاولة أن تجعل الأمر غلطتي مجدّداً، ثم لم تحدّثني بكلمة أخرى. وما إن أعادتني إلى الغرفة حتى انصرفتْ. وانصرفتُ بدوري إلى الراحة بالتمدّد فوق السرير، وكأني لم أكن مستلقياً لساعة لتوّي. ألا إنه شعور ممتع أن تتلقّى الخدمات من شخص يمقتك؛ لا عجب أن كل هؤلاء الرؤساء أبناء عاهرة بهيجون.

لأول مرة منذ وقت طويل، كنت أستمتع بخلوّ ذهني من المشاغل. كانت الأشهر الثلاثة المخصصة للإجازة المرضية قد انقضت، وبعدها كان عليَّ الاختيار بين العودة للعمل أو التقاعد الإجباري. ولقد اختار جسدي القرار بالنيابة عني، ولعل تهوّري الأخير مع الفايروس الإلكتروني سهّل المهمة من ناحيتهم. التقاعد ليس سيئاً بالضرورة، فقد اتضح لي الآن أن المنقصة الوحيدة هي إلغاء التأمين الطبي المتكفّل بالعلاج. سأدفع بقية فواتير المستشفى من مستحقات الخدمة وما وفّرته من مدّخرات. هناك أيضاً البيت الذي سيُباع بعد زفاف أخي؛ رغم أن أحداً لا يتحدّث بالأمر منذ إصابتي بالمرض. المهم أني أملك مبلغاً كافياً لتغطية النفقات حتى آخر جلسة علاجية هنا؛ أما ما يحدث بعدها، فهذه نظرة مستقبلية أكثر من اللازم.

***

كان هناك خبران؛ الأول سيئ والآخر أسوأ. السيئ هو أني لا أستطيع التوقيع على عريضة التبرع بالأعضاء، فأعضائي المسرطنة والمشبَعة بالكيماويات لن تكون ذات نفع كبير لهم بعد وفاتي، كما شرح الطبيب الأمر بكلمات ألطف من هذه. لم يعلم أن كل ما كنت أهدف إليه هو أن أتجنّب إمكانية أن يستعيد جسدي حماسته للتنفس داخل القبر. شعرت به ينظر نحوي بمواساة لا تخلو من التقدير، منبهراً برغبتي بإفادة بقية المرضى بأعضائي، ولعله ظن أنه يرى أخيراً الجانب الإنساني المتخفّي خلف إهمالي.

ظل صامتاً لبرهة، بينما وجهه المتأثر على غير عادته يمهّدني للخبر الثاني. وسرعان ما استعادت ملامحه جدّيتها المعتادة وبدأ يشرح بطريقته المنطلقة التي لا تمنح فرصة للاعتراض. «بما أن الكبد يعمل

كمصفاة للدم المتدفق في الجسم، فقد كان أكثر الأعضاء عرضة لأن تنتقل إليه الخلايا الخبيثة. الأعراض لا تظهر سريعاً، وفي حالة سرطان الكبد الثانوي فإنها تختلط أصلاً بأعراض سرطان الدم الأوّلي. الوهن وانسداد الشهية ونقص الوزن والغثيان والشعور بالشبع والحمّى والتضخم في الكبد وغيرها؛ إلى جانب الآثار الجانبية للكيمو، لم يكن ثمة في الأعراض ما يلفت». ظل يؤكّد أنه لم يكن خطأهم كونهم لم يرصدوه إلا الآن.

وأثناء حديثه المسترسل عن حالة كبدي، عاودتني ذكرى وفاة والدي قبل ثماني سنين. في ذهني مرّت سريعاً تلك الأيام الطويلة لفحوصاته في المستشفى، والتي لم تكشف أبداً سبب ارتفاع أنزيمات الكبد لديه. فجأة تدهورت حالته، وأتمّ موته بذات الغموض الذي عاش به حياته. بطريقة ما، لا زلت أحمل في جزء مني هذا الشعور بعدم اكتمال وفاته، رغم أني كنت حاضراً راصداً لكل ما يجري. إنه شعور تعزّزه الكيفية التي ظل بها صدره يعلو ويهبط، بمساعدة من جهاز التنفس الاصطناعي، حتى بعد أن فارقت روحه الجسد. مؤخّراً، وربما بسبب تأثيرات الكيماويات في ذهني، تراودني عنه أحلام يعود فيها بيننا كما لو كان عائداً من سفر، ربما كانت امتداداً لشعوري ذاك بعدم اكتمال وفاته. ثمة في أحدها بالتحديد ما يبدو حقيقياً إلى حد يفوق قدرتي على التجاوز.

وجدناه يدخل فجأة من الباب؛ صدره مقطب بغرز، كمن أجرى زراعة للقلب، وبطنه منتفخ من أثر تضخم الكبد، وهو يتقدم منهكاً عاري الجذع في نور شاحب. كان قد استيقظ من الموت، لم يكن في ذلك شك، كما يوحي ذبول بشرته المطلية بالغبار، وآثار الدماء الجافة عليها في مناطق متفرقة، وفمه المتيبس المشرع قليلاً؛ مظهر

شخص في حاجة شديدة للماء لكن لا يطلبه، ربما لأن عطشه ذاك من نوع آخر، نوع لا ينتمي إلى هذا العالم. لم يكن قد استعاد كامل ذاكرته بعد، ولعله اهتدى إلى البيت من دون أن يميّز طريقه، لكنه بدا راغباً أن يكمل حياته معنا من حيث توقفت. ومع هذا، كان يرتجف خوفاً من أن يُرفض، مثل حيوان تسلل إلى منزل ناشداً الدفء، مدركاً أنه على الأرجح سيُطرد مجدداً للبرد والريح العاصفة والعراء. كان هذا أتعس شيء رأيته في حياتي. وقد أمسكنا بيده وأقعدناه، وجلسنا نهوّن عليه ونزيح ارتباكه، ثم رحنا نواسيه ونعده ونقنعه أن يعاود السفر مجدداً من حيث جاء؛ فقط عملية بسيطة سيجريها هناك، في ذلك المكان الذي أتى منه، ليستعيد صحته جيداً، وسنستقبله بعدها كأن شيئاً لم يحدث. أخذ يقلب النظر إلينا، بعينيه المصفرَّتين من أثر مرضه الأخير، وقد ازداد تنفسه ارتباكاً لمجرد فكرة العودة. اقتنع في النهاية بكذبتنا، إلا أنه حين نهض ليخرج، لم يكن أمله هذا يغير من مشيته المرتجفة شيئاً. كان واضحاً من مشيته وحدها أنه لم يعد له مكان بيننا، لكن لم يكن ثمة بد من المخاتلة لإعادته إلى حيث بات ينتمي.

رفع الطبيب صوته ليستعيد انتباهي، مشدّداً على أهمية ما سيقوله الآن. العلاج الوحيد الممكن في هذه الحالة هو الإشعاعي، قال. الأشعة الخارجية التقليدية ليست خياراً، لأنها سرعان ما ستفسد الأنسجة السليمة للكبد، لكن من الممكن إجراء نوع من الإشعاع الداخلي عن طريق زرع نظائر مشعة قرب الكبد نفسه. ستطلق هذه النظائر أشعّتها طوال الشهرين المقبلين، وسيضعف إشعاعها تدريجياً من تلقاء ذاتها حتى نهاية فترة العلاج. هذا يعني أنها ستكون أقوى ما تكون عليه في الأسبوع الأول بعد زرعها، وسأضطر للبقاء في المستشفى في غرفة عزل صحي، بأقل احتكاك ممكن حتى مع

الممرضات. سيكون جسدي كتلة مشعة، ومجرد تواجد الآخرين حولي سيشكّل تهديداً لإصابتهم بالتسرطن.

بسبب تكاليف هذا العلاج، سيصبح المال قضية محورية يوماً بعد يوم. وإضافة إلى كل أعراض جلسات الكيماوي، والآخذة بالاشتداد مع انحدار مناعتي، ستكون هناك منذ الآن أعراض الإشعاع. ثم لتخفيف كل هذه الأعراض، المزيد من المهدئات، المزيد من مضادات الغثيان، المزيد من حُقن المناعة، المزيد من الانفصال الذهني والبدني عن كل ما يجري خارج الجسد. وفي خلفية كل هذا، شيء ما يزحف داخلي، كغبار أسود، مطارداً كل عزيمة لي على النجاة. يا لمبلغ اليأس الذي أتحرّى الوقوع فيه قبل أن أبدأ بالإصغاء أخيراً لحاجتي للإنقاذ.

الأسبوع 34:

لم أكتب منذ دهر. كنت أحاول توفير هذا للأوقات التي أكون فيها متنبّهاً، لكن أوقاتاً كهذه لم تعد تأتي إلا نادراً. منذ الجلسة الأخيرة المصحوبة بالإشعاعي، أصبح ضعف التركيز حالة شبه دائمة، وكثيراً ما أفقد تلك القدرة البديهية على ربط الأمور وتحليلها. العثور على الكلمة المناسبة يتطلّب جهداً أكبر من اللازم، حتى تذكّر كلمة السر الخاصة بالجهاز أو بالبريد الإلكتروني لم تعد عملية تلقائية. كثيراً ما أطلب كلمات سر جديدة، أسجلها على قصاصات وأبقيها في دُرج أو إلى جانب الجهاز حتى يتسنى لي تذكّرها لاحقاً. ثم هل أفتح هذا البرنامج أو ذاك إذا أردت أن أكتب، أم إني كنت أريد أن أبحث عن شيء ما على الانترنت؟ أبقى حائراً لدقائق من دون أن أتذكّر ما كنت أرغب بفعله، أو أقرر كيف أباشر للخطوة التالية.

لم يكن ذهني هو العائق الوحيد. حتى فترة قريبة، لم أكن قادراً على الكتابة من دون أن تتورّم مفاصلي. علب الأدوية الأسطوانية محكمة الإغلاق لا تساعد كثيراً. أطرافي فقدت كل صلابة؛ مجرد امتدادات

ليّنة ضامرة غير صالحة لأن تدفع ريشة. حين عدت إلى البيت أول الأمر، لم أكن أتحرك إلا بعكاز. قدماي بالكاد تحملاني، وبمجرد نهوضي أدرك أن الأمر لا يستدعي جهد الوصول إليه. سرعان ما تشكّلت تحت إبطي كدمات مزرقّة من أثر الاتكاء على العكاز. إذا حاولت الاستغناء عنه أشعر بالدوار خلال بضع خطوات؛ أتمسك بالجدران ومقابض الأبواب كي أحافظ على توازني في اللحظات الأخيرة. وعند كل سقوط أو اصطدام جديد، تتشكّل كدمة جديدة في مكان جديد. جلدي صار خارطة من البقع الداكنة، تأريخ بصريّ لكل رعونة جسدية.

امتنعت طوال الأسبوع الأول عن طلب أي مساعدة من الآخرين؛ من المذهل تصور كمية الأشياء التي قد أرغم نفسي على المرور بها فقط كي لا أحتاج لأحد. تحجّجت لهم بخطر أن يبقوا حولي بعد زراعة النظائر، إذ لا يزال جسدي مصدراً مشعاً رغم انتهاء العزل. وفي الأسبوع الثاني، أجريت خزعة أخرى للنخاع العظمي، لمعرفة مدى فاعلية الكيماوي في القضاء على السرطان حتى الآن. ذات الخزعة التي أجريتها لتأكيد إصابتي بالمرض، لكن لم يكن يمكن المخاطرة بالسفر إلى العاصمة هذه المرة. إبرة بطول 15 سم في آخر فقرة في الظهر؛ حتى الجلوس أصبح بعدها مهمة مضنية. شيئاً فشيئاً تصبح الوضعية الوحيدة التي أستسيغها هي الاستلقاء. أرتدي أقمشة خفيفة واسعة وأبقى أمام تيار الهواء، عاجزاً عن الحركة من دون تيار من السخط في ظهري. ثم كان الجفاف، والالتهابات الجلدية، والتقرّحات، وذلك الشعور المستمر بالاحتقان. ألم في كل مكان، عبر كل الطبقات، في الجلد والعظام والأحشاء والعضلات، وبينها ألم يسري عبر المفاصل والفراغات. «الألم هو الحقيقة الوحيدة»،

الكثيرون قالوا صيغة ما من هذه العبارة، ومع هذا لا يكتمل إدراكك لها سوى حين تبلغ درجة فاحشة من الألم المطّرد.

لا أكاد أذكر لحظة واحدة، خلال هذه الأسابيع، لم أكن أعاني منها من ألم ما يتآكلني ويقوّض رغبتي بالصبر. إنه كلب ينبح في جسدي ليل نهار. أحاول النوم قدر الإمكان لكن نادراً ما يسمح هذا النباح بذلك. وحين أستيقظ يكون أول ما أنتظره، إذا لم يكن هو ما أوقظني. لقد انتهت تلك الأيام التي أستيقظ فيها بحسن ظن تجاه حالتي؛ ذلك نوع من المقياس البيولوجي الذي تتغير برمجته تدريجياً بعد أن تعيش مع المرض مدة كافية. كل يوم تفتح عينيك وأنت تتوقّع تلقائياً أنك ستكون في حال سيئة، حتى قبل أن تبدأ بالإدراك والشعور. هذا لا يعني الألفة، فأنت لا تعتاد أبداً على المرض، فقط تنسى كيف كان الأمر حين لم تكن مريضاً.

عند هذه المرحلة، كنت قد أبعدت كلمة الشفاء من قاموسي بشكل نهائي. فحتى لو تم القضاء على السرطان، فإن الأعراض الجانبية المزمنة، التي خلّفها المرض والعلاج، قد محت كل أمل لي في الحياة الطبيعية السليمة. وكان الإدراك المتجدّد لهذه الحقيقة أمراً لا يطاق. أحياناً، أشعر كما لو أني أكتشف إصابتي بالمرض للمرة الأولى من جديد.

مع هذا الشعور يستفحل الاكتئاب، ومعه يأتي المزيد من الشلل والعجز عن الحركة. حتى بعد أن تنشّط بدني واستعاد شيئاً من مناعته في الأسبوع الثالث، كنت أفضل أن أبقى في السرير معظم اليوم، كأني مشدود إليه بصخرة فوق صدري. أرفع الغطاء، أزيحه، أنقلب على هذا الجانب، أعود إلى الآخر؛ هذا كل ما أقوم به من نشاط. وليس

الأمر أني أكون مسترخياً إذا حافظت على هذا السكون، لكن يُهيَّأ لي أن قلبي سيسقط إذا ما نهضت. حين ألمس موضعه أشعر بالاختناق، أشعر به ملتصقاً تماماً بالجلد. أشعر بالنبض، النبض، النبض، كل نبضة انقباض في حلقي.

لم أعد أميّز متى يبدأ الألم الجسدي في أن يصير نفسياً، أو يبدأ الألم النفسي في أن يصير جسدياً؛ أيهما يشحذ الآخر؟ كل ما يصيب بدني كان يصيب روحي، أيضاً، في اللحظة ذاتها، وبالقوة نفسها، والعكس تقريباً صحيح. أحياناً، يحدث أن أحدّق في علب الأدوية المصفوفة بجانبي على الكومودينة، بأسطواناتها الشفافة الممتلئة حتى ربعها أو نصفها، وأفكر بأن الأمر سهل وفي متناول اليد. كل ما عليك فعله هو ابتلاعها واحدة تلو الأخرى. أفكر لكن دونما أي جدّية، كما أفكر برحلة للخارج؛ مجرد احتمال بعيد أتوق له من دون أن أكون عازماً أبداً على اتخاذ القرار. وأخيراً أفهم مقولة سيوران: «لو لم يكن الانتحار خياراً لقتلت نفسي».

كان هذا هو الحال معظم فترات الشهر. مؤخراً فقط، في هذا الأسبوع الرابع، بدأت أستعيد شيئاً من ذاتي القديمة، الآن وأنا أبعد ما أكون عن الجلسة السابقة وأقرب ما أكون إلى الجلسة التالية، على بُعد أيام قليلة قبل أن تبدأ المعضلة كلها من جديد.

بمجرد أن صار يسعني الخروج، خطر لي أن أزور جدي؛ قالوا إنه صار عاجزاً عن مفارقة السرير. دخلت غرفته ووجدته مستلقياً على الفراش كما توقّعت. وهو بمجرّد أن تعرّفني، طلب مني بإشارة من يده أن أعاونه على الجلوس. سحبته من ذراعه، وأسندته بمخدة على ظهره، ثم جلست بجانبه ملتقطاً أنفاسي إثر هذا المجهود. لم يرفع

رأسه إليّ، ولم يبكِ، ولم نتحدث بشيء طوال الزيارة. بقينا فقط على هذا الحال؛ ساكنَيْن، مطرقَيْن، متجاورَين بوقار، كخصيتين متهدّلتَين. من يرانا سيظنّ أننا في منافسة، أيُّنا يبدو مزرياً أكثر من الآخر. لكننا كنا نتشارك خاطراً ما، وكان يكفي أن نجلس هكذا ليتوحّد هذا الإدراك، بلا كلمات، بلا إيماءات، بلا أي طبطبة أو ملامسات؛ بالطريقة المواسية التي ينسجم بها عجوزان في آخر العمر، يجلسان معاً، وكلاً منهما وحده، على حافة الموت.

كان هذا قبل أيام قليلة من وفاته. وإني لأتساءل الآن إذا ما كان بكاؤه الكثيف، طيلة الشهور الماضية، يعود لكونه استبصر اقتراب أجله. ولعله حدَسَ الأمر مسبقاً من دون أي دليل جازم، كأنما أخبره الله وحياً أنه قد أزفت ساعته. نعم، لطالما كان جدي أشبه بنبي.

كنت أقرأ رواية توماس مان الطويلة نفسها، وقد شارفت على إنهائها أخيراً، حين اتصل أخي ليبلغني بالوفاة. كان الخبر قد وصله عن طريق أعمامي فيما كان هو في رحلة عمل، ولم يكن تمكنه العودة، فأكّد لي على ضرورة حضوري الجنازة بالنيابة عنه. أنهيت المكالمة ورحت أفكر إن كان من اللائق أن أكمل الرواية التي بين يديّ. ما العدد الأقصى من الصفحات المقبول قراءتها بعد إبلاغك بخبر كهذا؟ أم إنه يجدر بكل شيء أن يُقطع ويلقى بالكتب جانباً؟ لعله من الوقاحة بما يكفي أن يضع المرء فاصلاً ليعرف أين توقّف في القراءة.

قرّروا أن يتم الدفن في اليوم نفسه بعد صلاة العشاء. لم يكن ثمة سبب يدفعه للتأخر. كل شيء تمّ بحِرص وعجلة، كما لو كان يلقي التوجيهات بنفسه. تسليمة واحدة بعد الصلاة، ثم إلى المقبرة. ومن

سيارة الإسعاف خرج يطفو، خفيفاً طيعاً، فوق الأيدي والرؤوس والأكتاف. لم يكن ثمة لبس؛ إنها المقبرة الوحيدة في المدينة، والقبر مُنار بكشّاف، القبر الوحيد المنار في الجوار. ثلاثة أشخاص كانوا قبله في الحفرة. أدخلوه وخرج أحدهم، وأخذ يلقي التوجيهات: الرأس هنا والقدم هناك. خرج الثاني وأخذ يمد اللبنات. وحين خرج الثالث، لم يعد يبدو من الجثمان شيء. والأيدي ألقت بالرمل، والرمل، والرمل، ثم مدت بالدلاء، والماء، والحصى، والدعاء، ثم تفرق الجمع، وسرعان ما جف الماء فوق الحصى والطين، وأخذ يبدو فوراً كالقبر المجاور. هذا كل العمل المطلوب لموارة جثة؛ بعد 90 عاماً من الوجود، هذا كل الوقت الضروري للانتقال من فوق السطح إلى أسفله.

المقبرة أخذت تخلو شيئاً فشيئاً، وقد بدت ليلاً كأن عاليها سافلها؛ قبرٌ واسع مظلم تُرك مكشوفاً للعبرة. وحين لفظت آخر زوارها، بدا أن كل شيء لم يجر سوى في مخيلة أحدهم.

كنت وحدي أمام القبر المنار، وعلى مسافة ما سيارتي؛ لا شيء آخر يبرز فوق الارتفاع الموحّد للقبور. تلكأتُ في المكوث، جلست قليلاً، راودتني رغبة في الاستلقاء، في الاندماج بالمشهد إلى أقصى نقطة ممكنة. كان لا يزال يراودني شعور أن الأمر يجب ألّا ينتهي بهذه الخفّة. ثم جاء الحارس وأطفأ الكشاف. تلمّستُ طريقي إلى السيارة، مستخدماً هاتفي الجوال، ثم قدُت ببطء وحذر. الأنوار الأمامية للسيارة ظلت تنير الطريق الرملية الضيقة وتعرّي القبور المجاورة، حتى شعرت بأن أحدهم سيستيقظ فجأة ويطلب خفض الإضاءة. لا شيء سوى وقع العجلات على الحصى. توقفت متروّياً أمام البوابة، كما لو أغادر مواقف تحت-أرضية، وألقيت نظرة أخيرة مطوَّلة. كنت

أتساءل إن كان يمكن لي تخمين موضع والدي وسط تلك القبور. ربما كان يمكن لو عرفت مكانه بالتحديد أن أتجاوز محدودية الحواس، أن أرى خلف الستار.

أحياناً، بينما يثرثر رجل إلى جانبي، أو أثناء إعلان على التلفاز، أو فيما أستمع لأغنية، أستطيع أن أرى الأمر بوضوح؛ أرى نفسي أرقد هكذا، وحيداً، عارياً، مطموراً، ولا نأمة في الجوار. أرى الأمر باليقين الذي أدرك به مثلاً أني لن أموت غَرَقاً، ولا حرقاً ولا صعقاً ولا في حادث سيارة، لأن في الأشياء ما يُحسّ بحدسٍ غامض قبل أوانه؛ لذا كلما هبط قلبي يغمرني شعور بالألفة. لكن الآنَ، وسط الصمت التام، وأنا أحدق في هذه القبور التي بلا شواهد، لمَ يصعب أن أصدّق أن هذا سيحدث لي يوماً ما، ربما قريباً، بتلك الطريقة؟ ثمة حاجز يحول بين المرء وبين الوعي الكامل بأنه سينتهي بدوره هناك، ورؤيته تزداد ضبابية كلما اقترب المرء أكثر من هذا المصير.

كان الطبيب قد أطلعني على نتائج الخزعة التي أجريتها أثناء إحدى زياراتي الأخيرة للمستشفى. الكيماوي قضى على 40 ٪ من الخلايا السرطانية، في حين كان يجب أن يقضى على 90 ٪ عند هذه المرحلة. هذا يعني أن العلاج وإن كان من الممكن أن يفيد في تأخير استشراء السرطان، إلا أنّ هذا كل ما يُتوقَّع منه أن يفعل. مع هذا، نصحني بالاستمرار في الكيماوي لدورة ثانية لأن هذا أفضل خيار في اليد؛ الاستمرار في هذه المعيشة المتهتكة لمجرد أن «هناك دائماً أملاً»، كما يتوجّب على كل طبيب أن يؤكّد. صورة الفتاة ذات البيضة في الرأس لم تفارق ذهني أثناء حديثه عن ذلك الأمل.

الخيار البديل الوحيد المتوفّر هنا هو زراعة الخلايا الجذعية.

وكان على أخي وأختي أن يجريا الفحص، لأن أنسجة الخلايا نادراً ما تتطابق إلا مع الأشقاء. وحتى في حال وجدنا أن أحدهما يصلح للتبرع، فإن فرص نجاح العملية تبقى ضئيلة في هذه المرحلة. لم يكن خياراً يقل انتحارية بكثير عن دورة أخرى من الكيماوي. طلبت منه أن يمنحني مهلة للتفكير حتى الجلسة الخامسة الأسبوع المقبل، وبعدها سأبلغه قراري. في كل الأحوال، سيكون عليَّ أن أتم الدورة الحالية حتى نهايتها.

حتى ذلك الحين، أخذت أبحث في الإنترنت كما لم أفعل من قبل. ربما لأول مرة منذ إصابتي، كنت أفتّش بتعطّش عن أمل. قرأت مقالات وقصصاً وكتباً شهيرة لأطباء وعلماء ومصابين؛ لم يكن ثمة عزاء. حتى في المصادر الطبية المتخصّصة، وجدت الكثير جداً عن المرض والقليل جداً عن العلاج. بعد تاريخ طويل من صراع العلم مع مرض العصر، تبدو النتيجة محبطة: إن أفضل طريقة للنجاة من السرطان هي عدم الإصابة به. لكن كيف تضمن الوقاية؟ فحتى هذا لا نملك له إجابة. أقصى ما نعرفه حتى الآن هو أنه لا يحدث في الأصل نتيجة فايروس أو أشعة خارجية أو أي مواد دخيلة كما قيل سابقاً؛ كل هذه هي مجرّد عوامل خطر تضاف لاحتمالية حدوثه، لكن انعدامها لا يلغي إمكانية وقوعه. إن السبب الحقيقي ينبع من الداخل، من ذات التكوين الجيني الذي هو مصدر حياة الكائن الحي.

بدءاً من الجين الورمي الموجود في خلايا كل إنسان، مروراً بكل العوامل التي تساعده على سرطنة الخلية، حتى التغير الجيني الذي يحمل الخلية المتسرطنة على الانتشار؛ لا شيء معارض للقوانين الحيوية في كل هذا، لا غزو يحدث من الخارج. وحتى اللمسة التي يضرب بها الجسد المسمار على نعشه الخاص، بأن يمد الخلايا

السرطانية المنتشرة بالشعيرات الدموية التي تسمح لها بالنمو والتغذي وسرعة الانقسام، مهيئاً لها ظروف النجاة في أعضاء أخرى مختلفة عن ورمها الأصلي؛ هي ذاتها اللمسة الكريمة التي كانت تضمن حياة الخلايا في حالتها العادية قبل الإصابة. ليس التسرطن سوى تطور طبيعي ناشئ من نزعة النمو؛ وهذا القاتل الطارئ، في النهاية، ليس سوى الحياة المستقلة بذاتها عن جسدك.

الأسبوع 35:

بعد الجلسة، أبلغت الطبيب برغبتي بإيقاف الكيماوي. الإشعاعي سيستمر من نفسه حتى تتوقف النظائر المزروعة عن الإشعاع في الفترة المحدّدة لها، والتي توافق موعد الجلسة السادسة والأخيرة. لم ألقَ منه كثير معارضة. ذكر لي أن ثمة مراكز متخصّصة في بعض أنحاء العالم تجرّب علاجات بديلة أقل ضراوة تجاه الجسد؛ وإن كان لا يُتوقّع منها أن تحارب السرطان، إلا أنها تحسّن نوعية التعايش معه. بتوفّرها على أرض الواقع، وإن لم تتوفر لي إمكانياتها المادية، كانت تلك خيارات يمكن أن تخفف من وقع القرار على أهلي، أو هكذا رجوت.

أبلغتُ أمي، فلم تملك أن تضيف شيئاً من هول الصدمة. اتجهتْ فوراً، كعادتها في حالات الطوارئ، إلى هاتف البيت. كان أخي لا يزال مسافراً هذه الأيام في رحلة عمل، فبدا الأمر كأني تحيّنتُ فترة غيابه، رغم أنه لم يكن ليتدخّل على أي حال. لقد بات واضحاً منذ فترة أن أساليبي في التعامل مع الأمر لم تعد تهمّه كثيراً. ومنذ أن

صرت أستخدم سيارات الأجرة لإيصالي للمستشفى وإعادتي، لم يعد ثمة ما أدين به له. بطريقتنا الأخوية الصامتة عقدنا اتفاقاً سرّياً: لا أحمله المسؤولية تجاه أي شيء متعلّق بمرضي، مقابل ألا يحملني أي مسؤولية تجاه زفافه. ويبدو أنه التزم بنصيبه من الاتفاق خير التزام، لأن أمي سرعان ما ضاعفت ملامح الهول على وجهها وقد صُدمت من ردة فعله اللامبالية. أغلقتْ السماعة فوراً وراحت تتصل برقم آخر، بملامح منكوبة على نحو أشد، لكن واثقة هذه المرة من حصولها على نتائج. وكان واضحاً من تعبير وجهها وحده أنها تتصل بأختي.

عدة أسابيع مضت من دون أن نتبادل كلمة، من دون أن يتغير شيء في التوترات القديمة بيننا. ولم يكن تقدّمي في المرض قد زاد الأمر إلا حدة وجدية. فطوال كل هذه الشهور، كان مرضي أشبه بقنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في وجهها في أي لحظة، خصوصاً في ما يتعلّق بخطبة أخي. وقد أثبتت هذا منذ البداية بتمنّعها عن تقديم أي مواساة لي بعد إبلاغي إياها بإصابتي. بدا ذلك حدثاً معيباً يجب أن يُدارى عن ذوي الفتاة قدر المستطاع، وكأن قبولهم بشخص شقيقه مصاب بسرطان، سرطان في الدم بالأخص، لم يكن فألاً سيئاً وحسب، ولا فقط نقطة سوداء يمكن أن تلطخ فرح ابنتهم، بل نقص وراثي لا يليق بالنخبة التي تتخيّر دائماً أحسن الاختيارات لنطفها. أما وقد أصبت به بعد الخطبة، فكان ينبغي أن يواصلوا التصرف بطريقة مشرّفة تليق بسمعة اسمهم وشهامتهم ونزعتهم لإخضاع الآخرين من باب المساعدة، ولعلهم شعروا بواجب أن يحولوا دوني ودون أيّ ضعف لا يليق بهم وبالرباط الذي سيجمع بين العائلتين.

غير أن قراراتي مؤخراً باتت تتعارض بحدّة مع كل هذا، مثل امتناعي عن استقبال أحد منهم، ورفضي لعروضهم بتمويل العلاج

بعد خسارتي للتأمين الصحي. أما امتناعي عن دورة أخرى من الكيمو، فخليق بأن يصعّد موقفهم لمنطقة أخطر؛ الزفاف على بُعد شهر واحد، وليس هذا توقيتاً مناسباً لقرار كهذا. وبصفتها المسؤولة عن إتمام هذه الزيجة بين العائلتين من دون أي معكرات، فقد كانت تقع عليها مهمة إعادتي لرشدي قبل فوات الأوان.

كنتُ في الغرفة حين سمعتُ طرقات كعبها تقترب من الباب، بالطريقة التي يمكن بها دائماً استشراف قدومها. لم يتطلّب وصولها سوى مدة الطريق، ومع هذا جاءت متأنّقة كما لو كانت تستعد قبل أن تتصل بها أمي. كان شعرها مصففاً بعناية، وحجابها في يدها، وكانت لا تزال ترتدي عباءتها، مؤكدةً أنها ستعاود الخروج قريباً، وإنما جاءت فقط لهذا الخطب العاجل. حين دعوتها للدخول، أخذت تتقدّم ببطء، فيما تقلّب بصرها في الغرفة التي تراها للمرة الأولى من الداخل، وكأنها تحتاج أن تركل هذه الفوضى، أو فقط لتتجنّب أن تحط نظرتها عليّ. كنت في المقابل على السرير، في مظهر لا يتناسق مع قواعد المسافة التي حافظنا عليها بإجادة حتى الآن.

- «أرى أنك في غاية الاسترخاء»، قالت بعد قليل، ولم يكن واضحاً إن كانت هذه ملاحظة مشجعة أم إشارة ساخرة لما يجب أن أكون عليه من ارتباك بعد قراري. ثم سرعان ما وضعت يديها على خصرها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مازحة موبخة.

- «إلى متى ستبقى على هذا النحو؟»، قالت وكأنها تحثني بكل ودّية على عدم الخضوع لأهوائي. بهذا كانت تختزل الأمر إلى أن يكون مجرد شقاوة صبيانية من جهتي، يمكن أن تمحوها بحركة أنثوية تجاريها في الشقاوة؛ حركة أمومية تبدي استظرافها لتمرّدي

واستعدادها لمنحي المزيد من القبول إذا أقلعتُ عن هذا العناد. إنها تلك الهيمنة التي لطالما وجدت نفسي في مرآتها جديراً بالتقهقر والتنازل.

حين لم تلقَ رداً، أتبعتْ مزاحها هذا بشيء من الحديث الجاد. فراحت تتقرب من أفكاري بأخلاقيات ركيكة، وتتلفسف بنبرة توحي بأنها تجاري كلام الكتب:

- «ألا تستحق الحياة المحاولة؟ وإذا كان لا بد من الموت، أليس من الأفضل أن تموت بشرف؟».

لم أكن أفهم ما يعني هذا: الموت بشرف؛ من أجل ماذا؟ كنت أفضّل الموت بارتياح. لم أجبها بأي شيء طبعاً، أما هي فقد تلبّس وجهها تعبير مجروح يطالبني بإحسان الظن في نياتها. وكانت حيرتها المفتعلة هذه، وتطلّعها غير المعتاد لأن تسمع إجابتي، يزيداني رغبة في استغلال الفرصة لإقصائها إلى أبعد درجة. لكني كنت أعلم أني بمجرد أن أفتح فمي سأكون قد بدأت أتخذ خطوة في الطريق الخطأ، وسيتخذ كلامي تلك النبرة الشاكية من أسلوبها، ومن سوء وضعي، ومحدودية خياراتي، ثم سأنتظر منها أن تتأثر، وأتطلع لشيء من التبدل في شعورها نحوي. كل هذا يعني أن أرمي الكرة في ملعبها، وأمنحها الصلاحية لتقييم مبرّراتي. لذا قررت أن الالتزام بالسكوت هو كل ما يجب مقاومتها به، ولينتهِ الأمر بأقل قدر من خيانة الذات.

- «ماذا لو تبرعتُ بخلاياي الجذعية؟!». التمعت عيناها بحماسة تحاول أن تعديني، وقد بدت واثقة هذه المرة من حصولها على استجابة. كان خيار الخلايا الجذعية مستبعَداً من ناحية الأطباء في هذه المرحلة، رغم أنه يبقى خياراً وارداً لمن يقرر خوض المخاطرة.

وكانت نتائج الفحوصات قد أثبتت أن أنسجة أختي تتطابق مع أنسجتي من دون أخي، مما يجعلها المتبرّع الملائم الوحيد. وقد بدت حماستها لهذا أشبه بمبادرة صلح من جهتها، وكأنّ استعدادها للتبرع إشارة لكونها تغفر شيئاً ما بدر مني إزاءها. استمرت تذرع الغرفة وهي تتحدّث بحماسة عن هذا الخيار، وردناها البيضاوان يبرزان من أكمام عباءتها، وشعرها الأسود يتقافز على ظهرها، وراحت تكرّر أنها ستعرّض نفسها لهذا من أجلي، رغم أن العملية لا تتجاوز من ناحيتها إبرة في الوريد لجمع الخلايا الجذعية، والتي سرعان ما سيعوّضها جسدها من دون أن يتأثر أقل تأثير. أما من جهتي، فثمة عدد لا نهائي من المخاطرات، ليس أعقدها احتمال مهاجمة خلايا المتبرّع لجسم المتلقي، وليس أبسطها حالتي الآن والتي لا تحتمل ما ينتج عن الزراعة من إنهاك للقلب والرئة. ومع هذا، أخذت تلوي كلمات الطبيب لتبدو احتمالات نجاتي من العملية راجحة على احتمالات فشلها.

كنت لأرفض ذلك الخيار اليائس حتى لو كان أخي هو المتبرع الملائم بين الاثنين. لكن لأنها كانت هي، ولأن أخوّتنا لم تكن قائمة يوماً إلا على التناحر، فقد بدا مؤكداً أكثر أن تهاجمني خلاياها إذا قبلت دخولها في جسدي. في ذهني رحت أتصوّر أني، برفضي خلاياها الجذعية، إنما أرفض رابطة الدم الزائفة بيننا، وأحول دون أي سعي منها لتجاوز العداوة كأنها لم تكن. عقدتُ ذراعيَّ على صدري ممعناً أكثر في الصمت، بالطريقة المنغلقة التي يتكتم بها طفل لا يغفر لأبويه فظاظة ما ويخشى أن يتحدث فتبدو تافهة بمجرد إدراكهم كنهها. وهي توقفت فجأة عن ذرع الغرفة، وحدّقت نحوي في حالة من عدم التصديق، كأنما لم تفعل يوماً ما يبرر ما أواجهها به الآن من جفاء.

وبعد أن فشلت كل تنازلاتها الودّية في تغيير موقفي، سرعان ما أظهرت السخط الذي يحركها من الداخل، ويجبرها على الوجود مع معتوه مثلي. صاحت وقد استعاد صوتها فجأة نبرته العالية، تلك النبرة التي اكتسبتها من بيتها الكبير:

- «هل تعلم ما يقوله الناس؟!».

وهي حين تقول «الناس» فإنها لا تعني إلّا معارف زوجها الأثرياء. وإذا بها تكرر علي أحكامهم المبنية على أسلوب معاملتي للمرض، والتي ربما بدافع من غياب الأب، والأخ مؤخراً، اتخذتْ منهجاً أشد ضراوة وتسلطاً لإقحام الصواب في رأسي. ولعلها أضافت إلى أحكامهم شيئاً من حكمها هي، لتحذّرني من الصورة الوضيعة التي أبدو عليها أمام الآخرين، والطريقة الخائبة التي سيذكروني بها بعد موتي، بل ويذكرون بها أهلي أيضاً، وكأني باستسلامي هذا كنت أشوّه سمعة العائلة. هكذا بتُّ أشكّل نوعاً من التهديد غير المباشر لرأيهم في أخي، إذ إن حكمهم عليّ لا بد أن يمتد ليشمله؛ ولعله يشملها أيضاً. وهكذا راح كعبها ينقر بلاط الغرفة بعصبية، جيئة وإياباً، فيما هي تحرك يديها بانفعال في محاولة تأكيد جنون ما أفعله.

أمام كل هذا، كان يمكن في أي لحظة أن أتنازل وأرضخ لما بدا في نظرهم عقلانياً. وذلك لأني لطالما كنت بتهذيبي المفرط وتبعيّتي أميل لأن أكون موضع قبول لدى الآخرين، متجنباً قدر الإمكان أن أكون مصدر مشقة لأحد. وإن كنتُ أقع تحت الإغراءات اللحظية لمخالفتهم أحياناً، إلا أني سرعان ما أشعر بأن هذا ينطوي على مخاطرات سأندم عليها لاحقاً. لقد صُوِّر لي دائماً أن التمرّد والتخلّي والاستقلال الذي أمارسه الآن ينتمي إلى عالم بعيد من عالمنا نحن،

بعيد إلى حد لا يمكن أن تحقّق لي من خلاله أي سعادة. ربما كان ذاك هو عالم الروايات والكتب الأجنبية كما تراه أمي، أو عالم الفردانية المتخلية عن العزوة والشيم كما يراه أولئك القوم، أو عالم النزوات المعقدة وغرابة الطبع كما تراه أختي. مهما كان، فإني أحتاج إلى تقويم عاجل لأصحح مساري، لأنتمي إلى محيطي الذي قُدِّر لي أن أنشأ فيه، وأتخذ مكاني في منظومته التي لا مفر من الالتجاء إليها، لأن خيراً لا يمكن أن ينشأ من هذا الشذوذ عن الطبيعة.

في المقابل، لم يراودني إزاء شذوذي الحالي أي يقين بأني أسير على الصواب، أو أخوض معركة يمكن أن تنتهي بي في صف الفائز، أو حتى أحوز أي مجد من هذه الخسارة. كان من المفيد بالنسبة إلي كي لا أنخدع بمقاومتي هذه، أو أنسب لها ما ليس منها، أن أستعين بما تعلّمته من قدرة والدي في تعرية المبالغات. وقد أدركت أن موقفي نفسه ليس هو ما يهم هنا بالتحديد، بل أن أثبت عليه مهما كان. أردت أن أختبر قدرتي تلك على الثبات، أن أكتسب هذه المناعة ضد كل ما يصدر من خارجي. لقد كانت معركتي الشخصية مع المرض منذ البداية تكمن هنا، في مقاومة مثل تلك الأحكام والنظرات والتدخّلات الخارجية؛ وكأنما كان حفاظي على ذاتي، خلال مرضٍ يجرّد المرء من هويته، ينطوي على الاستمرار في هذه المقاومة.

كانت أختي لا تزال تذرع الغرفة، وهي تصرخ بي مطالبة إياي بتبرير موقفي، وتعيد تنبيهي لضعفي لأني لا أستنفد كل الحلول المتوفرة، ثم تتوقف وتلتفت نحوي لتتأكد إن كانت قد اقتربت من استنطاقي، ثم تعاود المشي مجدداً في حالة من عدم التصديق. وفي آخر الأمر، بدت متعبة وطاقتها توشك على النفاد، وقد أخذت تردد بصوت شاحب أنها ستتركني لأموت كما أشاء، في محاولة أخيرة لتأكيد ضعف موقفي.

وحين لم أجبها بشيء، قبضتْ على الباب كأنما لتخرج، قبل أن تلتفت وقد تهدّج صوتها بالدعاء، متمنيةً أن أموت عاجلاً كي أريحهم ممّا أسببه لهم من شقاء. خرجت ودفعت الباب خلفها بقوة إلى الجدار، فارتدّ مجدداً من دون أن يكمل انغلاقه. وعبر الشق نصف المفتوح، تسربت طَرْقات كعبها وهي تبتعد، صاخبة متعجلة، وقد بدت عازمةً على ألّا تعود مجدّداً في هذا الاتجاه.

إثر خروجها المزمجر، راحت أمي تناديها دون أن تتلقى أي إجابة، فهرعت إلي مرتعبة لتفهم ما جرى. فتحتْ الباب، ومن نظرة واحدة نحوي أدركتْ أن الأمر انتهى، ولم يعد ثمة إمكانية للحديث. ظلت تحدق إلي بعينين دامعتين وقد تلبّس وجهها تعبير يائس مفجوع، ثم خرجت وأغلقت الباب من خلفها بهدوء.

«هنا، بدا لـ«ك.» أن الجميع قطع كل صلة به، وشعر بأنه الآن أكثر حرية مما كان في أي وقت مضى». أتذكَّر مقطعاً لكافكا من روايته الأخيرة. «وكان قد حصل على هذه الحرية عن طريق الكفاح، مثلما لا يقدر امرؤ آخر في مكانه أن يفعل، وما من أحد بعد الآن يجوز له أن يمسّه أو يصرفه، بل حتى لا يكاد أحد يخاطبه. لكن في الوقت نفسه، نشأت لديه قناعة أخرى، بالقوة نفسها على الأقل، بأنه لا يوجد شيء أكثر عبثية، وأكثر يأساً، من هذه الحرية، هذا الانتظار، هذه المناعة».

الأسبوع 37:

بدأ الأمر بفايروس في الرئة، قبل أسبوعين فقط. كنت قد ظننت أني ملكتُ أخيراً زمام أمري، ونظمت في ذهني الأسلحة التي أقاوم بها كل ما يباغتني من خَوَر وخذلان. وما الذي يمكن أن يحطّم المرء إذا قرر مواجهة كل شيء بالانفصال التام؟ لقد تصورت أني بهذا صرت منيعاً عن الوقوع في فخاخ كل التأثرات، لكن يبدو أن ذلك الانفصال ليس سوى خدعة أخرى يجب مقاومتها. كيف للمرء أن يتحدّث عن اللامبالاة أو الحرية، في حين أن شيئاً بضآلة ذرات الغبار يمكن أن يقلب مصيره وإرادته وحركة أعضائه الداخلية؟

كنت وحدي في البيت حين داهمتني النوبة. في لحظة كانت رئتاي تعملان بانتظام، وفي اللحظة التالية قررتا أن هذا مجهد أكثر من اللازم. ثم شعرت بأمعائي تفقد التماسك تماماً، وكأن كل ما في داخلي يستسلم ويرتخي. لم أكن أرغب أن أنتظر حدوث هذا، لم أتخيل شيئاً أشد مهانة. اتصلت بالطوارئ أخيراً، بعد أن ظللت أؤجّل هذه الخطوة لوضع أشد خطورة. حتى وأنا على هذه الحال من

الاضطرار، شعرت بنفسي مدللاً لأنني أطلب سيارة إسعاف. وكنت سأفضل لو تعبر واحدة من شارع البيت بالصدفة، وهي في طريقها إلى المستشفى، فأهتف بها من نافذة الغرفة مؤشراً، كما لو أنادي سيارة تاكسي، فإذا بها تتوقّف وتقلّني معها، وهكذا يتم الأمر بكل عفوية وبساطة. لكن عوضاً عن هذا، كان كل شيء مثقلاً بالخراء والمشقّة، وكنت أرجو أن تكون هذه هي المرة الوحيدة التي ألتقي فيها بهؤلاء الأشخاص، حتى لو كانوا معتادين على الأمر.

الحَرَج، الحرج اللعين، دائماً هذا الحرج. كلما ظننت أني بلغت حد اللامبالاة، وأحطت نفسي بصروح من المناعة والمقاومة، تكفي هجمة حَرَج واحدة لترمي بكل شيء في الحضيض.

أستيقظ في غرفة العناية المركزة. الأجهزة الطنانة تحيط بي من كل حدب وصوب. ألاحظ أنني أرتدي قناع أُكسجين، يتصاعد البخار داخله مع كل نفَس. صدري يعلو ويهبط لا إرادياً بفضل جهاز التنفس الاصطناعي. ثمة ستائر عازلة تفصلني عن الأسرّة المجاورة، ولا تفصلني عن الممر سوى ستارة مفتوحة. هناك تقف الممرضات، تحادث إحداهن الأخرى. أحاول أن أنادي عليهنّ. تتيبّس في حلقي حشرجات واهنة، لا تتجاوز إلى أن تخرج من فمي. لا أملك القوة لأصل إلى جرس السرير، أشعر بأني فقدت الاتصال حتى بأطرافي.

فجأة يدخل طبيب العناية وتتبعه الممرضة. يوزّع نظراته بسرعة على الأجهزة والبيانات. أدرك من حركته أنه في عجَلة؛ لديه أسرّة أخرى ليتفقّدها. أحدّق في عينيه مباشرة، بهذا أحاول أن أخطف انتباهه. لو يبادلني النظر فقط، لربما استطعت أن أستفسر عمَّ يجري. لو يرفع لي مقياس درجات الألم، لأشرت بعيني إلى الرقم 10. لو

يسألني شيئاً، لربما بكيت. لكنه لا ينظر نحوي لأكثر من برهة خاطفة، بالكاد يدرك يقظتي. وجهه يوحي بأن الحالة مستقرّة، لكنه يطلب تحسّناً أفضل؛ يطلبه من الممرضة، وليس مني. لست شخصاً هنا، بل حالة طبية. حتى حين يبتعد، أتبعه بنظرتي على أمل أن يلتفت.

تقترب الممرضة وتحوم من حولي، تشعر بواجب أن تفعل شيئاً بعد مداهمة الطبيب. ترفع القناع وتمسح خيط لعاب يسيل من زاوية شفتي. نهدها يتكئ على ذراعي، يتكوّر عليّ من دون أن يثير هذا لديها أي تحفّظ. لست في حال يسمح بأن تراودني أفكار أو خيالات، ولو راودتني لما كان في وسعي عمل شيء بشأنها. لم يكن الأمر ليختلف بالنسبة لها عمَّ لو كان ذراعها يضغط على قطتها أو كلبها؛ لم تبذل حتى جهد التظاهر بأن الأمر يخدش حياءها. إخصاء تام، هذا ما أشعر به عندها.

تخرج إلى الممر من جديد، تلتقي الممرضة الأخرى المسؤولة عن السرير المجاور. أسمعها تغمغم لها أنها متعبة، بذات النبرة التي يمكن بها أن تقول إنها جائعة. ثم تتحدّث عن ابنها ورغبتها في إشراكه في نادٍ ما. أتابعها وأتساءل: كيف يفعلونها؟ كيف يجعلون الأمر يبدو بهذه السهولة؟ كيف تتصرّف بيقين تام أنها في اللحظة التالية ستمشي وتتكلّم وتعمل من دون صعوبة في التنفس؟ أرغب بشدة أن أتصور نفسي هكذا، أن أستعيد كل المرات التي كنت فيها قادراً على أن أقول إني متعب، بينما أنا واقف على قدمي وأتنهد ملء رئتي وأواصل الحديث. في حالتي، لم أعد أثق بأن الأشياء التي حدثت بشكل تلقائي سابقاً ستبقى تحدث بعد قليل.

الممرضة الأخرى تدخل إلى المريض المجاور. تفتح الستارة

العازلة بيننا لتتسنى لها الحركة حول السرير. أحني رأسي على المخدة باتجاهه. أشعر بنبضات قلبي ثقيلة منهكة إثر تلك الحركة. أجده أيضاً يحدّق باتجاهي. شعره الطفولي منثور كأنه انتهى من اللعب لتوّه، أنفه موصول بأنابيب التنفس، ثمة في فمه الجاف ما لا يناسب سنه، أما في عينيه فكان ثمة هدوء. لا يزيح أحد منا نظرته عن الآخر. فقط المرضى يشتركون في تلك التحديقة؛ لأن أحداً آخر لن ينظر نحوهم هكذا في العينين. أردت أن أسأله إن كان يتألم، لكن عينيه أجابتا أن الوقت متأخر على هذا السؤال. بدا أشد مرضاً، أكثر وقاراً، وأخبر مني باحتمالات الموت أو النجاة. لوهلة، شعرت بأنه ينظر في قرارة قلبي. ربما كان هذا فقط تعبيره حين يتألم، لكنني تحسّست في نظرته تجاهي شيئاً من الشفقة. بمجرد أن أغلق عينيه، عادت الممرضة لتغلق الستارة.

أدير وجهي إلى السقف. أفكر بالمرضى جميعاً؛ المطروحين على أسرّة كهذه، المحدّقين بنظرات مخذولة إلى هذه الأسقف، المهزوزين دائماً بهذا الخوف من أن ظاهرهم لا يعكس باطنهم، وملامحهم لا تنقل ألمهم، وأفواههم لا تنذر بما يخشون، ليس بما يكفي لأن يهرع الآخرون لإنقاذهم في الحال. أفكر بهذا وأفهم لماذا يئنّ أحدهم كحيوان جريح.

أفكر بأبي؛ كيف كان يصرخ في غرفة كهذه من خلف قناع الأُكسجين. لا، ليس رغبة في أن يُنقَذ، بل يأساً من إمكانية حدوث ذاك الإنقاذ. أتذكر طنين جهاز القلب، ومعدل النبضات الذي انخفض إلى الصفر في ثوانٍ قصيرة. كم كان يجهده أن يظل صدره يعلو ويهبط، بعد أن فارق الروح. كم يجهد هذا الآن قلبي الآخذ بالتضخّم.

أفكر في كافكا، متمدداً على سريره في المصحّة، وقد أورثه السلّ

آلاماً في الحلق، لم يستطع معها أن يتحدّث أو يزدرد شيئاً. كافكا التعيس، وهو يموت جوعاً، لأن أنابيب التغذية عندها لم تكن متوفرة. كم كانت فظيعة تلك الآلام، تلك الأيام الطويلة الصماء، وهو يستلقي على هذه الحال، بكامل وعيه لكن أعزل من كل شيء، مدركاً أن هذا ما تنتهي إليه الأمور.

أدخل في نوبة طويلة من النشيج، لا تهدأ قليلاً إلا لتعاود الاندفاع بحدّة أشد. بالنسبة لشيء أفعله للمرة الأولى، منذ طفولتي على الأقل، تدهشني الوتيرة التي أثابر بها على الأمر. حين أستعيد رشدي أخيراً، أشعر بمزيج من الخجل والارتياح والمزيد من التخدير؛ ليس واضحاً إن كانت الممرضة قد دفعت بالمزيد من المادة المخدرة حتى أهدأ أم إن هذا ما يشعر به الناس عادةً بعد البكاء.

ساعات طويلة تنقضي تحت التخدير. بوعي نصف متيقّظ، أنتبه أن الستارة بجانبي مفتوحة. الأجهزة مفصولة من حول السرير والإضاءة فوقه خافتة، أما الشراشف والأغطية فبيضاء جديدة. يُخيّل إلي أن كل ما جرى، بما فيها نظرة الطفل ونشيجي الشاذ، لم يكن سوى جزء من حلم مشوّش بعيد. أسترخي لهذه الفكرة وأغرق مجدداً في النوم.

لحظة أفتح عينيّ، يغمرني سيل عارم من الكآبة. أطرافي ما زالت شبه مشلولة وأشعر ببرودة في الجسم. أحدّق في ما حولي. أستدعي الممرضة وأسألها بلسان ثقيل وإصبع بالكاد يشير. تؤكّد أن جاري الصغير قضى بينما كنت نائماً مخدراً. أصمت لوهلة، مستعيداً نظرته الأخيرة تلك. والممرضة واقفة هناك؛ ألاحظ أنها غير التي كانت هنا في الصباح. أسألها عن الوقت، فتجيب أنه منتصف الليل. حين أصمت أطول، تخفض الإضاءة من فوقي وتغلق الستارة. أقضي بقية

الليل أرِقاً وحيداً في تلك العتمة المغبشة، أفكر برهافة في الأشياء. ثمة في داخلي ما راح ينفتح، راغباً في المزيد من الاتصال، كأن نوبة بكاء واحدة كانت كافية لتنقلني إلى هذه المنطقة الرخوة من الوجود.

لكني لطالما كنت أفتقر لهذه القدرة على التواصل، حتى مع الله. وانغلاقي هذا لم يكن عفوياً تماماً، بسبب طبيعتي وحدها، بل تطلّب إصراراً من جهتي للمداومة عليه. لقد ولدت منطوياً، ثم كافحت بكل غرائزي الدفاعية، عاماً بعد عام، كي أعزل نفسي أكثر. درّبت نفسي على الاستغناء، وأقصيتها بحائط من الجفاء عن الآخرين، وكأنما سأحميها بهذا من مسببات التأثر. ولا أدري أي قوة ظننت أني أجنيها بهذا طيلة تلك الأعوام، فالحياة لم تكن خفيفة أبداً ولا خالية من الهشاشات، والأشياء ظلت تتراكم على القلب كالرّان، خصوصاً أشدها ضآلة.

فجأة يمر في ذهني شريط المواقف التي رسّخت في داخلي طبيعتي الهشة هذه؛ الطبيعة التي لم يكن لها أن تنتهي إلا على هذا القدر من الاعتلال. وخلال لحظات قليلة، أعود أجهش بالبكاء.

حين لا أتوقف، تقف الممرضة الجديدة على طرف السرير وتتشاور مع الأخرى في إمكانية حقني مجدداً. ها قد بلغت أخيراً الجرعة القصوى التي يحتملها جسدي من المسكّنات. أستلقي بعدها لساعات، ساكناً مخدراً، كعود ثقاب منطفئ؛ كأن كل ما هو أدنى من المكشوف لم يعد يُدرَك وجوده. كأن ما تحت الملاءة جثة هامدة. أرسل إشارات عصبية لأصابع قدمي، بالقليل مما أملك من طاقة، وألقي بنظرتي هناك للأسفل. أراها تتحرّك قليلاً، ويسرّي هذا فوراً عني. تلك الحركة الضئيلة والمفاجئة لإصبع قدم، كانت تُحيي

مشهداً دافئاً لم أكن قادراً على استعادته بالتفصيل. لكن يا للتفاهة التي يتبدّل بها شعور الإنسان. كيف للمرء أن يثق بعزيمته، أو حتى هزيمته، حين يدرك أن النفس التي يحملها جُبلت من هذه الهشاشة؟

في الأسبوع الثاني، أخرج من العناية المركزة إلى غرفة العناية المتوسطة. أستبدل قناع الأُكسجين بقنيّة أنفية تضخ الهواء إلى فتحتيْ أنفي عبر أنابيب دقيقة؛ الأنابيب تمتد من الطرف الآخر إلى أسطوانة أُكسجين يمكن حملها لو كان في وسعي التحرك. أنام طيلة النهار وأبقى مستلقياً يقظاً طيلة الليل. جسدي في حال مستقرة عموماً، لكنه يستعير طبيعة الغرفة التي يقطنها الآن، يمكن في أي لحظة أن ينتقل لمرحلة الخطر.

تعتني بي ممرضة النوبة الليلية. إنهن يفضلن النوبات الليلية لأنها أهدأ ومعظم المرضى نائمون وليس ثمة زوار. هذه الممرضة صامتة وتتحرّك ببطء ومن دون جلبة، ولعلها نائمة بدورها. عيناها مطفأتان ولها رموش قصيرة جداً ومحجرَيان غائران، وفم جاف لا يتضح منه إن كانت تتنفّس. خداها ضامران وتجاعيد جبينها ثابتة متيبسة مهما اختلفت تعابيرها؛ ليس لها الكثير من التعابير على كل حال. إنه أحد تلك الوجوه التي لا يصعب تخيلها ميتة، مقابل وجوه أخرى حين ينظر لها المرء لا يخطر بذهنه أنها ستدخل في يباس الموت.

تطلب مني برفق أن أرفع ذراعي لتقيس لي مستوى الضغط. رغم نبرتها الباردة، أشعر بأنها تفهم مدى مرضي. ليست كأولئك الممرضات اللاتي لا يملكن فكرة عن صعوبة تنفيذ بعض الطلبات التافهة أحياناً، كرفع الذراع، أو يسألن أسئلة عدّة لمعرفة ما تناولته سابقاً من أدوية، في وقت لا تقوى فيه على فتح فمك للإجابة. أفكر

بأنها ربما كانت مريضة أخرى هنا، نزيلة أخرى في المستشفى؛ لهذا تفهم بشكل دقيق كيف أشعر. ربما يحدث في أوقات فراغها الطويلة أن ترغب في فعل شيء مفيد، فتقوم وتؤدي عمل الممرضات، وهو عمل تتقنه جيداً لفرط ما مكثت هنا، وحين تنتهي نوبتها تعود لسريرها الذي يحمل اسمها ونتائج تحليلاتها الخاصة بها وتشبك نفسها بالأنابيب والإبر، ولبقية اليوم تفكر مثلنا: متى سأخرج من هنا؟

تلقي نحوي نظرة باردة، وهي تمسك بذراعي النحيلة وتقول إن ضغطي منخفض. نظرتها تخبرني أن أطرد الفكرة التافهة من رأسي، وأنها ممرضة. مع هذا، تخرج من دون أي جلبة، ببطء شديد وانحناءة في ظهرها، كأنها شبح سينفذ عبر الباب. لو لم أرها تفتح الباب وتغلقه، لظننت أنها اخترقته بالفعل. بعد خروجها أفكر بأن عليهم أن يستخدموا المزيد من هؤلاء الممرضات؛ الممرضات اللاتي يبدو عليهن المرض. أما أولئك اللواتي يتحرّكن بخفة ورشاقة، أمام جسدك الملقى اليائس من إمكانية ممارسة هذا مجدداً، فمن اللباقة إبقاؤهن خارج الغرف.

بمجرد أن أنتقل إلى غرفة عادية، أطلب العودة إلى البيت. يرفض الطبيب، متحججاً أن علي الانتظار حتى الأسبوع المقبل لأجري جلسة الكيماوي الأخيرة. حين لا تجدي معه ضغوطاتي المعتادة، أطلب رئيس الأطباء. يتذرّعون بأنه مشغول، فألحّ على أمي وأخي أن يستدعياه. أخيراً يأتي بنفسه، مخالفاً كل توقعاتي. له وجه سمح وفي غاية البشاشة، وتحت شاربه الأبيض ابتسامة متهلّلة. بحسب تقاسيمه المتواضعة، من الممكن أيضاً أن يكون عامل النظافة، لولا أنه يدخل بعجلة ومعطفه الطبي الطويل ينتفخ من خلفه ممتلئاً بالهواء. يبدو أن لا شيء أحب إليه من الحديث مع المرضى، رغم أنه لم يلتقِ بي بنفسه أي مرة من قبل.

إنه من نوع الاطباء الذي بمجرد أن يراك يندهش، ويصيح قائلاً إنك تبدو على أحسن حال، ثم يقرأ النتائج ويهتف: «الله الله، يا للصحة، يا للحيوية، يا للنبض المنتظم، يا لدرجة الحرارة الرائعة!». ويمسك رسغك ويجس بطنك ويجري بقية الفحوصات الروتينية من دون أن يتوقف عن التفاعل. «درجة حرارتك رائعة وكل شيء على أحسن حال! أنت حتى أشد صحة مني، ماذا تفعل هنا؟ ينبغي لك أن تكون هناك في الخارج، تستمتع بصحتك وشبابك. لكني أفهمك تماماً، يا للفتى الذكيّ الخبيث، أنت فقط تتدلل للحصول على اهتمام، هاه؟». ثم يغمز من دون أن يتوقف عن الفحص: «يا للفتى الخبيث، لكن يجب أن نحذّر الممرضات الشابات، هاه؟ هاهاها». وأخيراً يعيد كل شيء إلى مكانه بينما يغمز ويؤكد أنه ليس عليك أن تقلق، ثم يخرج ويخبر ذويك أنك ستموت إن لم يبقوك هنا مدة أطول.

دخلت أمي وأبلغتني بهذا. وكانت تحمل كمبيوتري المحمول لتعطيني إياه، كأن أمر بقائي قد حُسِم وعليّ البدء بالتأقلم. لقد اتفقوا هم مع الأطباء على كل شيء، أما أنا فلم أعد عضواً في المشاورات التي تدور حول خروجي. ثمة أيضاً مناقشات تدور حول دورة أخرى من العلاج، ستة أشهر أخرى على الأقل، سيبحثون في كافة الإجراءات المطلوبة لإمكانية إجباري عليها. إنها مناورة تسمح بها المستشفيات حين يبلغ المريض نقطة ما، ويبدو أني قد بلغتها. الآن أقدم على الجلسة السادسة، وأنا أضعف وأقل عزيمة من أي مرة سابقة. لا أحرز أي تقدم، لا حرية تأتي؛ فقط المزيد من الانخداع الذي ينكشف.

الأسبوع 39:

أستلقي في هالة من إضاءة بيضاء. على جلدي أستشعر طبقة باردة، كأنه لم يعد ينتمي لي. ربما من الصعب معرفة الحد الفاصل الذي يميز فيه المرء إن كان قد أسلم الروح. كل شيء حولي نظيف وأبيض أيضاً، لكن تعتريه مسحة من تلك الغشاوة التي تعتري ما تم استهلاكه ومسحه وتلميعه مرات عديدة. الجدران، والأغطية، والبلاط، وأرجل السرير ومسانده؛ حتى ساتر الإنارة بدا غائماً لفرط الاستخدام. إنه الأسبوع الثاني بعد الجلسة السادسة؛ الأسبوع الثالث لي تقريباً منذ أن انتقلت إلى هذه الغرفة. ثلاثة أسابيع في هالة من هذه الإضاءة، هذه الجدران، وهذه الرائحة.

يداي مبسوطتان بجانبي إلى السرير، مدسوستان بإشفاق تحت الملاءة. أمدّهما أمامي فتبدوان كمخالب حيوان هزيل. لونهما الشاحب وتهتّك أظافرهما أسباب كافية لإبقائهما مخفيتان. الطعام على الطاولة الجانبية لم يُلمس؛ تبدو فكرة شاذة أن أدخل في جسدي أي شيء عن طريق آخر غير الأنانيب. يبدو من الطبيعي أكثر أن يتقيأ

المرء عوضاً عن أن يبتلع. الرائحة المنبعثة من الطبق المغلق وحدها سبب للمرض، ألا يفترض بهواء المستشفيات أن يكون نقياً؟ لا يقنع هذا أحداً بحمله إلى الخارج. يُترك الطبق دائماً على حاله حتى يحين موعد استبداله بطبق الوجبة التالية، ثم يحل محله آخر، كأنما ليس ثمَّة دلالة في تركي إياه من دون أن ألمسه.

أنهض بتثاقل، ممسكاً بقضيب المغذّي في يد، وبيدي الأخرى العكاز الذي كان قائماً إلى جانب الكومودينة. أجمع بقدمي خفّ المستشفى الملقى أسفل السرير. بمجرد أن أقف أشعر بالدوار. أتمشى قليلاً فأستعيد شيئاً من الاتزان. بجانب الباب، أقف متملياً الغرفة، من هذه الزاوية اللامألوفة. الهالة التي تحيط بالسرير تبدو من خارجها أشد رمادية. أرى بروز جسدي ماثلاً على طيات الملاءة، كأني لا أزال راقداً هناك. هل هذا حقاً كل ما أحتله من مساحة؟ بإمكاني تخمين خسارتي للوزن من حجم البروز، كما تخمّن ماريتشي كو أنها انتظرت عشيقها الغائب طويلاً لأن زنار الكيمونو الذي كان يلتف حول الكيمونو مرتين... لكن ما الفائدة؟ في اللحظات الحاسمة حقاً كانت تتوارى، تلك المحاكاة المستمرة للأدب، وكأنما لم تستمد قوتها في لحظات الرخاء إلا من أوهامي.

يتبادر إلى ذهني كيف كنت أرجو الله، بوعي أو من دون وعي، أن يكفل لي مصيراً كهذا؛ أن يعاقبني بالأقدار الشقية مقابل أن يكسبني منها تجربة حقيقية خصبة. كان ذلك هو خيط الاتصال الوحيد الذي تركته مشرعاً بيننا؛ ولكم تصورت بكل سخف أن السبب الوحيد الذي يمنعني من ارتكاب جريمة ما مثلاً، مثل راسكولنيكوف، هو الحفاظ على هذا النذر. لكني كلما شاهدت فيلماً أو قرأت خبراً عن رجل محكوم عليه بالإعدام كنت أتخيل نفسي مكانه، غابطاً إياه على ما

يتفتق في ذهنه. لقد تراءى لي أن أولئك المساجين، الميؤوس من مستقبلهم، يمتلكون منفذاً إلى العالم الذي تتحقّق فيه الذات ويُستقى منه الإلهام، ذاك الموطئ الخصب الذي يحوز فيه الكتّاب شيئاً يقولونه.

إن أفظع ما في الأمر، كما أدرك الآن، ليس ليلة تنفيذ الحكم، بل ذاك الانتظار الثقيل الطويل الذي لا يخلو من الأمل. يقضي المحكوم عليه بالإعدام ستة أشهر على الأقل محبوساً قبل التنفيذ، وهي فترة كافية لاحتمال صدور عفو أو تخفيف. لكنه أفظع أنواع الأمل ذاك الذي يدرك المرء أنه على الأرجح لن يتحقّق، ويُحرَم به حتى من أن يستسلم. هكذا، ينخرط المرء في ضرب من التصرفات الصاخبة اللامبالية، في محاولة لإقصاء ذاته بأكبر مسافة ممكنة عن المصير المنتظر. ليس ثمة صفاء ذهني في هكذا انتظار، ليس ثمة تدفّقات تعبيرية خالدة، ولا اندلاعات فكرية ثاقبة، ولا تجليات متوهّجة بشعور اقتراب الموت، ليس ثمة إلا ترقّبٌ قلِق ينخر الروح ويتركها متحفزة خاوية.

ها أنا، طيلة هذه الأشهر الستة الأخيرة، أمرر الوقت على هذا الحال. لم أشعر خلالها يوماً بأني جدير بمرض كهذا، بموت يستغرق وقته في التحضير. إنه موت يليق بالمفكرين والشعراء والأنبياء والفلاسفة، ومن يملك كلمات أخيرة متماسكة، ووصايا مؤثرة تغيّر مجرى الحيوات من بعده. أما أنا فلم أملك يوماً شيئاً مهمّاً أقوله، وحين أحاول التفكير بما يلخّص حياتي لا يخرج من فمي إلا البلاهات. ولكان أجدر بي أن أنزلق فأدق عنقي في الحمام، أو ينفجر فرن الغاز في وجهي، أو تصدمني سيارة وأنا أنظر ببلاهة نحو الجهة الأخرى من الشارع، فأنتهي لحظتها ومن فوري.

إني أشعر به، وأنا أكتب هذه الكلمات، هذا المقت المتصاعد داخلي تجاه نفسي كجثة تحترق. هذا هو الثمرة الوحيدة لهذه الكتابة، هذا الخزي الذي يذكرك أنك فشلت في الشيء الوحيد الذي خُيِّل لك أنك ستجيده. وكان من الأحرى بك ألا تحاول حتى لا تواجه هذه الحقيقة قاطعة حادة صارمة: إنك لا تستحق أفضل مما جرى لك. وإني لأتساءل إن كان هذا ما شعر به كافكا أيضاً حين طلب من صديقه ماكس أن يحرق كل ما كتب. لكن الأمر في هذا العصر أسهل منه في عصر كافكا، إتلاف الكتابات أعني. ليس عليك الآن سوى النقر على خيار حذف كل الملفات، أو فقط تركها على حالها في الجهاز الذي لا يعرف كلمة سرّه سواك، لتبقى بعدها مخفية حتى الأزل.

أتناول كمبيوتري المحمول وأعبث في الملفات. أحصرها وأجمعها كاملة في مجلد واحد، ثم أواصل تقليبي في الجهاز. أتصفح الإنترنت ووسائل التواصل والألعاب، محاولاً إلهاء نفسي من دون جدوى. أنتهي من باب العادة إلى مواقع الأخبار. ثمة تقرير عن معتقل مضرب عن الطعام، فقد ثلث وزنه على الأقل كما يصف حالته. «دوار، قيء شديد، اختلال في الحواس، نزيف في أماكن مختلفة من الجسم، فشل في بعض الأعضاء الداخلية». في كل خبر أجد إشارات مأسوية، في كل تعاسةٍ انعكاسٌ لحالتي. أغادر الصفحة ثم أطفئ الواي فاي.

أشغل قائمة الأغاني المفضَّلة؛ لم أستمع لها منذ وقت طويل. أتحسّن قليلاً حين تبدأ الملحمة البوهيمية. بعد دقيقتين تصل الأغنية إلى ذلك المقطع: «فات الأوان، لقد حان وقتي. في ظهري قشعريرة، وجسدي يؤلمني طوال الوقت». تغرورق عيناي بالدموع. ثم يرفع ميركوري صوته إلى أقصاه: «أماه، لا أريد أن أموت، لكن أحياناً أتمنى لو أني لم أولد على الإطلاق». وأنفجر في بكاء مرير. أبكي وأبكي

حتى أجهل ما أبكي من أجله، ثم أبكي المزيد. لكن حتى الاستمرار في هذا لم يعد يبعث أي تخدير؛ مجرد إنهاك إضافي للرئتين.

أجلس عاجزاً عن فعل شيء. أغطي جسدي ورأسي كاملاً، محاولاً العودة للنوم. يقاطعني صوت أمي المرتفع في الخارج، وهي تتجادل مجدداً مع الطبيب. تدخل وترمقني بنظرة سريعة وتسألني: «هل أكلت». تفتح الغطاء فتندفع رائحة الطعام إلى جوفي. أشيح برأسي وأكب جوفي على الملاءة. تناولني وعاء القيء من تحت السرير وتحدّق نحوي منتظرةً أن أفرغ. لا أنتهي حتى تجفّ عروقي ويُنهك جسدي بأكمله. أشعر بنقص في الأُكسجين. تنادي أمي الممرضة وتقودها نحو المشهد المقزز، كأن الممرضة هي من تقيأت. توبخهها وهي تشير بعصبية إلى الطبق، كأنما كان يمكنهم منع هذا لو اعتنوا أكثر، لو أرغموني على الطعام.

تطلب من الممرضة أن تخرج. تنظف ما حولي وتعدّ ملاءة جديدة من دون أن تلتفت. تبدو عليها ملامح الغضب لكنها لا تقول شيئاً. تعيد وعاء القيء إلى جانب مخدتي بعد تنظيفه. تدسه بحركة عنيفة حتى لا أنسى مكانه في المرة القادمة. أتابعها خافض الرأس، بنظرة جانبية مطفأة، وعلى وجهي ذاك التعبير المنهَك لرجل تقيأ لتوّه. تُواصل تحريك الأشياء من حولي بعصبية، ثم أسمعها تتمتم: «لماذا تفعل هذا؟». يراودني شعور بفقدان الاتزان، كأنما سأسقط من السرير. في صدري راح يحتدّ انقباض فظيع.

كانت تلك طريقتها دائماً في الإعداد للهجمة. التكتم ثم التكتم ثم المزيد من التكتم، حتى يشعر المرء بأنه أخيراً تُرك وشأنه. لكنه لا يُترك إلا ليتمادى لأبعد نقطة ممكنة. فإذا ما جاءت لحظة العواقب، والتي

تأتي دائماً مفاجئة وفي غير محلها، وفي أشد حالات المرء انحداراً وقابلية للتحطم، فإنها تحمل إثباتاً وأدلة على كونه يستحق ما جرى، وأنها، فوق ذلك، كانت عطوفة لكونها عاملت الأمر سابقاً بكل ذلك التساهل. مؤكدةً بلوغها هذه النقطة، ربما بتشجيع من تعبيري المنهك أو رائحة القيء، انطلقت بعصبية في الحديث:

- «زفاف أخيك نهاية الأسبوع، والاستعدادات تجري على قدم وساق، وأنت هنا تزيد كل شيء صعوبة. ترفض العلاج، ترفض الطعام، ترفض التفاهم، فقط تعارض الجميع، ماذا تريد؟ لا أحد يعلم، ربما حتى أنت لا تعلم. كل ما تريده هو أن تفسد الجهود، من دون أي مراعاة لما نمرّ به، ومن دون اعتبار لما أتحمّله أنا في سبيلك، وكل تلك الضغوطات من أخويك والناس والمستشفى ورصيدك الموشك على النفاد ووو...».

وكأن البوابة المتسعة لصمتها انفتحت فجأة، أخذت تندب وتشكو كل ما يخطر ببالها، وقد بدأ يتخلل صوتها شيء من الارتعاش:

- «لقد حاولتْ، يعلم الله كم حاولت، سهرت الليالي إلى جانبك، عطلت كل حياتي من أجلك، فعلت كل ما بوسعي وأكثر، حتى صحّتي لم تعد كما كانت، أتظن أنك الوحيد؟ لقد تحملت كل شيء في صمت، تحملت، وأنت في المقابل ماذا تفعل؟ تفسد كل ما أفعله عناداً، ومن دون أي مبررات، ولا زلت لا تقول ما تريد، لا زلت، لكن إذا استمر الأمر على هذا الحال...».

وباستمرارها في الحديث كان يزداد الدوار شيئاً فشيئاً ويغيب عني المزيد من هواء الغرفة. كان ذلك الهبوط في قرارة قلبي يتكثّف أكثر، وبطريقة ما شعرت تجاهه بالألفة، كما لو كنت أستدرجه. لقد

وجدت نفسي راغباً بأن أتوقف عن أن أكون عبئاً، وبدا أن هذا قريب حقاً وممكن. لم تعد الحاجة لموتي مسألة رحمة بي، بل رحمة بها هي، وشعرت بأني لو سلّمت كل طاقتي لهذا الضعف فمن الممكن أن أعجّل الأمر. وهي ظلّت تتحدّث ناشجة بحدة أكبر كما لو تحثني: «إني لا أحاول أن أضغط عليك»، و«رفضك لن يغير شيئاً»، و«أنت تفعل هذا بنفسك»، وثمة في صدري ما يكاد ينفجر، وقلبي يتضخم ويثقل نبضه أكثر فأكثر، حتى لم أعد أميّز ما تقول. شعرت بوجودي كله يرتكز حول نقطة ما في صدري، يتكثّف ويتقلّص وينحصر داخل تلك النقطة، والتي راحت بدورها تتقلّص وتتقلّص حتى صرت أتنفس من ثقب إبرة، ثم أخذ كل شيء يمّحي.

حين استيقظت، كان كل شيء على حاله في الغرفة. بعد أن تقضي مدة كهذه في مكان واحد يسهل أن تلاحظ أي تغيير. جهاز الإنعاش فقط حُرّك في موضعه قليلاً، بشكل يوحي أنه استُخدم حديثاً ثم أُعيد بعجلة. ظل معلقاً في الموضع نفسه في الجدار، لكن على نحو مرتبك، كأنه ما زال ينتظرني أن أشكره. الطبيب المناوب دخل بابتسامة تقول إنه أنقذ حياتي، أو أنني كنت محظوظاً، لا فرق. أدركت ما حصل منه بعبارات متقطعة: هبوط حاد في الضغط، أدى إلى ضعف تزويد القلب بالدم، بعد عملية إنعاش او اثنتين عاد القلب ينبض. يجب أن تبقى هادئاً، يقول. سنحقنك ببعض الأدوية حتى يعود الضغط لمستويات طبيعية، لكن الحفاظ على الأعصاب ضروري أيضاً. لا بد أنه أعطى أهلي تعليمات مماثلة، لأن أحداً لم يدخل الغرفة. وجودهم لم يكن ليُلحظ غالباً، معظم الوقت يمر بنصف وعي نتيجة الكمية الهائلة من المسكنات التي تم ضخي بها.

أنام وأصحو. أميّز الممرض الأسمر من شرق آسيا. لا أظنه يذكرني.

يلاحظني أحدق نحوه بينما يتفقد الأجهزة والبيانات ويبتسم. أخبره عن آلام الصدر وضيق التنفس. يقول إن علينا أن نحسّن من ضغطي المنخفض بعض الشيء. الهبوط طبيعي بعد فترة طويلة من الاستلقاء، خصوصاً مع فقر الدم الذي يرافق اللوكيميا، بالإضافة إلى مضاعفات بعض الأدوية. إنه يتحدّث بالتفصيل ويبقيني دائماً على اطلاع. نظرته صريحة مباشرة ولا تتهرّب من إمكانية تحميلي إياه أعباءً إضافية. إنه أيضاً متخصّص في العلاج الطبيعي، يدلّك يدي ويقول إن هذا مهم لتعزيز تدفق الدم داخل الجسم. أجري معه بعض التمرينات البسيطة. نتحدث خلالها بهدوء.

هو في الخمسين من عمره، لياقته عالية وجسده رياضي. ابتسامته لا تكشف بالعادة عن أسنانه، كما هي عادة الممرضين، لكن شفتيه مسودّتان قليلاً بحكم سنه والسجائر. أسأله إن كان يدخن، يقول نعم ويضحك بخجل، كاشفاً عن صف من الأسنان المصفرّة قليلاً، لكنها نظيفة ومنتظمة كما يليق بممرض. أسأله إذا لم يشعر أبداً بأي تأثير للتدخين في رئتيه، أو في قلبه. أحياناً يصاب بالسعال، يجيب، إذا أفرط فقط، فيركض لينقّي رئتيه. أما القلب، هذه العضلة التي تنبض منذ خمسين عاماً، 60 مرة في الدقيقة، فلم يشتكِ منها يوماً. وماذا يفعل خارج أوقات العمل؟ يتمرن، يطبخ، يذهب إلى السوق. زوجته هناك في موطنه مع ابنتيه، إنهما في مثل سنّي الآن تقريباً، يضيف. في بعض الأيام يخرج مع أصدقائه لصيد السمك؛ ثمة في هذا ما يفسر لونه الذهبي الضارب للسمرة. فجأة أتذكر الشيخ بكثير من الدفء والحنين، فأطلب منه أن يخبرني المزيد. كل عطلة أسبوعية، يخرجون في الصباح الباكر، على متن قارب صغير، هو وخمسة من أصحابه. يصطادون ما شاء لهم البحر أن يصطادوه ثم يعودون في الظهيرة

عند اشتداد الحرارة. يشوون ما اصطادوه ثم يتناولونه على الغداء. وفي المساء يعودون متعَبين وممتلئي البطون بما كسبوه بأيديهم. يا للبهجة. أسأله إذا كان يمكن لي مرافقته يوماً فيوافق. كلانا يعلم أنه احتمال بعيد، لكنه كان طيباً بما يكفي ليترك النافذة مفتوحة.

تمر الأيام بهدوء على هذه الوتيرة. الممرضة تتردّد لقياس الضغط، الممرض يحضر لإجراء التمرينات، الطبيب يتفقّدني راضياً عن استقرار حالتي. أمي تدخل بحذر شديد. تبدو أشد حذراً في دخولها وأنا مستيقظ مما لو كنت مغمض العينين، عكس حالها حين تدخل الغرفة في البيت. تتقدّم ببطء، لتتأكد أني لا أمانع، ثم تجلس ولا تنبس بكلمة. حين تغالبها دموعها تخرج بعجلة، كأنها تخشى أن يسبب لي هذا نوبة أخرى. حين يدخل الطبيب كانت أيضاً تخرج بعجلة، كأنها تعيق عمله. وحين تخبرها الممرضة أن وقت الزيارة انتهى، تخرج مذعنة كطفلة مهذبة، وأيضاً من دون أن تنبس بكلمة. ثم توقفت عن الحضور. أخبرني أخي أنها طريحة الفراش بالحمى، كأنما من آثار ما حدث. صار يزورني يومياً بالنيابة عنها. تأجل زفافه أسبوعاً آخر لوجودي في المستشفى، ومع هذا بدا مرتاحاً وبلا ضغينة. قال إنه يحمل أخباراً جيدة، وأني لن أصدق؛ بمجرد خروجي سيخبرني بالأمر. أظن أنه فقط يحاول رفع معنوياتي تنفيذاً لتوجيهات الطبيب.

شهرٌ كامل قد مرّ منذ أن دخلت المستشفى، شعرت بعده أني لن أخرج أبداً. ثم جاء رئيس الأطباء مبتهجاً وأبلغني. بعد الظهيرة أغادر، ربما نهائياً، وبكل بساطة، كما يغادر أحدهم فندقاً على الطريق السريع.

الأسبوع 40:

عدت مع أخي. أطلعني على ما فاتني من تطورات. لقد اتضح أن جدي كان يملك أكثر مما تخيّله الجميع في تلك الخزانة، وكان قد خصَّني منها بوصية لسد نفقات العلاج. لم يكن المبلغ زهيداً؛ ثلث المال بحسب الوصية المشروعة لغير الورثة. ورغم أن أعمامي حصلوا على كل الملايين المتبقية من الإرث، إلا أن الثلث لم يكن شيئاً يمكن لهم التغاضي عنه. بعضهم أشار إلى نوع من الاحتيال من جهتي، وكأني استثمرت تعاطف جدي مع المرض الذي أصيبت به جدتي أيضاً. الآخرون كانوا أكثر واقعية؛ عرضوا على أخي أن يديروا لنا الأموال ويشرفوا بأنفسهم على العلاج، داخل البلد طبعاً، كي لا أتعرّض للنصب والاستغلال.

«إنهم يتذكروننا الآن هؤلاء الملاعين»، قال وهو يركن السيارة بعصبية، مسترجعاً مواقف سابقة بينهم. لم أستطع بدوري أن أشاركه غضبه، فقد كان اعتراضهم مفهوماً لي بطريقة ما. قرار كهذا كان خارجاً عن طبيعة جدي، كما عرفوها على الأقل، ولعله لم يكن في حالة

ذهنية صالحة للحكم. في جزء مني شعرت كما لو أني أصبت نفسي عامداً بالمرض فقط لأحصل على هذه الفرصة. في كل الأحوال، من الأفضل أن أقرر عاجلاً ما سأفعله بالمبلغ لأتفادى أي عقبات محتملة، قال أخي ونحن ندخل. سيطلعني على التفاصيل لاحقاً؛ أما الآن عليّ أن أرتاح وأبقى قليلاً عند أمي. لا تزال طريحة الحمى منذ أيام.

اتجهت إلى غرفتها فور صعودي. كانت لا تزال نائمة. سحبتُ مقعداً إلى جانبها وجلست. بعد برهة انتبهتُ للمفارقة: هي على السرير، وأنا بجانبها على الكرسي؛ من يرانا سيتصوّر أن الوضع كان هكذا دائماً. مددت يدي لأتحسّس حرارتها، كما كانت تفعل لي خلال شهور مرضي، وسابقاً في طفولتي. كنت أكره هذا حين تفعله، وأشعر بجبيني لزجاً ساخناً على باطن كفها الغضّ النظيف. تركتُ يدي هناك لوهلة، كان جبينها ناعماً وبلا تغضنات؛ أتساءل لمَ لمْ أفكر به من قبل على هذا النحو. فتحتْ عينيها وحدقت إليّ.

- «كيف تشعرين؟».

- «لا بأس»، أجابت وهي ترفع نفسها بثقل، ثم أضافت: «لا أريد أن أشتكي».

أبتسم.

- «وأنت؟».

- «لا بأس، لا أريد أن أشتكي».

تبتسم. المرض روّض شيئاً ما بداخلها، وأضفى عليها شيئاً من الرقّة.

- «بإمكانك دائماً أن تشتكي كما تعلم، أنا أمّك».

- «أعلم».

لطالما كنت متحدثاً مقتضباً في مثل هذه المواقف، وكأن كل كلمة زائدة تنذر بالوقوع في فخ الابتذال.

تحادثنا قليلاً في مستجدات العلاج. أخبرتها أن الإشعاعي عالج الكبد تماماً من الخلايا السرطانية. وهي استبشرتْ بهذا وانفرجت أساريرها. سألَتني إن كنت قد علمتُ بشأن وصية جدي، أجبت بأن أخي قد أطلعني باختصار. بقينا صامتين لوهلة. بدا أنها اكتسبت شيئاً من الاسترخاء بعد هذه الأخبار، ولعلها بدأت فوراً بالتحسّن. ومن دون تفكير مسبق، عرضتُ عليها خطتي للعلاج في اليابان. كنت قد قضيت الكثير من أوقات فراغي في الأسابيع القليلة الماضية أبحث في مراكز العلاج في الخارج، بحسب توصية الطبيب، وقد توصّلت بمساعدة منه إلى أن العلاج المناعي هناك سيكون الأنسب في مثل حالتي. لا يُتوقَّع من علاج كهذا أن يضمن التخلص من السرطان، رغم أن ثمة حالات كُتب لها الشفاء التام، لكنه خليق بأن يمد في عمر المرء بضعة أعوام بقدر ملموس من الصحة والقدرة على الاستقلال بنفسه؛ وفي أسوأ الأحوال، القدرة على التعايش مع المرض بأقل قدر من الأعراض.

حاولت أن أبدو قدر الإمكان كمن عزم على الأمر منذ مدة، رغم أن خيوط القرار لم تتشابك في ذهني إلا عندما بدأت أتحدّث. ورغم أن الأمر لم يحز على ارتياحها الكامل في النهاية، إلا أن امتلاكي لخطة واضحة، بدأتُ بالقيام بمتطلباتها كما بيّنتُ، ترك في نفسها نوعاً من الرضا والقبول. وقد شدّدتُ لها على أني لن أمضي في هذا سوى إذا سافرت وحدي، أو فقط برفقة ممرّض خاص، لأقطع عليها كل سبيل لأن تشعر تجاهي بالذنب أو بالتخلي، أو مهما كان الشعور الملتبس الذي راودها حين كانت تحثني قبل مرضي على أن أعثر على مسكن

جديد. بيتُنا سيتم تسليمه لمالكيه الجدد نهاية الشهر، كما هو مُتفَق، وستنتقل هي للعيش مع أخي حين يعود من شهر العسل. وبحلول ذلك الوقت ستكون كافة الإجراءات التي أحتاجها قد اكتملت، بما في ذلك استلامي الوصية التي ستغطي تكاليف العلاج والمعيشة في طوكيو، وربما بعض التسوّح في الجوار.

أعود إلى غرفتي أخيراً. أفتح النافذة؛ ألاحظ ما يشغله البرج في الخارج منها، مقارنة بما كان عليه قبل دخولي المستشفى. لم يكن المشروع السكني الجديد قبلها يتجاوز بعض الخرسانات والقضبان الحديد. حين أرى ما اكتمل منه الآن، أدرك كم مضى من وقت. إنه الشتاء مجدداً. الشمس ترسل أشعتها الأخيرة لتصبغ أسطح الأجسام بلون برتقالي دافئ، وثمة نسيم رطب ينفذ من الشبّاك. واقفاً هناك، أمام النافذة، ينفذ إلي ما هو أخف من هذا الهواء، ما هو أدفأ من هذا الضوء، ما هو أكبر من أن أضع إصبعي عليه في المشهد بأكمله. أشعر بأني أتصل بما يتجاوز حضوري المحدود في هذا المكان، لكنه شعور يتعذّر أن يمتدّ لأكثر من برهة عابرة.

تسعة أشهر كاملة مضت مذ أن بدأت هذه المذكرات. أتذكر هذا فيما أتناول رواية «الجبل السحري» التي بدأتها في القطار وأقلّب صفحاتها الأخيرة.

أعيد الكتاب إلى الكومودينة وأصب كأساً من الإبريق الزجاجي الممتلئ. ألتقم بضع حبوب مسكّنة وأتجرعها على مهل. نبضات قلبي تنتظم كما لو كان أيضاً بحاجة للماء. أستلقي على الفراش المعَدّ حديثاً؛ برودته ترسل قشعريرة في المسام. أحرك أطرافي لأستشعر الدفء، متلذذاً بالصوت الناتج عن احتكاكها على الملاءة؛ من هناك

تنبعث الرائحة العطرة للغسيل. أتدثّر وأبقى ساكناً لوهلة، مقلّباً نظري في محتويات الغرفة. الصناديق المتروكة على حالها، منذ انتقالي إلى هنا قبل عامين، تبدو مهيأة للانتقال مجدداً. لن يلزمني الكثير من العمل، أفكر ثم أغفو قليلاً.

حين أستيقظ أشعر بسكينة في أعضائي. أصوات الجيران تتسلّل إلى سمعي، خافتة عبر النافذة، كقبس من ذكريات قديمة. أبقى مستلقياً لفترة، مستغرقاً في الدفء، في بهجة انتظام النبض، في إمكانية التقلّب من جنب إلى آخر من دون إجهاد. أرفع رأسي وأتابع خطاً من النمل يمشي على البلاط، باحثاً عن طعام غاب أثره بعد أن نظفتْ أمي الغرفة. أتابعه وينمو بيني وبين هذا الكائن رابط سرّي من الوهن المشترك؛ أجد نفسي مشفقاً حتى عن سحق إحداها بإصبعي كما كنت أفعل في صباي. ربما بتُّ أخشى أن تلاحقني سوءاتي نحوها في حياتي القادمة، أو أن أموت في حياتي هذه مسحوقاً كنملة إن لم أكفّر عن ذلك. ومن يدري، فلعلي أستيقظ ذات صباح لأجد أني قد تحولتُ في سريري إلى حشرة ضخمة كما يحدث في قصة «الانمساخ».

أتذكر أني كنت في صِغَري آكل النمل لمجرد التجربة، أو لا أدري لماذا؛ ليس ثمة سبب جيد لفعل هذا على أي حال. ثم اكتشفت أنها طريقة ناجحة للفت انتباه فتيات الجيران والزائرات الجدد القادمات مع أمهاتهن إلى بيتنا. كنّ ينشغلن باللعب والركض خلف بعضهن البعض بفساتينهن المنفوشة التي تصدر حفيفاً ناعماً، وأنا أتابعهن في صمت من مكاني المعتاد على الدرج؛ متمنّعاً عن المشاركة خشية أن أُرفض، عاجزاً عن اكتشاف الطرق السهلة التي يحدث بها الاندماج. وحين انتبهتْ لي إحداهن أقبلت نحوي ووقفت أدنى مني

بدرجة واحدة، وراحت تحادثني بفضول واهتمام، فيما بقيتُ أمامها جالساً مطرق الرأس، من دون حتى أن أجيب على أي من أسئلتها. ثم فجأة، تناولتُ بإصبعي نملة عابرة قرب قدمها، ووضعتها على لساني وابتلعتها، فشهقتْ هي، والتمعت عيناها، وراحت بسرعة تنادي الأخريات:

- «تعالين، تعالين، انظرن ماذا يفعل!».

فتوقف البقية عن الركض واقتربن متطلعات ووقفن حولي، وأنفاسهن الحارة تلهث من فوقي. ومن دون أن أرفع رأسي نحوهنّ، ومن دون أن أنطق بكلمة، تناولت نملة أخرى والتهمتها، ثم أخرجت لساني لأثبت ابتلاعي لها، فرُحن يصرخن معاً بدهشة ومرح، وبعضهن رحن يصحن في قرف، وأخريات أخذن يسألنني كيف طعمها. كنت أرفع كتفي لا مبالياً كمن جرّب أتفه الأشياء في العالم، فينطلقن مجدداً في الركض، وبحيوية أكبر، صارخاتٍ بمرح أشد.

أحببت تلك الحادثة وما حصدته فيها من نجاح، وشعرت بأني تركت في نفوسهن انطباعاً لن ينسَينه أبداً. وحتى بعد أن أخبرن أمهاتهن وقرّعتني أمي على فعلتي هذه، ظللت أتعامل دائماً مع النمل كما لو كان مسخَّراً لاستعراض قوتي. فحين أجلس على المرحاض، كنت أتناول الرشاش وألاحق أي نملة أجدها تتمشى في الحمام بلا هدى. أرشّها يمنة ويسرة فتنزلق على البلاط وهي تركل بأطرافها بضراوة لتقاوم اندفاع الماء، حتى تنتهي في زاوية ما لتقضي نحبها مع بقية رفيقاتها اللاتي تجرأت على الظهور أمامي بينما أتغوّط. وإذا ما وجدت إحداها تتسلّق الجدار أو تمشي على الطاولة كنت أنفخ عليها أو أضربها بظفري فتطير بعيداً بلا أمل في الرجوع. أما حين تجتمع

في أعداد كبيرة حول قطعة طعام، فكنت أرشّها بالمبيد الحشري عن بكرة أبيها، فإذا بها تنكمش معاً دفعة واحدة، ويتقلص وجودها فوراً في نقاط صغيرة منثورة بلا حياة.

أتذكر هذا وأنا أنثر فتات طعام جديد فوق البلاط، ثم أتابع بضع نملات وهي تجتمع وتتغذّى منه معاً، أو تحمله إلى صغارها في الجحور. فجأة يصبح سلب أتفه الحيوات، حتى لو لم تكن سوى حياة حشرة، عملاً مضنياً باعثاً على الحزن الشديد. لكن ليس ثمة ندم في هذا الحزن، ولا كآبة تتلوه بعد أن بدأ مفعول عقار الاكتئاب. إنه حزن من نوعٍ آخرٍ هذا الذي أشعر به الآن، أقرب إلى ما يشعر به المرء بعد قصيدة هايكو. ثمة كلمة تختزله في اللغة اليابانية، لا نظير لها في أي لغة أخرى كما قرأت. تُنطق مقاطعها هكذا: «مونو نو أوير»، وتعني: الأسى العذب على زوال الأشياء، أو العطف الناتج عن إدراك حتمية مضيّها. ها هي أول كلمة يابانية أجيدها.


تمت
23/1/2018
Telegram: @Arab_Books

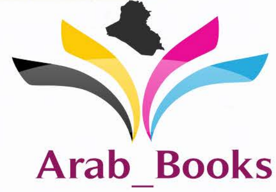
تصميم الغلاف نجاح طاهر

الحالة الحرجة للمدعو ك.

عزيز محمد

«بضع لحظات صامتة مرّت، فيما راح ينغلق الباب على مهل. أخبرني بعدها أن عليَّ التفكير بجدية في العلاج الكيميائي، بنفس النبرة التي يمكن أن يخبرني بها أحدهم أنه حان الوقت لشراء حذاء جديد.

كنت هادئاً، والطبيب هادئ، والغرفة هادئة، ودرجة الحرارة فيها مناسبة، وكان ثمة بخار يتصاعد من أكواب الشاي الورقية أمامنا. حملت الكوب إلى حجري وأطرقت إليه بسكون. عبر الشق السفلي للباب، كانت تصلني من الممر أصوات خافتة؛ نداءات لمرضى، وممرضات يتحركن بخفة في أزواج أحذية بيضاء، تلتصق خطواتها في البلاط. ومن منطقة أبعد قليلاً، أخذ يتردَّد بكاء صاخب لرضيع، حُقن بإبرة على الأرجح. حين عاد الطبيب يتحدث، كنت لا أزال ممسكاً بالكوب وقد ازداد سخونة بين يديّ. استغرقت في التحديق داخل الكوب باهتمام، كما لو كان صوت الطبيب يصدر من هناك».



ISBN 978-9953-582-39-9
9 789953 582399



التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس